المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التسعين

١ مارس سنة ١٩٣٧ — ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٥

على ذكر فتوى

تحديد النسل

وآثاره الصحية والاجتماعية والدولية

أصدر حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٣٧ فتوى في هذا الموضوع لخصها جريدة « المصري » في عددها الصادر في ٢ فبراير في ما يلي : —

« من أرباب العائلات الكبيرة بين المسلمين وغير المسلمين أفراد كثيرون يشعرون بوطأة الازمة الاقتصادية ويخشون للمستقبل وتقلات الأبناء من طعام وشراب وتعليم وقد دفعهم هذا الشعور الى التفكير الطويل في الحذر والحيطة ومن الأمور الجوهرية التي فكّر فيها هؤلاء مسألة تحديد النسل فمن كان عنده ثلاثة من الأولاد مثلاً يلاقي الويل لكي يجعل منهم شباناً صالحين في بناء الوطن ولكن أغلبية هؤلاء جميعاً يعرفون ان لهم ديناً قيماً يريدون التوفيق بين نصوصه وتعاليمه وبين هذه المبادىء القاسية

« والى الآن لم يخط أحد من رجال الاسلام في السنين الأخيرة خطوة تشفي غليل هؤلاء جميعاً وتحدد الموضوع تحديداً واضحاً للأهالي والأطباء . وقد اتصل بنا ان حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية أصدر في يوم ٢٩ يناير الماضي فتوى خطيرة في هذا الموضوع يفهم منها :

« أولاً — يجوز لكل من الزوجين أن يتخذ من الوسائل ما يحول دون حمل زوجته

« ثانياً — يجوز لكل من الزوجين قبل نفخ الروح في الجنين ، وهذا يحتاج الى عدة أسابيع كما قرر الأطباء أن يتخذ من وسائل الادوية (من غير اضرار بصحة الزوجة طبعاً) ما يمنع الحمل عند وجود عذر مقبول كما مثل لهُ وهذا على رأي بعض الفقهاء

« ثالثاً — باجماع الفقهاء لا يجوز عمل او تصرف من شأنه اسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه

***

ونحن لا نعرض للموضوع من حيث علاقتهُ بدين من الاديان السموية لان المقتطف مجلة غير دينية ، ولا من حيث تطبيقهُ في هذه البلاد او غيرها من البلدان ، لان مشكلة السكان والحث على زيادتهم كما في المانيا وايطاليا او ترك جلبهم على الغارب كما في فرنسا وانكلترا وغيرهما ، من الخطط التي تقررها بعض الحكومات متى رأت الحاجة تلجئها الى ذلك . ولكن للموضوع نواحيهُ الصحية والاجتماعية والدينية ، وهي النواحي التي ينبغي ان نعالجها باوجاز في هذا المقال ، وليس لنا غير الجمع بين آراء الموضوع من مختلف الكتب والمجلات ، جمعاً حاولنا ان نحفظ فيه التوازن بين اصحاب الآراء المختلفة والمذاهب المتناقضة

ان الحركات الاجتماعية الخطيرة في تاريخ ارتقاء العمران تنبعث في الغالب عن دافع نفسي يملك مشاعر الانسان فيأخذ على العقل سبيل التفكير المجرَّد . فهي آناً حركات يولدها ويمثلها في سبيل التضحية دينية كالصهيونية او شعور يحق مهضوم كالثورة الفرنسية او تصوُّر رفيع للمثل الأعلى ينبثُّ في جوانب النفس يدفعها في سبيل تحقيقه غير ملتفتة الى ما يناله من أذى واضطهاد كالاشتراكية وما اليها . على ان حركة تحديد النسل تختلف عن هذه الحركات الاجتماعية في انها تنبع من معرفة علمية بوجود مخاطر صحية وسياسية واقتصادية تنجم عن كثرة النسل وتواليه بحب اجتنابها ، مع انها في دورها الأخير تحوَّلت تحوُّلاً كبيراً لما نالهُ اصحابها من مقاومة واضطهاد وسجن وغرامة ولكن اساسها العلمي يجب ان لا ينفصل حين بسط مبادئها والالمام بسير اقطابها

وفكرة تحديد النسل ، ترتدُّ كفكرة اجتماعية الى مفكري اليونان الاقدمين بل والى ما قبل اليونان . اذ من المعروف ان القبائل التي لا تزال الى عصرنا الحاضر تعيش على البداوة تميل احياناً الى تحديد النسل بوسائل وأساليب فظة همجية اشهرها قتل الجنين او الطفل الوليد . وقد ذكر برمي سمث في مقال لهُ عن سكان جزيرة هورن في غرب المحيط الهادىء نشر في جورنال الجمعية البولينيزية انهُ ليس من بواعث خجل المرأة هناك ان تقتل وليدها وان هناك غير امرأة واحدة قتلت من ولدها ستة . ومن وسائلهم سحق الجنين بضغط جسم المرأة حيث الرحم بحجارة ثقيلة . وقد اشار الاستاذ كارصوندرز في مؤلفه « مشكلة السكان » الى ان قبائل بدائية مختلفة تعلم كيف تمنع الحمل وان ولدها قليل ، ولكنهُ لم يبسط الكلام في هذه

الوسائل . والكتب التي تعالج هذا الموضوع وتفصل التقاليد المتبعة في القبائل الهمجية كثيرة . اما في عهد اليونان فقد ذكر فلوطرخس مؤرخ العظام الأقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل جميع الأطفال الضعاف البنية رغبةً منهُ في تنشئة شعب قوي . وأدرك افلاطون وارسطوطاليس الخطر الناجم عن كثرة المولد ، وخصوصاً من كان منهم في الأسرة الضعيفة فاقترحا أساليب متطرفة مختلفة لاجتنابه . ولكن طائف النسيان طاف بهذه الفكرة في القرون الوسطى كما طاف باكثر الآراء التي ابتدعتها عقول اليونان وتخيلاتهم . حتى بعد نهضة العلم والفن في العصور الحديثة ظلت «كثرة النسل» شعاراً لأمم اوربا لان المفكرين حينئذٍ كانوا يرون عظمة كل امة وتفوقها مرتبطين اوثق ارتباط بعدد سكانها ، ولم يشذَّ منهم الا اللورد باكون الفيلسوف الانكليزي الذي أشار اشارات متفرقة في مؤلفاته الى خطر النسل الكثير في اضعاف الشعب وافقارهِ . وظلَّ القول بأن قوة الأمة الحربية وتفوقها القومي مرتبطين بكثرة سكانها حتى القرن التاسع عشر ، لما قام مونتسكيو في فرنسا وبنيامين فرنكلن في اميركا وغيرهما في بلدان اخرى يحاولون ان يمشوا آراء افلاطون وأرسطوطاليس من مدفنها مبينين ان في سرعة ازدياد النسل في أية أمة خطراً على رفاهيتها

ذلك انهُ اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانهُ ولكن الى حدٍّ ما . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . لذلك تعنى الحكومات التي تحكم بلداناً مترامية الاطراف قليلة السكان بدعوة الناس الى الهجرة اليها وترغيبهم في ذلك . ولكن لا يلبث ازدحام السكان ان يبلغ حدًّا تصبح الزيادة بعدهُ خطراً على البلاد لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من ان ترفعهُ ، ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا على ما تتسع لهُ المعامل والمتاجر . فترتفع بينهم مبادئ الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً أو يتجهون الى التوسع والتبسط بالقوة فتكون الحروب واهوالها . وقد يتعذر تعيين هذا الحدّ الفاصل بين الحالين . لانهُ يختلف باختلاف البلدان وما بلغتهُ من الرقي الصناعي والتجاري والزراعي . فبلاد في عرف الكنديين تحسب غاصة بالسكان يحسبها الصينيون قليلتهم لان هؤلاء تعودوا ان يروا ٤٠٠ نفس او اكثر مزدحمين في بقعة من الارض مساحتها ميل مربع او اقل

وعلى الرغم من ذلك اجمع علماء الاجتماع والاقتصاد على وجود هذا الحد في احوال معينة فيبلغ عدد السكان عنده مبلغاً يمكنهم من التمتع بأرقى وسائل العمران وأعلى مستوًى اقتصادي في معايشهم . وهذا العدد يتغير في كل بلاد بتقدم الحضارة فيها . فلو ان سكان الولايات المتحدة الاميركية كانوا منذ مائة سنة ١٣٠ مليوناً — كما هم الآن — لما كان ملاك الثروة والرخاء مرفرفاً فوقهم كما هو مرفرف الآن وما نسمع عنهُ من كثرة العمال المتعطلين عن العمل بينهم يرتدُّ الى سوء توزيع الثروة لا الى

شدة ازدحام البلاد بابنائها . وبلجيكا التي تكاد تعض بسكانها اكثر رخاء من بلاد فارس . مع ان ٦٥٩ نفساً من سكان الاولى يقطنون في ما مساحته ميل مربع واحد من الارض يقابلهم ١٦ في الثانية

فاذا كانت البلدان المزدحمة بالسكان غير منتظمة انتظاماً اقتصادياً دقيقاً وعرضة في كل آن لانقلابات سياسية خطيرة لم يشعر الشعب شعوراً عاماً بازدحامه ووجوب توسعه . لانهُ لا يجد متسعاً كافياً من الوقت للانصراف الى التعمق وادراك ان نطاق العمل في بلاده لا يتسع لجميع افراد الامة لكثرتهم . فاذا انتظمت هذه البلدان واشتد فوق ربوعها رواق السلام والطمانينة أدرك أفراد الشعب ان الارض لا تتسع لهم ليجنوا من عملهم فيها ما يؤهلهم لمكانة بين الشعوب كمكانة جيرانهم فينظروا نظرة الطمع الى البلدان التي يمكن ان تكون منفذاً لهم

فايطاليا مثلاً لما وجدت نفسها تكاد تنفجر من كثرة السكان بالقياس الى موارد العيش فيها طلبت أرضاً تجعلها منفذاً لفلايين من أبنائها وقد قال السنيور موسوليني في ذلك «يجب على ايطاليا ان تتوسع والا انفجرت» ولعل هذه الفكرة هي أقوى العوامل التي كيفت سياسة ايطاليا الخارجية في السنوات الاخيرة . وما يصدق على ايطاليا من هذا القبيل يصدق على المانيا واليابان

وقد كتب أحد الفلاسفة الاجتماعيين المحدثين كتاباً قال فيه ان الاتجاه من البلدان المزدحمة بالسكان الى البلدان قليلة السكان وما ينشأ عن ذلك من التصادم اكبر باعث على الحرب

ولكن القول بتحديد النسل في العصور السالفة ظل يتراوح بين الموت والحياة حتى جاء الاب « مالتوس » في آخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨) فبيّن ان السكان يزدادون زيادة هندسية . وأما اقوات الغذائية فلا تزداد الا زيادة حسابية . ولذلك لا بدّ ان يجيء يوم يبلغ فيه سكان الأرض عدداً لا تكفي موادها لتغذيته . وأودع رأيهُ هذا كتابهُ الذي موضوعهُ « رسالة في مبادىء السكان » . ولما كان نشر هذا الكتاب موافقاً لذيوع المبادىء التي قامت عليها الثورة الفرنسية عني به المفكرون والكتّاب فراج في فرنسا وأخذ بمبادئه اشرافها وعامتها ، وذلك لان وسائل مختلفة كانت قد استنبطت فيها لمنع الحمل وذاعت بين طبقة الاشراف ، ولان عامة الأمة الفرنسية اقتنعت بوجوب الاكتفاء بالاسرة الصغيرة منعاً لتقسيم الارض التي يملكها الأب على أبنائه ، وهذا يعلّل تناقص متوسط المواليد في فرنسا من ذلك الحين . على ان وسائل منع الحمل لم تكن معروفة خارج فرنسا ولذلك أشار الاب مالتوس «بالامتناع عن الزواج» أو « تأخير الزواج» لمنع ازدياد النسل ازدياداً سريعاً . وجاء بعدهُ فريق النفسيين الذين جعلوا شعارهم « الخير الاكبر للعدد الاكبر » فدعوا الى تحديد النسل . ومع ان مذهب مالتوس في ازدياد النسل وازدياد الغذاء قد قلب رأساً على عقب بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، ظلت النتائج التي وصل اليها عن الخطر الاجتماعي الناجم عن كثرة النسل سليمة على قدمها وتقلب الاحوال عليها

ولا يخفى ان آراءنا في الفضائل الاجتماعية تتغير بتغير العصور . فالمرأة التي كانت في فجر التاريخ، تعترض على قتل ولدها ،في قبيلة جرت على ذلك، كانت امرأة غير فاضلة في عرف أقاربها وجيرانها . كذلك كانت كل امرأة اسبرطية تحاول ان تعفي ابنها الضعيف من الشدائد التي كان يعرض لها لاثبات قوته وحقه في الحياة كاسبرطي . فالفضيلة كانت ، عمل ما يصدر عنهُ الخير للمجتمع ، ولم يكن من خير سكان جزيرة ، او ابناء قبيلة رحالة ان يكثر نسلهم ، كما انهُ لم يكن من خير إسبارطة ان يكون بين أبنائها ضعاف او هذا كان رأي أفلاطون حينئذٍ

ولما ارتقى العمران حل محل قتل الاطفال وسائل مختلفة للاجهاض كان لها مكانها في الفضيلة الاجتماعية في تلك العصور . فلما ذاعت تعاليم المسيحية التي تقول بأن كل نفس قابلة للخلاص صار من الاجرام قتل النفس ، ولذلك أصبح الاجهاض كقتل الأطفال جريمة لا تغتفر . أما دعاة تحديد النسل فيعترفون بوجوب الامتناع عن قتل الاطفال او اجهاض الأمهات ، لان الاول في عرفهم اجرامٌ صريح والثاني علاوة على ما فيهِ من اجرام يعرض الأم للألم المبرح وخطر الموت . ولذلك ينادون بوجوب منع الحمل بطرائق ثبت خلوها من اي اعتراض طبي او صحي او اجتماعي عليها . أما البراهين التي يوردونها لتأييد دعوتهم فكثيرة نلخص منها ما يلي :

يرى بعض الثقات في موضوع الولادة وأمراض النساء وجوب انقضاء سنتين الى ثلاث سنوات بين ولادة وأخرى حتى لا تتعرض صحة الأم للخطر . واليك ما تقولهُ سيدة حالتها تمثل ألوف الحالات : « لا أزال في الثانية والعشرين من عمري ولكنني أم خمسة أولاد فقد ولدت ولداً كل سنة من حين زواجي الى الآن . لن أستريح قط وأشعر ان صحتي آخذة في الانحطاط يوماً بعد يوم » . وكتبت أخرى : « أنا اليوم أم ستة أولاد وقد أجهضت مرتين . عمر ابني الكبير اثنتا عشرة سنة ولكنهُ مصاب بعاهة منذ ولادته اما أولادي الخمسة الباقون فضعاف صفر الوجوه وعليَّ ان آخذهم للطبيب كثيراً واحدى ابنتيَّ عوراء . لقد حاولت ان أبتعد عن زوجي قدر المستطاع منذ ولادة ابني الأصغر ولكن ذلك يؤدي الى ما لا تحمد عقباهُ في سلام البيت وهناءته » . وهذان المثلان نقلناهما عن مجلة تعارز الاميركية . وقد أثبت الدكتور ادلفوس ڤُف من أطباء مدينة نيويورك ان آخر المواليد في الأسر الكبيرة يكونون أضعف المواليد بنية وأكثرهم تعرضاً للاصابة بالسل . وعندهُ ان الام تكون قد أجهدت صحتها في الولادات الأولى فتورث ولدها الأخير — أو أولادها — ارثاً فسيولوجياً ضعيفاً لا يمكنهم من مقاومة الآفات الصحية . أضف الى ذلك ان ازدياد الاولاد يقلل نصيب كلٍّ منهم من دخل رب الاسرة . فتضطر الأسرة ان تسكن في احياء قذرة مزدحمة لا تدخل الشمس بيوتها وان تكتفي بالطعام الرخيص وبالكساء الذي لا يقي البرد . ومن رأي الرئيس هوفر ان كل طفل أميركي لهُ الحق في ان يتلقى من والديه

جسمًا سليماً وعقلاً سليماً وان يولد في وسط صحي تتوافر فيه أسباب العناية » . ويضيف الى ذلك احد رجال الكنيسة في اميركا « ان الاسرة الكبيرة في الطبقات الفقيرة ليست من ارادة الله ولكنها من خرق الاجتماع » . ويقول الحاخام سنيفن وز اكبر رجال الدين اليهودي في اميركا : « ان الموقف الديني ازاء الحياة لايقضي باكثار النسل اذا لم يكن في وسع الوالدين ان يعطوا كل ولد من العناية الصحية والتهذيبية مايجعل للحياة قيمة في عينيه »

اذاً تحديد النسل يفيد الامّ ، لانهُ يمكنها من ان تحتفظ بصحتها ونضارتها ، وهذا يمكنها من العناية بشؤون دارها وزوجها وأولادها والقيام على تربيتهم وتهذيبهم بما يقتضيه ذلك من العناية الدقيقة المستمرة والنصب الدائم . وهو كذلك يفيد الاولاد ، صحيًا واجتماعيًا ، اما صحيًا فلانّ الطفل الذي يولد من امّ قوية ليس كالطفل الذي تلدهُ امّ أنهكتها آلام الحمل والطلق والولادة . واما اجتماعيًا فبتوافر وسائل الغذاء والكساء والتعليم والتهذيب

وهو كذلك يفيد الاجتماع اذ يستطيع القضاء بمرض ورأي ان يكفي ميولهُ في نطاق الزواج الشرعي من غير ان يكون سبباً في ولادة اولاد مشوهين او مصابين بامراض يقولون قول المعرّي

هذا جناهُ ابي عليّ وما جنيت على احد

وهو يفيد الاجتماع من ناحية اخرى هي الناحية السياسية فيساعد على منع الحروب بين الامم الكثيرة الولد التي تطلب التوسع لتجد لسكانها ميداناً يعملون فيه ويرتزقون منهُ وهذا التوسع يؤدي في الغالب الى اصطدام المصالح الدولية ويفضي الى الحرب او يهدد بوقوعها . وقد قال الواعظ الاميركي الشهير الدكتور فرذك « لاتستطيع ان تضع تفتك مارب و نام خالي البال اذ سمحت لسكان الارض ان يتضاعفوا كل ستين سنة »

اما نقاد هذه الحركة فيرون رأي اصحابها في الشرور الصحية الكثيرة التي تنجم عن كثرة الولادة ، ولكنهم يرون « ضبط النفس » لا « تحديد النسل » خير سبيل لمعالجة الحال . على ان هذا في رأي الفريق الاول متعذر ، حتى ولو اتفق الزوجان على تحقيقه لان العلم لم يكشف حتى الآن عن وقت معين لايحدث فيه الحمل الا في اثناء الحمل . فاذا شاء الزوجان ان لايلد لها ولد الا مرة كلّ ثلاث سنوات أفيعقل أن يكون « ضبط النفس » حينئذٍ وسيلة لمنع هذه الشرور ! ويرى طبيب من مقام الدكتور وليم الن بيوزي رئيس الجمعية الطبية الاميركية ان محاولة تقليل عدد الاولاد « بضبط النفس » يعرض السعادة الزوجية للاصطدام على صخرة نافرة الانياب . ومما يقال في نقد هذه الحركة ان وسائل تحديد النسل تؤذي الانسان وتسبب السقم . ولكن الاطباء الذين بحثوا هذا الموضوع بحثاً استقرائيًا يؤكدون ان استعمال الوسائل التي اقرّها الاطباء لا تحدث شيئاً من الاضرار المشار اليها . الا ان هذا الرأي الاخير مختلف فيه بوجه عام

ويعترض فريق آخر من النقاد بقولهم ان شيوع وسائلها يكون مقدمة لفساد الآداب الجنسية وانحلالها . ولكن الدكتور بيوزي يرى ان الحالة الحاضرة أبعث على فساد الآداب الجنسية لانهُ يعتقد ان الجهل بوسائل تحديد النسل يفضي الى كثير من الاضطرابات العائلية فيبحث الرجال عن طريقة غير مشروعة لاكفاء ميولهم

على ان اقوى حجج المقاومين هي أثر شيوع هذه التعاليم في الشبان والشابات . وهذه الحجة تمنع طائفة كبيرة من المتعلمين عن تأييد هذه الحركة ان لم نقل انها تحملهم على مقاومتها . فيرد انصارها عليهم بقولهم ان علماء السيكولوجيا قد أثبتوا ان النواهي لا تحمي حتى الفضيلة والآداب . ويجب ان نبحث عن طريقة اخرى كالتربية الصالحة نلمّ بها الاحداث الاعتصام بالفضيلة الجنسية غير النهي والمنع . أضف الى ذلك ان دعاة هذه الحركة يريدون ان يشجعوا الشبان والشابات على الزواج الباكر بازالة اكبر موانعه وهو الخوف من كثرة الاولاد التي تضعف المرأة وترهق جيب الرجل . يرون ان الزواج الباكر أفضل الطرق لمحاربة هذه الشرور الاجتماعية

اما دعاة هذه الحركة فقد نالوا من المقاومة والاضطهاد ما ينتظر لكل حركة تناقض اغراضها ما تواضع عليه الناس قروناً متوالية واحلوه في نفوسهم وعقائدهم في المحل الاقدس . واشهر هؤلاء رتشرد كارليل (١٨٣٠) وفرنسيس بلايس (١٨٣١) وروبرت وايل اون (١٨٣٢) والدكتور نولتن وجميعهم من المؤلفين الذين عنوا بوضع كتب في الموضوع من وجوهه الفسيولوجية والاجتماعية والفلسفية . وفي سنة ١٨٥٤ نشر الدكتور جورج درسديل كتاباً عنوانهُ اصول العلم الاجتماعي بسط فيه الملتوسية (نسبة الى الاب ملتوس) الجديدة ثم انشأ بالاشتراك مع اخيه وحنة بزات رائدة الفلسفة البيوصوفية عصبة لبث هذه التعاليم . وفي سنة ١٨٧٦ قبض البوليس على بائع كتب لبيعه نسخاً من كتاب الدكتور نولتن المدعو ثمار الفلسفة . فاعاد الدكتور برادلو وحنة بزات نشر الكتاب وتقدما للمحاكمة سنة ١٨٧٧ فحكم المحلفون عليهم على الرغم من ميل القاضي للاخذ بأدلتهم فكانت هذه الحادثة وسيلة لاذاعة التعاليم الملتوسية الجديدة ومن ثم اخذت « العصبة الملتوسية الجديدة » تقوى وتمدُّ آثار دعوتها الى انحاء الكرة الارضية وأنشئت لذلك جريدتان في انجلترا . واسست فروع للعصبة في مختلف البلدان . وقد عقد اتحاد هذه الفروع مؤتمرات دولية اولها في باريس سنة ١٩٠٠ ثم في لياج سنة ١٩٠٥ ثم في الهاي سنة ١٩١٠ ثم في درسدن سنة ١٩١١ ثم في لندن سنة ١٩٢٢ ثم في نيويورك سنة ١٩٢٥ . اما تاريخ هذه الحركة في اميركا فيختلف قليلاً عن تاريخها في انكلترا لان الاميركيين كانوا اشد وطأة في مقاومتها وقد سنوا لذلك قانوناً يقضي على كل من يرسل رسالة بالبريد تحتوي على وصف وسائل تحديد النسل بغرامة الف جنيه وسجن خمس سنين . وأشهر القائمات بهذا العمل في اميركا السيدة مرغريت سانجر التي استنبطت لفظتي « تحديد النسل » لوصف اغراض الحركة سنة ١٩١٤

من الشعر الثائر

في جبال باقارية

مَنْ لِقلبي المُشْتاقْ
ما دَرى ما يَشْتاقْ
نازعَتْهُ الأهـــواءْ
وَهْوَ مسلوبُ الرُّجاءْ

مَنْ لِهزّات الجَناحْ
جاذبَتْـــهُ الأرواحْ
ذكَرَ العَصْفَ فَناءْ
بتهاويلِ النَّـــداءْ

يا لَشـــوقٍ خفّاقْ
أعْوَزَتْهُ الآفـــاقْ
شفّ جَنْبي السِماحْ
مبدأً وانـــزاحْ

يا حنـــينَ العذراءْ
صدّهُ زُورُ الحياءْ
فروى غُلّ الناقْ
من ضلوعٍ تُهراقْ

مَنْ لِقلبي المشتاق

اغسطس ١٩٣٥

بشر فارسي

للدكتور علي ابراهيم باشا
عميد كلية الطب ووكيل الجامعة المصرية ومدير مستشفياتها

١ — الماضي

لعله لا يوجد في كثير من البلدان والجامعات معهد ككلية الطب في مصر مرّت عليه صروف الزمان ما بين رفع وخفض وتردّدت فيه لغات مختلفات ما بين ضادٍ وغير ضاد . ولا كمثله معهد صمد للحوادث فأدى للوطن والانسانية رسالة صيغت من جوهر العلم في أطار من الاخلاص بل ولا كمثله في مصر معهد توطدت بفضل الله الآن أركانه وثبت بنيانه وقد عمت به على كرّ الشهي وفرّ السنين خير التعاليم والتقاليد

كلوت بك ومحمد علي الكبير

من مائة عام وأثنى عشر عاماً هبط مصر طبيب شاب من أبناء بلدة مونبيليه بفرنسا شاءت المقادير أن يجيب دعوة محمد علي جد فاروق الأكبر في أوائل سني حكمه وأن يقاسمه بمستقبله في مصر بلد الآثار والعجائب التي كانت ذكراها لا تزال حية في قلوب الفرنسيين وأنكاهم بما حمله نابليون وعلماؤه من أوصافها وجمالها

هذا الطبيب الشاب — أنطوان برتلمي كلوت — الذي اشتهر باسم كلوت بك يقف في التاريخ بجانب سيده — على الرغم من قصر هامتيهما — كعملاقين بين الرجال أمكنهما تغيير صفحة الطب في هذه البلاد تغييراً عظيماً بعد أن بلغ الحضيض في عهد المماليك حتى كاد لا تكن معابدها بمصر ومعاهدها المهد الذي فيه نشأ ونما وترعرع أيام طيبة ومنفيس وهليوبوليس واسكندرية والقاهرة في عهد الفراعنة والبطالسة والعرب

جاء كلوت بك مصر والكوليرا تفتك بالألوف في كل عام والطاعون قد سكن الدور من أكواخ وقصور بل وأقام في الثكنات العسكرية التي كانت تعج بجنود الوالي المجيشة لتأسيس ملكه وتوطيد دعائم عرشه . وليس في البلاد غير رهط جاهل من الحلاقين الذين نرى الى اليوم

بقاياهم . وغير نفر قليل من رجال الطب الاجانب . فكانت مهمة قاسية تلك التي جابهت كلوت بك ان ينظم الخدمة الطبية والصحية في بلاد هذه حالتها وان يحمي الاهلين كما يحمي الفيالق من عدو غير منظور ليس لخبرتهم أو مدافعهم به قبل أو سبيل

ولكن سرعان ما بدا لكلوت بك انهُ وان استطاع جلب جهابذة الاطباء من فرنسا وانكلترا لخدمة الوالي وأسرته وجيشه فان قلة عددهم وجهلهم لغة البلاد واختلاف معتقدهم الديني عن اهلها عوامل تقف حائلاً دون الغرض الذي يبتغيه من تعميم وسائل التطبيب والتصحيح . وان اولئك الاطباء من ابناء الغرب محتاجون الى مساعدين من الاطباء والصيادلة ابناء مصر بل الى ممرضات ومولدات من بناتها

وهكذا وعلى الرغم من دسائس الحاقدين وانتقاد الياسين وقلة ثقة البعض في استعداد المصريين وبفضل تشجيع سيده العبقري العظيم وبعد سنتين اتتين من حلوله الديار أنشأ في سنة ١٨٢٧ مدرسة لتعليم الطب وألحقها أول الامر بالمستشفى العسكري في أبي زعبل . ومن ثمَّ نقلها بعد ذلك بعشرسنين الى مقرها الباقي الى الآن بجوار قصر العيني . وهو الآخر كان في الزمان السابق خارج المدينة قصراً للولاة الاتراك ثم اختاره اطباء حملة نابليون زماناً داراً لعلاج جرحاهم ومرضاهم

وبفضل مثابرة كلوت بك واخلاصه لوطنه الثاني تمكن من احداث ماكان يعد اعجوبة في ذلك الزمان فجند الطلبة من بين الازهريين يطعمون ويكسون وينامون ويؤجرون من جيب الدولة الجديدة . وتترجم لهم المحاضرات من الترلسية الى الايطالية فالعربية على لسان عنحوري المترجم السوري الوحيد في ذلك الزمان الذي كان يعرف الايطالية . والشيخ محمد العطاري الازهري الذي أختير لتهذيب لغة المحاضرات والمؤلفات بل للتدريس أيضاً الى ان أدخل تعليم اللغة الفرنسية لتسهيل مهمة الاساتذة

وما ان مرت خمس سنوات على انشاء مدرسة الطب حتى صار يخرج منها عدد من الاطباء يكفي المستشفيات والجيش . وفي عشر سنوات بلغ عدد المتخرجين ٤٢ طالباً جازوا بجدارة الامتحانات التي كانت تعد علنية في ذلك الزمان . حتى لقد شاء كلوت أن يدل على مبلغ نجاحهم فسافر في عام ١٨٣٢ بفرقة من المتخرجين الى باريس حيث نجحوا بتفوق أدهش ممتحنيهم الذين كانوا صفوة اساتذة ذلك العصر كدجنيت ولارى طبيبي نابليون الشهيرين ودوبوترين وبروشيه وسواهم . وظلوا بعد ذلك زماناً في باريس يزيدون من خبرتهم ومعلوماتهم وصاروا طليعة لسواهم من اطباء مصر في القرن الماضي

والى ان مضى محمد علي الى رحمة مولاه بعد ١٨ سنة من تأسيس مدرسة الطب كان قد بلغ عدد الجيل الجديد من الاطباء المصريين نيف و ١٥٠٠ . وكانت قد تمت ترجمة ٥٢ مؤلفاً

طبيًّا من الفرنسية الى العربية ثونت اخراجها دار الطباعة في ولاق بالآلاف وانتشرت نسخها في تركيا والجزائر وتونس ومراكش وسوريا وايران . وصارت تعيراتها اساساً للمؤلفات التي يقرؤها الاطباء الآن في مدارس الطب في استانبول ودمشق وسواها

ولكنهُ ما ان تولى ابراهيم عرش ابيه سنة ١٨٤٨ فقدته البلاد بعد قليل ثم تولى بعده عباس الاول حتى دخلت مدرسة الطب في عهد جديد كان عهد تقلقل واضطراب اذ كان عباس يمقت الاجانب ولا سيما الفرنسيين وكل ما كان لهم به صلة فاعتزل كلوت بك منصبه في ابريل سنة ١٨٤٩ بعد ربع قرن انشأ خلالهُ غير المدرسة الطبية مدرسة للصيدلة وللمولدات كما أسس المستشفيات في انحاء القطر وأوجد نواة مصلحة الصحة السومية ومصلحة الذكور تثنيات وأدخل التطعيم ضد الجدري وتشريع الجثث لتعليم الطلبة وأوجد لنظام الحلاقين الصحيين الذي بدأ يختفي الآن

وما ان رحل مؤسس مدرسة الطب العتيد حتى استخدم عباس الاساتذة الالمان ومن حسن الحظ انهُ استخدم اولهم جرينجر سنة ١٨٥٠ وتيودور بلهارس اللذين كانا من خيار العلماء وللاول منهما فضل اكتشاف دودة الانكلستوما كما ان للاخير خاصة اكتشاف الدودة التي تسبب البول الدموي الشهير بين للمصريين واطلق عليها اسم (البلهارسيا)

وجاء في النهاية دور جرينجر فسافر مكوداً سنة ١٨٥٢ وخلفهُ الكسندر ريمر الالماني زمناً ولكن سرعان ما ضاق صدر عباس بالالمان فجرب الايطاليين واستقدم راتش ورازي من فلورنسا سنة ١٨٥٤ . ولكنهُ ما عتم ان مات في نفس ذلك العام وخلفهُ سعيد الذي وجد المدرسة على أسوأ حال من الفوضى فأغلقها وشرد طلبتها ايدي سبا بين فيالق الجهل وفرقه

وظلت بمدرسة الطب زائلة عن الوجود بعد ذلك طوال عامين الى ان أسرع كلوت بك الى مصر لانقاذها ونجح مساعدة رازي في حمل الوالي على اعادة افتتاحها في سبتمبر سنة ١٨٥٦ تحت ادارته مرة اخرى . ولكن سوء صحته أبعده ثانياً عن المعهد الذي احبه أكثر من اولاده

وتولى من بعده ادارة المدرسة ثلاثة من بني وطنه واحد الاطباء المصريين الى ان تولى اسماعيل عرش جده سنة ٨٦٣ فوجدها مرة اخرى على شيء غير قليل من الانحطاط والتقهقر

محمد علي البقلي والخديو اسماعيل

وهنا برز في الميدان محمد علي البقلي باشا الطبيب المصري الشهير فتولى ادارة المدرسة ستة عشر عاماً سويًّا كانت درة في جبين الادارة الوطنية اذ رفع من شأن المدرسة وأصلح أمورها وكان الاساتذة جميعاً من ابناء البلاد ما عدا جاستنل المعروف وكانت لغة التدريس العربية

وفي زمانه ترجمت أمهات المؤلفات الفرنسية الحديثة وصدرت مجلة البحوث الطبية الأسبوعية عدة سنين وأرسلت البعثات بانتظام الى الخارج وبرز الأطباء المصريون الى البحث والتحقيق العلمي وبالجملة بلغت المدرسة شأواً عظيماً الى ان شاء سوء حظها للمرة الثالثة أن تصاب بلطمة ألمية بتقاعد محمد علي البقلي سنة ١٨٧٩ أثر خصام شخصي بينهُ وبين علي باشا مبارك الشهير فتولى الادارة بعده جيلاردو بك وسرعان ما حدثت الثورة العرابية بعد ثلاث سنوات

عيسى حمدي والخديوي توفيق

وفي سنة ١٨٨٣ تولى ادارة المدرسة مصري قدير آخر هو عيسى حمدي باشا الذي يمكن اعتباره المؤسس الثاني لها بعد كلوت بك، ففي عهده سادها النظام واستتب العمل على خير الوجوه. وكان من اساتذتها نفر من كبار الاطباء المصريين مثل عثمان باشا غالب الذي كانت لهُ شهرة عالمية واكتشف دودة القطن ووصف دور حياتها. ودري باشا سيد الجراحين في زمانه. وبفضل عيسى حمدي ونفوذه صار انشاء المباني الجديدة في المدرسة سنة ١٨٨٧ وأنشئت بها غرف للمحاضرات ومعامل للبحث. وأخرج الطلبة من المدرسة للمبيت في الخارج. وفي تلك السنة صارت البكالوريا شرطاً للدخول في سلك المدرسة وفرضت المصاريف على الطلبة لتسليم ١٥ جنيهاً في السنة. وحُتِّم عليهم ان يقدموا رسالة قبل حصولهم على الدرجة الطبية وجعلت مدة الدراسة ست سنوات للطب وأربع للصيدلة وثلاثاً للتوليد وبالجملة دخلت المدرسة تحت يده الحكيمة في عهد جديد من التقدم والارتقاء لا تزال آثاره باقية الى اليوم وعاونهُ من الاطباء الانجليز بعض اكابرهم كساندويث وملتون الجراح الشهير. ولكن عيسى حمدي اضطر بدوره للاستقالة سنة ١٨٨٩ أثر خلاف بينهُ وبين رئيس الادارة الطبية بعد ست سنوات مجيدة الذكر والأثر

وللمرة الرابعة عادت المدرسة الى الانحطاط في عهد خلفه ياعث المحسوبية في وظائفها الى ان تولى شأنها ابراهيم باشا حسن سنة ١٨٩٣ وقد كان رجلاً فاضلاً ولكن حدث في عهده تنظيم المدرسة على الطرق الانجليزية وزيادة الاساتذة الانجليز وتحويل لغة التعليم الى الانجليزية حتى انفرد بادارتها الدكتور كيتج من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٩

عهد الاحتلال الانجليزي

وكان كيتج رجلاً حديديًّا في ادارة المدرسة ولكن قساوته الظاهرة ما كانت لتحجب شديد اهتمامه بشأنها وهمة خريجيها في كل مقام ومقال. وقد بلغت المدرسة في عهده وعهد

مساعديه من الاساتذة البريطانيين شأواً غير قليل من النظام والدقة، ولا يزال الكثيرون من خريجي ذلك العهد يذكرون بالخير ملتون ومادن ومرجوسن وفيليبس وسواهم كما يذكرون ثمت ولوس من كبار الاساتذة الالمان الذين كان وجودهم في هذا العهد آية للصلة القديمة بين هذا المعهد وبلادهم

وفي هذا العهد توثقت الصلة بين مدرسة الطب في مصر والكليات الطبية الملكية في انجلترا ووضع النظام الذي لا يزال قائماً من بعث تلك الكليات لاستاذ زائر في كل عام

وقد اقتصرت المدرسة في هذا العهد على الدراسة الطبية الأولى فلم تدخل عليها درجات الاختصاص العليا التي كان المصريون يلجأون للحصول عليها الى خارج بلادهم

سعد زغلول ومدرسة الطب

وقد حدث في أثناء ذلك العهد تولي زعيم البلاد المغفور له سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٨ فرأى بثاقب بصره زيادة ارسال بعثات التخصص الى الخارج لادخال العنصر المصري في التدريس وبالتالي لادخال العربية لغة للتعليم في مدرسة الطب اسوة بزميلاتها في المدارس العالية . واليه يرجع أول الفضل في اعادة مدرسة الطب سيرتها المصرية الاولى في عهدنا الحديث كما نراه الآن في شخص أغلب اساتذتها ومساعديهم

الحرب العظمى وما بعدها

وساعد على ذلك أنه حينما اندلعت ألسنة الحرب العالمية العظمى وانتظم أغلب الاساتذة الاجانب في جيوش بلادهم وقع عبء التدريس على اكتاف المصريين فقاموا بالعمل خير قيام حتى رضي كيتنج ان يجعل منهم رؤساء غير مرؤوسين

وسافر كيتنج سنة ١٩١٩ وعضد رتشاردز الى سنة ١٩٢٤ في سني الثورة المصرية الحرجة وفي ذلك العهد خرج التفكير في انشاء الجامعة المصرية الى حيز العمل وصار اختيار موقع مستشفى فؤاد الأول الجديد في جزيرة الروضة ووضعت سياسة تولي المصريين مناصب الاساتذة نهائياً في كلية الطب

وجاء من بعده ولسون ثم مادن سنة ١٩٢٦ وفي عهده أعيد تنظيم الكلية على الطرق الحديثة وأدخل في برامجها الدراسات العليا وانشئت مدرسة لطب الاسنان ووضع الاساس الذي نهضت به الكلية النهضة العظيمة الحالية . ومات مادن سنة ١٩٢٩ مأسوفاً على خلاله وخصاله وفي مايو من تلك السنة شاء مجلس ادارة الكلية ان يبقي على كاتب هذه السطور حمل ذلك

الطب الخطير الجليل مترسماً في ذلك خطوات زملائه السالفين مستلهماً السداد من ارواحهم في عهد تاريخي كبير الأثر في حياة هذه البلاد

٢ — الحاضر

مضى القرن الاول من حياة مدرسة الطب وهي كما وصفت تبدو احياناً مشرقة وضاحة الجبين ثم يسترها الغمام ولكن الى حين . ولعمري انه اذا قيست حياة المعاهد بحياة الانسان واذا شبهنا تلك المائة عام بعهد الطفولة ما كان لنا ان نعجب لما ذاقت تلك المدرسة من مرّ وحلو لأن للطفولة امراضها وعللها كما لها نشاطها ومرحها واننا لنا ان نقرّ عيناً ونستريح خاطراً انها اجتازت ذلك العهد على ما يرام وصار لنا ان ننتظر لها عمراً مديداً وعيشاً رغيداً في ظل النهضة المصرية الحديثة

ولقد كتب الله لمدرسة الطب بالفعل دخول عهد الشباب مذ صارت في عام ١٩٢٤ كلية بل دعامة هي اقوى دعامات الجامعة المصرية . وكما ينتظر من دم الشباب قد اندفعت فيها روح جديدة ووصلت سراعاً الى آفاق أعلى وأسمى

فهي الآن كلية تضم تحت جناحيها اربعة معاهد كبيرة لدراسة فنون الطب وعلومه . فللطب واحدة ، وللصيدلة اخرى ، وللاسنان مدرسة ، وللتمريض والتوليد رابعة

وصار لا يكتفى بالبكالوريا بل على الطالب ان يزود من كلية العلوم بقسط علمي ثمين لمدة عام وان يبرز بين اخوانه حتى يصل الى ساحتها الغناء

واستكملت كل مدرسة منهن أهبتها وجاهزها . ففي مدرسة الطب تغير الانكماش القديم الى انبساط قضى به تقدم المعارف الطبية فانقسم علم التشريح الى فروع منها علم الاجنة وعلم تقويم الانسان وانقسم علم وظائف الاعضاء الى الكيمياء الحيوية والتشريح المجهري وبرز علم الامصال كفرع قوي من فروع البكتريولوجيا وانقسم علم الطفيليات الى علم الطفيليات ذات الخلية الواحدة وعلم الديدان وعلم الحشرات وعلم الفطريات . وأدخلت دراسة جديدة لعلم الباثولوجيا الاكلينيكية التي تنير الطريق امام الطبيب بفحص افرازات المريض ودمائه . وظهرت في الجراحة أقسام للعظام وللجهاز البولي والنساء قسم جديد للصحة العامة شرع هو الآخر يتفرع الى اقسام التغذية والصحة الصناعية والاوبئة وما اليها . هذا فضلاً عما بلغته المدرسة من الشأو في تدريس الامراض الباطنة وامراض العيون

وارسلت الكلية البعثات تلو البعثات مما لم يكن له من قبل مثيل من بين ابنائها النجباء للتخصص في تلك الفروع وسواها فبزّوا رفقاءهم في عقر دارهم وعاد ولا يزال يعود الكثيرون ممتلئين حماسة وملتهبين غيرة ونشاطاً

وبلغ الحال مثل ذلك الحال في مدرسة الصيدلة التي انتهى فيها علم تشخيص العقاقير واتسع نطاق التحليل الكيميائي للأدوية والأغذية . وأما مدرسة الاسنان فقد سدت فراغاً عظيماً كان محسوساً في هذه البلاد وقضت على عهد كان بالنجاجلة مذموماً

وأما مدرسة التمريض والتوليد فصارت طالباتها من ذوات الشهادات المدرسية كالابتدائية والدراسة الثانوية في قسمها الاول وراسيات القسم الثاني وبعدان كانت تضيع سنة كاملة في تعليمهن اللغات والحساب تمهيداً لدخولهن معهد التعليم الطبي صرن يتلقين فنون التمريض ثلاث سنوات كاملات ثم فن الولادة عاماً آخر والزائرات الصحيات كذلك عاماً آخر والتدليك والكهرباء الطبية ستة اشهر

وصار للكلية غير درجة الطب والجراحة او الصيدلة او الاسنان العادية درجات عليا ودبلومات للاختصاص . فهناك درجة ماجستير في الجراحة بفروعها وهي : —

١ — الجراحة العامة ٢ — جراحة الاعضاء التناسلية والمجاري البولية ٣ — جراحة العظام ٤ — التوليد وامراض النساء ٥ — جراحة الحنجرة والانف والاذن ٦ — الرمد وجراحة العيون

ودرجة دكتوراه في الطب بأقسامها وهي : ١ — الطب الباطني العام ٢ — امراض الطفولة الاولى وامراض الاطفال — ٣ — طب المناطق الحارة ٤ — الصحة العامة

ودرجة ماجستير في جراحة الاسنان ودرجة ماجستير في الصيدلة ودبلومات خاصة هي : —

١ — دبلوم الصحة العامة ٢ — دبلوم طب المناطق الحارة وصحتها ٣ — دبلوم الرمد ٤ — دبلوم الطب الشرعي ٥ — دبلوم علم الاشعة الطبية

وستنشأ دبلومتان خاصتان للكيمياء التحليلية والكيمياء الحيوية

بل أن هذه السنة نفسها قد رأت انشاء قسمين جديدين كبيرين للتخصص احدهما في الجراحة والآخر في الامراض الباطنة وصارت الفرصة بذلك متاحة لكل طبيب مصري او غير مصري ان يستزيد من علمه ويتمكن من قمة على احدث طراز ونظام وأن يحصل على تلك الدرجات العالية في نفس وطنه وبلاده

وصار لكل قسم من اقسام الطب من المعامل والمتاحف ما تعز به الكلية سواها من كليات الخارج وهي ثروة عظيمة لا تقوم بمال ولا عتاد ولا يقاس بها غير المتحف المصري أن كان يقاس معهد احياء بمعهد اموات

اما مستشفى قصر العيني فقد تحول الى دار علاج نظيفة كاملة الادوات والمعدات حتى لتخفى هويته الآن على كلوت بك ذاته وهو الذي ذرعهُ نيفاً وعشرين سنة حيثةً وذهاباً في القرن الماضي ولم يغير قصر العيني من إهابه فحسب بل تغيرت معالمهُ ومعداته الداخلية لراحة المترددين عليه من طلبة واطباء ومرضى . وفتحت به اقسام جديدة لفروع الطب الجديدة

وتضاعفت به حجر العمليات وأنشئت مساكن جديدة للنواب وغرف محاضرات غير ما زاد منها في مباني كلية الطب جارته

بل ان الطلبة ذاتهم قد اصابهم التغير والتبديل فظهرت بينهم الطالبات لدراسة الطب اسوة بدراسة التمريض والتوليد وأمثالهم فلم يضم شتاتهم ويقيمون به حفلاتهم وزاد عددهم وتوثقت صلاتهم باساتذتهم

بل ان ذلك التجديد العظيم لم يكن ليشفي سغب النفوس المتعطشة الى التقدم والارتقاء. فصح العزم على انشاء مستشفى جديد ومدرسة جديدة في جزيرة الروضة بشد ان أزر المعهدين القديمين المجاورين وقد تم بالفعل انشاء جانب كبير من مستشفى فؤاد الاول التعليمي ونقلت اليه العيادة الخارجية التي يؤمها نيف واربعة آلاف مريض كل يوم كما نقل اليها منذ بضعة اسابيع ٤٥٠ سريراً للامراض الباطنة. فاذا استكمل صار به الفان من الاسرة غير الالف الباقية في قصر العيني وغير مائتي سرير في مستشفى الاطفال الذي اشترته الحكومة لحساب التعليم ومائتي سرير في مستشفى كشنر اي ٣٤٠٠ سرير مما ليس له مثال ولا ضو في عالم الشرق وكثير من جهات الغرب جميعاً

على ان عظمة المعاهد العلمية لا يجب ان تقاس بضخامة مبانيها وكثرة اسرتها ونفقاتها وانما هي في الحقيقة بكفاءة رجالها. واذا كنا قد أعددنا للعلم الطبي في مصر داراً شامخة الذرى فيحاء واسعة فأنا لم نكن لننسى ان العلم والبلاد يتطلبان من ذلك الغرس محصولاً يانع الثمرات

ولذا فان تلك المعاهد لم تبنَ للتطبيب والتعليم فحسب، بل كذلك لاجراء المباحث العلمية التي هي مناط التفاخر اذا سوقه قامت. وقد بدىء بالطلاب فجهزت جوائز ثمينة ذهبية ومالية للمبرزين منهم. فهناك ماديات ذهبية باسم عيسى حمدي باشا للامراض الباطنية وعلم وظائف الاعضاء وأخرى باسم مادن للجراحة الاكلينيكية وباسم فيليس للطب الباطني الاكلينيكي وجائزة مالية باسم محمد شاهين باشا للتخصص في الصحة العامة ومثلها باسم مظلوم للصيدلة وباسم بحري كذلك. وصندوق آلات جراحية يهديه محل كلان الفرنسي في كل عام الى أول الطلاب المتخرجين ومدالية ذهبية في الجراحة باسم علي ابراهيم

وتيقنا بالمتخرجين فصار لا يدخل الطالب عداد المدرسين حتى تمضي عليه سنوات في الاستزادة من الدرس والتمحيص وحتى ينال أرقى الشهادات كالدكتوراه في الفن الذي يتنبه وحتى تشهد له اساتذته بالاستعداد والكفاءة وصار لا مطمع لناشيء أن ينال ترقية الا اذا أوفى في يمينه عدداً غير قليل من الابحاث الفنية الطريفة التي نشرها له الجامعة أو المجلات المصرية والاجنبية يشق بها طريقه الى الامام

وجعلت الكلية لا تضن بالاجازات الطبية في الخارج كما لا تضن بارسال البعوث وجعلت تدعو كبار الاساتذة الاجانب في كل شتاء ليحاضروا الاطباء والطلاب في اطرف المواضيع بل اخذت اخيراً في ارسال بعوث من الطلبة ليحضروا اسبوعاً او اسبوعين في احدى الجامعات الخارجية وبدأت بجامعة باريس في الصيف الماضي ليتعارفوا وتتفتح اذهانهم وتخيلاتهم وليعرفوا ان العلم لا دين له ولا وطن ولا لغة وان الذين يقفون حياتهم عليه هم المفلحون

كذلك زادت الصلة بالكليات الطبية الملكية بكثرة وفود الطلاب المصريين للحصول على شهاداتها العالية القيمة . بل لقد تم اتفاقنا مع الكليات الالمانية أن توفد الينا طلاباً للتعلم في بلادنا وان نوفد اليهم مقابل ذلك من اطبائنا من يكونون من طلبة الدراسات العالية ويعرفون اللغة الالمانية

وقد وصلت الامور من التقدم ان كثر في البلاد عدد الاختصاصيين وانقضى العهد الذي كان تطبيب العائلات فيه وقفاً على الاجانب يتباهون به ويتفاخرون . وصار الاطباء المصريون علماً على نهضة بلادهم يشرفونها في اي مؤتمر حلوا واي محفل نزلوا

ويعييني العد اذا شئت ذكر النابغين منهم في فروع الطب ونواحيه . اما الابحاث الطبية التي وصل اليها هذا المعهد الجليل في دراساته المتعاقبة الى الآن فما يفخر به اي معهد في اي مكان . واذا كان قد اشترك في بعضها الاساتذة الاجانب في العهود الماضية كما كتشاف الانكلستوما والبلهارسيا ودورة حياتهما فأن الجيل الجديد والحمد لله قد كذب الخطأ الذي طالما اشاعه المغرضون من ان العقل الشرقي قد اصابهُ الخمول والكسل . وهذه ابحاث علمائنا في امراض بلادهم تكشف المكنون وتهتك المستور . فهذا باحث عن اسباب حصوات الحالب وآخر عن داء الفيل وثالث عن مناعة الطفيليات وآخر عن تضخم الطحال وأمراض القلب وآخر يفحص الاعشاب المصرية والاغذية المصرية والحشرات المصرية وغيره يبحث عن امراض الكبد والشرايين والرمد . وسواهم يفحص دم المصريين وغير ذلك مما لا تحيط به مثل هذه العجالة . ومما يقوم دليلاً على ان المعهد القديم قد انجب ابناء يسيرون في الطريق مع سواهم من علماء العالمين ولا تضيرهم وعثاء السفر بل يسعدون ويهنأون اذا زادوا حرفاً في قاموس الفن الشريف الذي جعلوا منهُ قوت يومهم وقوت نفوسهم معاً

٣ — المستقبل

قد مضى على كاتب هذه السطور الثماني السنوات الاخيرة وقد امتزجت فيها حياته امتزاجاً شديداً بالمعهد الذي فيه ربي ومنهُ خرج واليهِ عاد ليقضي بقية حياته العاملة جندياً ثم قائداً . واكبر أمله الآن ان يرى بعينيه تنفيذ الخطة التي ترسمها اسلافه الآخرون والتي اقتضاها

تقدم العلوم الطبية يوماً بعد يوم تقدماً لم يخطر ببال جرّاح ولا جرى على ذهن طبيب

ولكن هناك غير هذا العامل الشخصي اموراً اجل خطراً واكبر قيمة تجعل من الواجب جعل هذا المعهد في صورة مثالية تشرف البلاد

فمصر هي قائدة الشرق تتطلع اليها اعين الاقطار العربية الشقيقة وهي في الوقت نفسه ملتقى القارات القديمة الثلاث بعبر ارضها ومياهها وهواءها المسافرون والتجارة من جانب العالم الى جانبه الآخر . وفيها تمثلت حضارة الفراعنة وحضارة العرب وحضارة اوروبا معاً . وما احرى وطننا وهذا شأنه ان يكون بلداً نموذجيًّا في اهله ومعاهده ونظمه جميعها

ولقد استيقظت البلاد وحكامها وعلى رأسهم الملك العظيم الراحل فؤاد الأول الى هذه الحقيقة كل التيقظ ، فلم تضن بالمال على دراسة الطب حتى لقد قررت نيفاً ومليونين من الجنيهات لانشاء مستشفى فؤاد الاول وكلية الطب الجديدة وتحسين قصر العيني وكلية الطب القديمة وشراء مستشفى رعاية الاطفال بالنيرة وقد صرف من ذلك الى الآن مبلغ مليون ومائتي الف من الجنيهات

اما الخطة التي رسمناها للمستقبل فستفضي الى تخصيص قصر العيني لذوي الامراض المستعصية ولأقسام التخصص والى تخصيص مستشفى فؤاد الاول للامراض المعتادة من جراحية وباطنية وسائية وعيون . وان تقسم كلية الطب الى جزئين احدهما ينقل الى المباني الجديدة ويشمل اقسام البكتريولوجيا والطفيليات وعلم التشريح المرضي وعلم الاقرباذين وهي علوم ذات صلة وثيقة بالمستشفى

اما القسم الباقي فيوزع على مباني الكلية الحالية فيخصص المبنى الشمالي لانشاء معهد للصحة العامة مستكمل لمعامل فحص المياه والاغذية والمتخلفات واجراء التجارب البكتريولوجية والكيميائية ذات الصلة بذلك الفرع الهام من العلوم الطبية

ويخصص المبنى المواجه له في الجنوب الذي يليه لعلم وظائف الاعضاء بفروعه الثلاثة والمبنى الجنوبي الذي يشيد الآن لمدرسة الصيدلة . اما المبنيان الغربيان فيخصص احدهما للطب الشرعي في دورين فوق نادي الطلبة ويخصص الآخر بأدواره الثلاثة لعلم التشريح بقاعاته ومشرحته ومعامله . وسيضاف اليهما مبنى سابع يُؤوي ادارة الكلية ويهوا للاجتماعات والاحتفالات

وهكذا نجد الاقسام المختلفة جميعاً سبيلاً الى الاتساع بما يؤمل ان يكفيها حقبة طويلة اخرى من السنين وييسر لها سبيل البحث العلمي في هذا العهد الحديث . وتقضي خطتنا المرسومة ان يتسع مستشفى رعاية الاطفال الذي ضمته الجامعة أخيراً الى مستشفياتها التعليمية فيبلغ مائتي سرير . وان لمعهد مستشفى كتشنر بعد اتفاقنا الاخير مع مجلس ادارته لتعليم طالبات الطب فنون ذلك العلم وان ننشىء في مدرسة الطب الجديدة معهداً كاملاً ينقطع علماؤه للابحاث انقطاعاً ليحلوا الكثير من المعضلات الطبية والصحية التي تجابه الاطباء والبلاد الآن وفي المستقبل

بل اننا لن يستريح لنا خاطر أو تطمئن نفوسنا حتى نشهد بجوار هذه المعاهد كلها معهداً لطب المناطق الحارة . فمن عجب أن طالباً مصرياً يود التخصص في هذا الفن لا يجد مندوحة عن السفر الى اوربا بينما بلاده ذاتها هي في المناطق الحارة . بل انه لمن العجب ان طالباً انجليزياً او فرنسياً او المانياً او ايطالياً يرغب في تلك الدراسة فلا يجد في مصر المدرسة التي تشفي غليله فيحج اليها كما يحج طلابنا الى اوربا للدراسة في الفنون الطبية الراقية بها

ولا شك ان موقع مصر الجغرافي يتيح فرصة نادرة لتلك الدراسة فانه فضلاً عن المرضى من بحارة السفن القادمة من الشرق الاقصى وركابها وهم الذين يغذون مدارس طب المناطق الحارة في ليفربول وهامبورج ومرسيليا ولندن والجزائر بمادة التعليم توجد امراضنا المتوطنة ذاتها من بلهارسيا وانكلستوما وملاريا وداء الفيل والديدان المعوية وتضخم الطحال والبلاجرا وهي من اهم امراض المناطق الحارة

وقد شرعنا بالفعل في الاتصال بأولي الامر في هذا الشأن مؤملين قريباً انشاء معهد لطب المناطق الحارة يحمل اسم الزعيم الراحل الذي كان له فضل تقوية العنصر الوطني في مدرسة الطب من ثلاثين عاماً . ونود ان نرى فيه الطالب المصري بجانب الطالب الانجليزي او السوري او الفرنسي او الالماني او الايطالي في مدرج واحد ومعمل واحد ويحاضرهم الاساتذة المصريون فيا هم فيه ثقة ومرجع

ان هذه الصورة التي ذكرتها لكلية الطب وفروعها كانت في الواقع صورة مثالية خيالية من عدة سنوات ولكنها قد تحققت في كثير من نواحيها . ويبدو المستقبل واضحاً بساماً لاتمام نواحيها الاخرى

فكلية الطب قد دخلت الآن في عهد تاريخي آخر يشبهُ في علوّ شأنه العهد الذي خلقها فيه كلوت بك خالد الذكر الذي يقف تمثالهُ في ساحتها الى اليوم وفي باب مستشفاها امام تمثال سيده العظيم وعلى وجهيهما دلائل البشر لما يشاهدون

وصار العالم جميعاً ينتظر منها ومن اساتذتها ومساعديها وطلابها شيئاً آخر غير مجرد اتقان حرفة التطبيب . انهُ يتطلب منهم البحث والاستقصاء وشحذ الفكر في اكتشاف اسرار الجسم السليم والجسم العليل

ان الصورة المثالية التي اوجوها لهذا المعهد الجليل في مستقبل ايامه هي ان يصل فيه التخصص الى أرقى نواحيه وان يكون اكبر معهد في الشرق للعلوم الطبية وان تكتظ مراجع المؤلفات والرسائل الطبية باسماء علمائه المصريين وان يخفف آلام الانسانية بفضل اكتشافاته وابحاثه وانهُ بذلك لجدير وعليه لأمين ان شاء الله

مصلحة الآثار

للدكتور سليم باشا حسن

وكيل مصلحة الآثار المصرية

١ — ما هو تاريخ اشتغال المصريين بدراسة الآثار في مصر ؟

— بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية ، واتجاه الأنظار الى دراسة الآثار المصرية دراسة جدية أنشىء المتحف المصري سنة ١٨٥٧ بمجهود أحد العلماء الفرنسيين «ماريت باشا». وقد كان من الطبيعي ان يكون من ضمن رجال المتحف والمصلحة في الاقاليم بعض المصريين . وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد ، في مقدمتهم المرحوم احمد باشا كمال ، اذ انهُ قام بعمل كثير من الحفائر العلمية ، ووضع عدة مؤلفات قيمة بالنسبة لذلك العهد . كما كان لهُ مقامهُ المحترم بين معاصريه من العلماء الأجانب

وكان للمرحوم احمد كمال باشا طلبة يدرسون عليه ، وقد نجح في آخر سنة من حياته في حمل الحكومة على أنشاء مدرسة عالية لدراسة الآثار المصرية . افتتحت هذه المدرسة فعلاً في أوائل عام ١٩٢٤ ، ولكن القدر وافاه قبل افتتاحها بقليل . وعند انشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ ألحق بها قسم للآثار تابع لكلية الآداب ، ضمت اليه المدرسة القديمة ، واختير الاساتذة من بعض المصريين الذين اشتغلوا بهذا الفن ، وعاونهم بعض الاجانب من علماء الآثار

٢ — من هم الأساتذة الأحياء الذين أسسوا دراسة الآثار في مصر ؟

— كان طلبة المرحوم احمد باشا كمال عديدين ، ولكن الذين استمروا جديًّا في الدراسة واتخذوها عملاً لهم هما اثنان الاستاذ محمود حمزة الأمين المساعد للمتحف وأنا . ومن بين زملائي في ذلك العهد صاحب السعادة احمد باشا عبد الوهاب وزير المالية السابق ، والاستاذ رمسيس شافعي مدير مصنع طرابيش القرش والاستاذ احمد البدري ناظر مدرسة الفيوم الثانوية

٣ — ما هي جهود قسم الآثار والنتائج العلمية التي وصل اليها مدة اشرافكم عليه

— عندما عينت للتدريس في كلية الآداب ، وجدت أن رفع مستوى الدراسات الاثرية لا يتم الاّ بعمل حفائر علمية لكي تساهم الجامعة بنصيبها بين الجامعات الكبرى ، ولتكون هذا الحفائر مدرسة عملية لتمرين الطلاب فيها . وفي نفس الوقت كان لي مساعدون يعاونوني في الاشراف على هذه الحفائر . وهؤلاء لم يمرنوا التمرين الكافي ، وكثيرون منهم يمكنهم القيام الآن

بأي حفائر علمية ، لا تقل في قيمتها عن قيمة اية حفائر يقوم بها أجنبي . وقد اتمت هذه الحفائر موعتها الناس وظهرت المؤلفات الخاصة بعثها

اما هذه الحفائر التي تقوم بها فهي في منطقة اهرام الجيزة ، ولست اريد الاطالة في الحديث عما لهذه المنطقة من انشأن ، ولا عن الآثار القيمة التي عثرنا عليها ، او الفوائد العلمية التي اضافتها هذه الحفائر الى العلم . ولكن يكفي ان نذكر أن نتيجة هذه الحفائر قد كشفت كشفاً تاماً عن عصر ملوك الاسرة الرابعة ، وقد وجدنا مقابر الكثيرين من الاسرة المالكة في ذلك العهد ، مع ما احتوته من آثار هامة ، كما ان الحفائر في الموسم الاخير حول ابي الهول ، اتاحت الفرصة لحل كثير من رموزه ، واصبحنا لاول مرة نعرف حقيقته وتاريخه والملوك الذين كانوا يقدمون له احتراماً خاصاً ، ويقيمون المنشآت تمجيداً له

٤ — هل تتفضلون بذكر شيء موجز عن حقيقة أبي الهول ؟

من الحقق ان تمثال أبي الهول يمثل أحد الآلهة وقد صنع في الاسرة الرابعة ، ولم نصل الى اسمه في ذلك العهد ، ولكن الحفائر الاخيرة اماطت اللثام عن الكثير مما يختص به ، فنحن نعرف الآن انهُ كان يعتبر الهاً من آلهة الشمس ، اسمهُ « حورمخيس » اي « حورس في الافق » .. ولاول مرة علمنا انهُ كان لهُ اسم آخر هو الاصل الذي اخذت منهُ كلمة « ابي الهول » محرفة عن الاصل القديم بار هون

كما كشفنا حوله عن لوحات كثيرة أهمها اللوحة العظيمة التي أقامها الملك امنوفيس الثاني من الاسرة الثامنة عشرة ، جاء فيها انهُ تولى الملك وهو « في سن الثامنة عشرة وانهُ كان قويًّا محبًّا للجياد ، وليس في المملكة من يناظره » كما ذكر أيضاً انهُ قام برحلة من سفاره الى الهرم وأعجب بتمثال ابي الهول وأمر بانشاء هذه اللوحة مع معبد صغير لتكون بجوار آثار أجداده وقد وجدنا هذه اللوحة مقامة في مكانها كما وجدنا المعبد الذي أشار اليه

٥ — ما هو صدى هذه المكتشفات في الدوائر العلمية الاوربية ؟

— ذكرت لكم ان هذه الحفائر اضافت كثيراً من المعلومات الهامة الى التاريخ المصري ، وعلم الآثار المصرية . ومن الطبيعي أن تكون النتائج التي وصلنا اليها موضع اهتمام علماء الآثار في كل مكان وجميع الذين يفدون منهم يزورونها كما ان المؤلفات العلمية الخاصة بها تعنى بالحصول عليها جميع الهيئات العلمية ، ويسرنا ان نذكر انها كانت موضع تقديرهم ، كما ان اكثر المجلات الخاصة بالآثار أشادت بهذه الحفائر ورحبت بالنتائج التي وصلنا اليها

٦ — ما هي الاسباب التي تحول دون نشر مؤلفات الآثار التي يكتبها مصريون باللغة العربية .. لغة البلاد ؟

— الحقيقة انه ليس هناك صعوبة في التأليف باللغة العربية ، ولكن هناك عامل هام لا يمكن اغفاله وهو اننا في مستهل حياتنا العلمية الأدبية وأكثر علماء العالم لا يجيدون اللغة العربية ، فأصبح من الخير ان تنقل لهم أبحاثنا ونتائج مجهوداتنا الى لغاتهم لكي يتحققوا من ان المصريين لا يقلون عنهم في شيء ، وان لهم أبحاثاً تفيدهم ، كما استفدنا نحن وما زلنا نستفيد من ابحاثهم . وهناك امم كثيرة مثل اليابان وروسيا وبولندا يكتب علماؤها بحوثهم العلمية الصميمة باحدى اللغات الثلاث الانكليزية او الفرنسية او الالمانية . . وهنا لا يحول دون وضع هذه المؤلفات باللغة العربية متى توافرت الوسائل اللازمة والظرف المناسب

٧ — ما هي الصورة المثالية التي ترجونها لدراسة الآثار في مصر ؟

— ان ما ارمي اليه هو تعميم دراسة الآثار في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية ، وان اري المصريين يقومون بالبحث عن تاريخ أجدادهم على صورة تماثل الصورة التي وصل اليها العلماء الاجانب . والتفكير في هذا الموضوع يؤدي الى ان ندرك اننا بعوزنا شيء كثير للوصول الى هذه الغاية . واني اقدم بعض أمثلة اتمنى تحقيقها في القريب العاجل

اولاً — قيام بعض الشبان المصريين الذين درسوا الآثار بحفائر علمية واسعة النطاق ، واني اذكر مع السرور ان بعض هؤلاء الشبان قد بدأ فعلاً بمثل هذه الاعمال

ثانياً — انشاء متاحف محلية في عواصم المديريات ، واذا كانت البلدان المتوسطة في اوربا لها متاحف بها اقسام مصرية تحوي مكتشفات هامة فمن واجب مصر ، وهي مهد هذه الحضارة القديمة ، ان تنشأ فيها متاحف في مختلف الاقاليم تبين اولاً الآثار المكتشفة في هذه الجهة ، كما تحوي ايضاً بعض الآثار المكتشفة في جهات أخرى والتي تزيد عن حاجة المتحف المصري ، ولا يخفى ما في انشاء مثل هذه المتاحف من فوائد ، اذ انها على الاقل توجه انظار سكان كل مديرية الى تاريخها القديم وتبعث نشاطاً وتنافساً في الاقبال على الحفائر

ثالثاً — ان تهتم وزارة المعارف بتسهيل دراسة التاريخ والآثار في مدارسها بان تعهد الى فنيين بالقاء محاضرات ودروس ، وتنظيم الرحلات ، وحفظ مجموعات كاملة من الصور للآثار المصرية حتى يشاهدها التلاميذ والتلميذات بالفانوس السحري

رابعاً — ان تشجع وزارة المعارف المؤلفين المصريين من الاثريين بنشر ابحاث تهم الشعب المصري ، وتنمي فيه حب الآثار أجداده بطبع هذه المؤلفات ومنح المكافآت اللازمة . واني أؤكد انهُ في اليوم الذي تقدم فيه وزارة المعارف على ذلك سيتقدم لها اكثر من فرد من المصريين بمؤلفات نفيسة تشرفهم كمصريين ، وتأتي بالفائدة المرجوة للوزارة وللهيئات العلمية وللمصريين جميعاً

الضوء

والاحياء الدنيا

تجارب عديدة طريفة

منذ عهد قريب أقام المهندس الاميركي « هين » المختص بالاضاءة ، مأدبة أعدّ لها كل ما لذّ وطاب من الاكل والحلوى. ولكنهُ أعدّ كذلك أساليب خاصة لاضاءة هو المأدبة ، فبدلاً من الاكتفاء بالمصابيح الكهربائية المألوفة ، أعدّ مصابيح خاصة لها مصافٍ لونية تحجب من ضوء المصابيح جميع الالوان الا اللونين الاخضر والاحمر على اختلاف درجاتهما . وأقبل المدعوون الى المائدة وهم مرحون جذلون ، ولكنهم ما لبثوا ان فركوا عيونهم ليطمئنوا أفي يقظة هم أم في منام . فاللحم المشويُّ رماديُّ اللون والكرفس ورديُّهُ واللبن أحمر كالدم والليمون كالرتقال والقهوة صفراء باهتة والبسلة الخضراء سوداء فاحمة والفول السوداني أرجوانيّ . وكان الطعام على أجود ما يمكن ان يكون ، ولكن هذه الالوان الغريبة أثرت في حواسّ المدعوين ، فمنعتهم من الطعام وبعضهم غادر المائدة قبل نهاية المأدبة وأصيب مدعوّان بقيء خفيف

وقد كانت هذه المأدبة دليلاً على ان تأثير الضوء لا ينحصر في حاسة البصر بل يشمل الحواسّ الاخرى كحواس الذوق والشم واللمس . وليس الغرض من هذا المقال الا بيان بعض ما كشفهُ البحث الحديث عن تأثير الاضواء المختلفة في بعض الحيوانات الدنيا كالميكروبات والهوام والحشرات

تقاس أمواج الضوء بوحدة تعرف باسم « انغستروم Angstrom » . فما هو الانغستروم ؟ خذ قلم رصاص وخطّ به خطًّا على ورقة بيضاء . هذا الخط عرضهُ في الغالب مليمتر . فالانغستروم جزءٌ من عشرة ملايين جزء من عرض ذلك الخط — أي من الملمتر . والعين البشرية لا ترى من أمواج الضوء الا ما كانت سعتهُ تتفاوت من ٤٠٠٠ انغستروم الى ٨٠٠٠ انغستروم . فالأمواج التي طولها اكثر من ٨٠٠٠ انغستروم لا تحسّ بها عيوننا لطولها ولكن تحسّ بها بعض أعصابنا لانها امواج حرارة . اما الأمواج التي يقل طولها عن ٣٣٠٠ انغستروم فلا تحسّ بها عيوننا لقصرها وهي تختلف بحسب قصرها من الأشعة التي وراء البنفسجي الى الأشعة السينية بين الأشعة التي وراء البنفسجي والأشعة السينية منطقة من الأمواج يتفاوت طولها من ٣٠٠٠

استرسل الى ألفين هي موضوع بحث دقيق الآن في غير دائرة واحدة من دوائر البحث العلمي

قد يصح ان توصف هذه الامواج بأنها امواج أشعة معينة . ولكن قصرها على الفوذ من الاجسام يسيرة فهي لا تخرق الجلد ولكنها قد تقرحهُ . الا انها تميت الميكروبات وقتل الميكروبات من ضرورات الجراحة والعلاج . ولذلك عمد « هنن » صاحب الفاديو وصحبهُ من مهندسي الاضاءة الى استنباط مصباح صنعت « شركة وستنهوس للمصابيح » مائة نموذج منهُ وبعثت بها الى مائة طبيب ليجربوها في بعض نواحي العلاج . ومما تستعمل لهُ هذه الاشعة قتل الاحياء الدقيقة التي تكون في مواد الغذاء المعدَّة للخزن او للحفظ . ويتوقع هؤلاء المهندسون ان تصبح هذه المصابيح في متناول العامة بعد خمس سنوات

هذا في ما يتعلق بالاشعة التي تقتل الجيرمات المجهرية . ولكن هناك طائفة اخرى من الامواج تستعمل لمكافحة بعض الهوام والحشرات التي تفتك بالمزروعات ليلاً . فينصب لهذه الحشرات شرك اساسهُ مصباح قائم فوق صفيحة من القطن او بقرب ورقة عليها صمغ طريٌّ ، فيجتذب الضوء الحشرات اليها ، فتقع في الصفيحة او تلتصق بالورقة

بعض الحشرات يجذبها ضوء نستطيع ان نراهُ ، وبعضها ينفِّرها هذا الضوء . وبعضها كالجاذب يبصر بضوء لا يراهُ الانسان ولكن معظم الحشرات والهوام التي تطير في الليل وتبصر بامواج من الضوء الذي نراهُ ، فهو في الغالب الى الضوء المزرقّ . اما اللون الاحمر فلا يجذبها لان عيون الحشرات على ما يظهر لا ترى الاحمر ولا الاخضر . فالمصباح الاحمر يجذب من الحشرات اقلَّ مما يجذبهُ المصباح الابيض اللون ، حالة ان الاصفر والذهبيَّ يغرانها . وهناك ما يبعث على الظن بان الاشعة التي وراء البنفسجي اشدُّ الاضواء جذباً للحشرات

ثم هناك ناحية اخرى . فالعلاقة بين الحياة وورق النبات الاخضر أوثق وأشهر من ان تحتاج الى تعريف . تتخذ الورقة من الارض والهواء موادَّ تصنع منها بفعل مادتها الخضراء (الكلوروفل) وضوء الشمس اصول غذائها ووقودها . وكان الظن اولاً ان الزهور لا تنتش والاوراق لا تنمو الا بفعل ضوء الشمس . ولكن التجارب الحديثة اثبتت غير ذلك . فقد ظهر ان تعريض اي نبات زهري لضوء كهربائي قوي ساعتين كلَّ يوم يفضي الى ازهار ذلك النبات . وقد اثبت باحث يدعى « فلنت » انَّ الاصفر والبرتقالي والاحمر هي الالوان الحيوية في حياة النبات ، واما الازرق والبنفسجي وما اليها فالوان الاستكنان او الموت

ثم ان فلنت وجنصن وجدا ان منطقة ضيقة من اللون الاحمر تفعل فعل السمّ في النبات

ان ضيق النطاق يحول دون الاسترسال في هذا الموضوع الفتان ولكن ما تقدَّم دليل على ان ميدان البحث الذي تمهده هذه المباحث ميدان لا حدود لهُ

أفضل تلك الفائدة

كيف عارضت الدول اولاً في
انشاء المحاكم المختلطة

لو شاء الباحث لمضى في بيان هذا الجشع العثماني الى مدى لا حدَّ لهُ . ففي المحفوظات المصرية الملكية من الحقائق ما يكفي لكتابة فصل أو فصل على هذا النمط . ولكننا بلغنا نهاية سنة ١٨٧١ وهذا التاريخ يصلح كغيره من التواريخ لانزال الستار على هذا الباب

إلاّ أن القارىء قد يستغرب لماذا شدَّدنا في الفصول السابقة على « الناحية الادبية » من ميزانية أعمال اسماعيل ، وأصررنا على أنهُ إذا بدا للباحث ان طائفة من النفقات التي انفقها لم يكن لها قيمة يقيم لها المالي وزناً خاصًّا ، فانها راجحة في ميزان « القواعد الأدبية » ، ثم عمدنا بعد كل ذلك إلى تخصيص صفحة بعد صفحة رسمنا فيها صورة يغلب عليها حديث الارتكاب وبيَّنا أن الخديو أنفق عشرات الألوف من الجنيهات على سبيل الرشوة . فهذا التناقض الظاهر يحتاج الى تليل من التفسير

ان المفتاح إلى سرّ هذه المشكلة هو القول الصريح بأننا لا نحاول أن نجعل من اسماعيل قديساً . لأنهُ لم يكن كذلك . بل كان ابن بيئته ، وكان متصفاً بمساوىء فضائله وفضائل مساويه . فكان يوزع المال على السلطان والصدر الأعظم والباشا وصبي المكتب لانهُ كان في حرب مع تركيا ، وكانت هذه وسيلتهُ في اقامة الحرب

سبق لنا أن قلنا أن الجنرال ستون ونحو أربعين من الضباط الاميركيين الذين انتظموا في خدمة الخديو بعيد انتهاء الحرب الاهلية الاميركية قيل لهم أنهم انما ينتظمون في خدمته للكفاح في سبيل استقلال مصر . وقد كانت الدعوة الى انتضاء سيوفهم في سبيل الدفاع عن الحرية ، هي المغناطيس الذي جذب هؤلاء المحاربين القدماء الى الشرق بعد تسريحهم من الحرب الاهلية . وكان الاختيار قد وقع عليهم لأن اسماعيل أدرك أنهُ اذا اختار اوربيين ، فكأنهُ منح اوربا رهناً اول على استقلال بلاده . قيل انهُ كان قد اعدَّ معداته ليعلن تحديهُ لتركيا اثناء الاحتفال بافتتاح ترعة السويس . وكان قد اتفق مع الملك فكتور عمانوئيل على ان تهم تركيا من ذلك ايطاليا

انها اذا تدخلت في اعلان استقلال مصر فجيوشها يهدمونها واسطولها يهاجمان بعض البلدان العثمانية الثانية . وترامى الى سمع نوبليون الثالث هذا النبأ فعارض اشد معارضة . فاضطر اسماعيل ان يتخلى عن خطته لما تبين مقاومة فرنسا . فابان اوربا على اسماعيل ان يحارب تركيا عدل عن الالتجاء الى حرب يقوم فيها المال مقام المدفع

ولا يمكن اقامة الدليل على اقوال قاطعة كهذه اذ ليس ثمة كتاب ازرق في صفحاته ما يؤيدها ولكنها قائمة على تأكيدات صادرة من مقام عالٍ لا يمكن ان تقتبس اقوالهُ . ولكن كل شيء يؤيد دقة الحقائق الاساسية التي تستخلص منها . فطموح اسماعيل الى تحرير مصر مما لا يتطرق الريب اليه . بل ان اتجاه سياسته كلها يؤيد ذلك . وليس ثمة باعث على الشك في قول الكولونيل شايه لوتم . وقد كانت خيرة الخديو بالجيش العثماني ، مما أثبت لهُ قدرته على اخذ الاستقلال بالسيف اذا سمح لهُ أن يتحدى السلطان . وكذلك نستطيع أن نفهم وجهة نظره . وهي كما يلي :

« أن أوربا تأبى عليَّ باعلان استقلال مصر ومحاربة تركيا اذا اقتضى الأمر في سبيل الحصول عليه . وإذن فلا فائز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي بالسلاح الوحيد الذي يتاح لي . اني سأشتري ضمائرهم . ان هذه الغاية جديرة بهذا البذل »

ولكن الراجح أن التاريخ الذي ذكر لمهاجمته تركيا كان خاطئاً . فهو لا يتفق مع انتظام الضباط الاميركيين في خدمته . فالتواريخ في عقود خدمتهم أما سابقة قليلاً لتاريخ اقتراح الترعة وأما بعيدة . ثم أنهُ لا يتفق مع الحقائق التي بسطها نوبار باشا في الرسالة التالية التي كتبها من باريس في ١٢ مايو سنة ١٨٧٠ : —

« في الحفلة الساهرة التي أقامها السفير الاسباني قال لي لورد ليونز أن لورد كلارندون كان قد علم من نواح مختلفة ما أوصى به الخديو في أميركا من السلاح وأنهُ أمره (لورد ليونز) بأن يحدثني في الموضوع ويحذرني من أن الطريق التي يسلكها سموهُ طريق وعر ولا يفضي الى شيء طيب . فذهبت ودعيت الى زيارة لورد ليونز في اليوم التالي فذهبت فأعاد عليَّ ما كان قد قالهُ وأضاف اليه أن ستانتن (القنصل الجنرال البريطاني في القاهرة) قد تلقى أوامر بأن يقابل الخديو . فقلت أني لا أعلم شيئاً مما يزعم من أمر شراء الاسلحة . فأجاب لورد ليونز بأنهُ يعلم كل العلم أني غير مطلع على ذلك ، ولكن ما وصلهُ من الحقائق صريح وقاطع ولا سبيل إلى الشك فيه . ثم قال أنهُ اذا لم تحل المسألة فقد تسفر عن متاعب وعقد جديدة لا ترغب فيها أوربا . وقال أنهُ من الطبيعي أن الخديو يرغب في أن يكون مستقلاً ، ولكن لما كان سموهُ ذكياً وحكيماً فانهُ يدرك ان هذا التسلح يثير ريبة الباب العالي ومخاوف الدول[1]

(١) محفوظات عابدين . وثائق الاصلاح القضائي ١٨٧٠ — ١٨٧٥

وفي مذكرة مؤرخة في ١٠ مايو سنة ١٨٧٠ بعث بها نوبار الى القاهرة ولكنها لم تصل الا بعد إملاء فردينان ديلسبس نفراً ما يلي :

« قابلت الآن دوق ده جرامون فسألني هل اعلم ما يفعله الخديو الآن . فقلت لا . فبيّن لي ان حكومة الامبراطور تلقت معلومات عن معاهدة عقدها الخديو مع الولايات المتحدة ارتبط فيها سموه باستخدام نحو خمسين ضابطاً اميركيًّا ، واوصى بسفن حربية ومواد حربية وطربيدات وانه عزم على ان يرفع علم الثورة على السلطان .

قال الوزير : انك تفهم الحالة . فان فرنسا على الرغم من صداقتها لخديو مصر ، لا يسعها ان تؤيد هذه الخطة ، وستضطر ان تنحاز الى انكلترا وبقية اوربا . فاذا وقع ما يخشى فان اميركا بعيدة ، والخسارة لا تقع على مصر ولا على الترعة بل على الخديو »(١)

وفي كتاب آخر مؤرخ في ١٨ مايو سنة ١٨٧٠ نجد ما قاله اميل اوليفيه رئيس وزراء فرنسا لنوبار : —

« قل لسموه باسمي ، كصديق ، ان هذه الاسلحة تثير القلق ، وان الحكومة ولاسيما الامبراطور لا ترغب في عقد عُقد ، وان هذه الاسلحة بدلاً من ان تعزز مكانة الخديو توهنها »(٢)

في أوائل مارس ١٩٣٧ يخرج رئيس تحرير « المقتطف » ترجمة لكتاب بيير كرابيتس القاضي الاميركي في المحاكم المختلطة سابقاً وهو الكتاب الذي وضعه في الخديو « اسماعيل » ورد فيه ما وجه الى اسمه من تهم وفرى ، مستنداً الى اقوال المؤرخين والساسة ، محللا الارقام والجداول ، معتمداً على وثائق رسمية لم تنشر محفوظة في قسم المحفوظات بسراي عابدين . وقد استأذن المترجم مؤلف الكتاب وناشره في نقله الى العربية فسارا منهم بالرخصة الرسمية .

وهذا المقال الجانب الاكبر من أحد الفصول

لو عمد الكاتب الى كتابة رسالة في ادب النفس لكان يلوم اسماعيل لانه عمد الى السلاح الوحيد المتاح له عندما وقفت اوربا هذا الموقف . فقد كان لا بد له من ان يلين لهذا الضغط السياسي لكنه حفن اثمراً من الدماء ووفر اكياساً من الذهب بما فعل . فجنت مصر من عمله فائدة عظيمة ، وان كان قصر النظر على الناحية الادبية من عمله لا يعترف بها . فلو سمح له بان يحارب ، وأحرز الظفر في تلك الحرب ، لكانت النفقة اعظم جداً من الاموال التي فرّقها ابراهام بك على رجال لم يغنوهم بماله بل كانوا جزءاً من اداة حكومية فاسدة

واذا كانت مصر اليوم من اكثر الامم

(١ و ٢) محفوظات عابدين : وثائق الاصلاح القضائي

وخلاه ، فانها مدينة في ذلك لبيقرية كرومر وبعد نظر استخليل . اني لن احاول هنا ان اسوغ التأكيد الاول بل اسوقهُ على انهُ قول نهض عليه الدليل . اما العامل الاساسي في القول الثاني فهو الاستقرار الذي تتمتع به مصر نتيجة للاصلاح القضائي الذي بذل ابراهام في سبيله جهداً عظيماً مشيعاً جشع الوزراء في الاستانة بينما كان نوبار في العواصم الاخرى يحاول اقناع رجال السياسة المجربين

ولا بد من كلمة في طبيعة هذا الاصلاح القضائي . انهُ وليد ما توصف به مصر في القانون الدولي من انها دولة تتمتع الدول الاجنبية فيها بامتيازات خاصة . وهذا يعني ان الاجانب فيها لا يحاكمون بمقتضى القانون المصري فقانونها يشمل المصريين لا الارض المصرية . فالانكليزي كان قبل هذا الاصلاح ، اذا باع بضاعة لبرتغالي فيها ، او الاسباني اذا باع بضاعة لهولندي ، لا يقيم احدهما قضية في محكمة مصرية استصداراً لحكم يؤيد حقه في استيفاء ماله ، بل كان على الاول ان يقيمها في القنصلية البرتغالية فيرضى بتفسير القنصل للقانون البرتغالي ، والثاني في القنصلية الهولندية فيقبل تفسير القنصل للقانون الهولندي ، وقد لا يفوز باكثر من ذلك

وكل هذا كان من شأنهِ ان يبث الاضطراب في المعاملات التجارية ويحول دون ورود رؤوس الاموال الاجنبية لاستغلالها في البلاد . فالاصلاح القضائي الذي كافح اسماعيل في سبيله كفاح مستبشر مُصيرٍ ، نص على انشاء قضاء مختلط او دولي وعلى اصدار قانون متناسق يطبق في البلاد كأنهُ دولة داخل دولة . وقد لخص لورد كرومر في احدى رسائله اختصاص هذه المحاكم قال :

« ان تفصل في القضايا المدنية والتجارية والنزاعات الناشئة من تملك الارض ، بين الاوربيين (يريد الاجانب) والمصريين او بين الاوربيين (يريد الاجانب) من جنسيات مختلفة او بين الاوربيين (يريد الاجانب) والحكومة المصرية »[1]

لما بدأ احتلال انجلترا مصر كان قد انقضى ست سنوات على انشاء المحاكم المختلطة . وكان من اثرها بث روح الاستقرار والضمان في الاعمال حتى اصبحت مصر لا تحتاج الا الى استقامة السر اڤلنغ بارنغ — كما كان يعرف لورد كرومر حينئذٍ — وصدق قصده وبارع خياله ، لكي تقام حريتها على اساس سليم . ولولا ذلك السيد (بره فنصل) العظيم لضاعت الثمار الطيبة التي جنيت من الاصلاح القضائي ، ولكن لولا انشاء المحاكم المختلطة وما نبثهُ من روح الثقة ، لانهار الى الارض الهيكل الذي اقامهُ انكلترا بسعيها الصادق

ثم هنالك عنصر آخر لا يجب الاغضاء عنهُ عند ما يلام اسماعيل على انفاقه مبلغ ٤٢١ر٢٨٩

(١) مصر بعد كرومر : تأليف اللورد بوند : هامش صفحة ١٧ المجلد الاول

جنيهاً على الاقل ، للفوز من تركيا بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وهو مطابق في النقول المأثور «خيرٌ للذين يسكنون بيوتاً من الزجاج ان لا يقذفوا حجارة». والمورد ملفر الذي وصف الخديو بقوله انهُ « غشاش اصيل » يقيم لنا الدليل على صحة هذا القول المأثور . فهو يقول في كتابه « انجلترا في مصر » : « ولا يمكن ان نصور تصويراً صادقاً مبلغ الفساد الذي كان الوكلاء الدبلوماسيون الاجانب — ولاسيما في عهد اسماعيل — يمدون اليه في استعمال نفوذهم ليتنزعوا من مصر المسكينة الضعيفة مالاً توفية لأوفح المطالب

« لم يكن الغرض الاساسي من الفوز بامتياز ما في تلك الايام استغلال ذلك الامتياز استغلالاً نافعاً ، بل اختراع سبب لاهمالهِ ثم مطالبة الحكومة بتعويض . وعلاوة على ذلك كانت كل خسارة تصيب اي اجنبي ، او اي ضرر يلحق بهِ حتى ولو كان ناشئاً عن حادث هو المسؤول عنهُ ، فرصة تغتنم للمطالبة بتعويض. فاذا سرق ماله وقع اللوم على الحكومة لانها لم تقم الحراس الاكفاء. واذا جنح زورقهُ الى الشاطىء لام الحكومة لانها لم تنظف قعر النهر مما تراكم فيهِ . ويقال ان اسماعيل قال لاحد حشمهِ في خلال مقابلة مع احد الاجانب : اقفل تلك النافذة لانهُ اذا اصيب هذا الكريم بزكام كلفني ذلك ١٠ آلاف جنيه ، وليس في هذا القول اي مبالغة

« فلما انشئت المحاكم المختلطة ، كانت المبالغ المطلوبة من الحكومة تعدل ٤٠ مليون جنيه . اما ما تمثله هذه المبالغ من الضرر الذي لحق بالمطالبين بها ، فيمكن ان يتبيَّن من ان احدهم كان يطالب بمبلغ ٣٠ مليون فرنك فحكمت لهُ المحاكم المختلطة بالف جنيه » [1]

ان العبرة التي تستخلص من هذه الفقرة المقتبسة واضحة . فاسماعيل كان واقفاً وظهرهُ الى الجدار . وقد كانت بعض الوزارات الاوربية تؤيد هؤلاء المبتزين وتحرضهم على ابتزاز المال من الخديو . وهذا قول فيهِ معنى التحدي ، ولكنهُ يستنتج من كلمات المورد ملفر التي تقدمت . ان الدول لم تأذن لاسماعيل في محاربة تركيا لكي ينتزع منها بسيفهِ الاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . فكان عليهِ ان يختار، فإما ان يدفع مبلغ ٣٠ مليون فرنك توفية لطلب قدَّرتهُ المحاكم المختلطة بالف جنيه واما ان يشتري الخلاص من هذه الحالة باشباع جشع الموظفين المهانين. فهل من الانصاف ان يلام على سعيهِ الى حماية نفسهِ بوسائل مخالفة للتعاليم الادبية حالة ان قبولهُ المحافظة على اساليب الضغط الدبلوماسي الاوربي يعني انتحاراً قوميًّا . اذا كان ذلك من الانصاف فالمثل اللاتيني السائر « Salus populi suprema lex » اي « سلامة الشعب هي القانون الاعلى » خطأ في خطإ

أما أوربا فانت في التخلي عن امتيازاتها ولم تقف من الاصلاح القضائي موقف عطف

(١) كتاب المورد ملفر «انكلترا في مصر» : الصفحة ٤٤

ورضى . إلاَّ أن معالجة الكلترا للموضوع كانت بشرّفها . وقد استغرق سعي نوبار شهوراً تحولت الى سنين قبلما فاز من الوزارات الاوربية بالموافقة على انشاء المحاكم المختلطة . وظلت فرنسا تمانع في انشائها بعد موافقة الدول الاخرى ولما أعربت عن رضاها كانت المحاكم قد بدأت عملها فعلا . ان قصة المساعي التي بذلها نوبار من أقصى أوربا الى أقصاها فصل خطير في ملك اسماعيل

كانت القاهرة قد أنبئت في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٧ ان وزارة الخارجية البريطانية «تعترف بضرورة الاصلاح القضائي وتكره مساوىء النظام القائم وتعهدت ببذل معونتها مع الدول على شريطة تعهد الحكومة المصرية بموافقة الدول»[١] . وفي ٨ نوفمبر ١٨٦٧ جاء من ألمانيا أن ألمانيا وافقت على مبدإ الاصلاح القضائي على شريطة حلّ مشكلة الضمانات التي تمنح للاجانب حلاً يبعث على الرضى وعلى شريطة تدبير فترة الانتقال وانشاء مدرسة للحقوق لتدريب قضاة المستقبل . ولكن الامور لم تسر هذا السير الحسن في فرنسا فكتب نوبار الى القاهرة في ٥ مارس سنة ١٨٦٩ ما يلي :

« أشار عليَّ الجنرال فلوري بأني اذا كنت أرغب في الوصول بالمفاوضات الى نتائج سريعة تبعث على الرضاء فعليَّ أن أطلب مقابلة الامبراطورة وأن أقول لها أن مولاي الجليل قد أمرني بأن أُنبئه على جلالتها تنوي زيارة مصر لحضور الاحتفال بافتتاح ترعة السويس لانهُ اذا كانت تنوي ذلك فهو يرغب في اعداد الاحتفاء بها احتفاء يليق بمقام امبراطورة عظيمة وفاتنة . وقد قال الجنرال ان هذا العمل يبعث على اغتباطها ، وانها هي المسيطرة على الاقالیت (المركز ده لاقالیت كان وزير الخارجية حينئذٍ : المؤلف) وانهُ اذا لم تفعل فقد تطول المفاوضات

« أما لورد ليونز الذي قابلتهُ بعد ظهر اليوم فقال لي أن المركز ده لاقالیت ... الآن واحد وليكنه غير مستعجل لأن مشكلة اللجيك تستغرق معظم وقته . وأني لمترددٌ في الذهاب الى الامبراطورة على نحو ما أشار الجنرال فلوري من دون أن أتلقى تعليمات أولاً من مولاكم[٢]

ان حرق البخور على مذبح زهو امرأة ، يلقي ضوءاً على ناحية من خلق اسماعيل . فقد زُعم انهُ انفق عشرات الالوف من الجنيهات في الاحتفاء باصحاب التيجان الذين حضروا حفلة افتتاح الترعة . والراجح ان هذا الزعم صحيح . ولكن كتاب نوبار المؤرخ في ٥ مارس ١٨٦٩ يدل على ان ذلك الانفاق لم يكن جزافاً وان الاهبة التي قابلهم بها كانت اسلوباً من اساليب حملته في سبيل الاصلاح القضائي

وعلى كل حال يظهر ان الامبراطورة اعجبت باطراء نوبار عندما أذنت لهُ في مقابلتها . فسارت الامور على ما يرام وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٩ أرسلت البرقية التالية الى القاهرة : —

«عندي من الوزارة ما يثبت لي ان قبول الحكومة الفرنسية اصبح مؤكداً . فلي ان اهنىء مولاكم . ولا ريب في ان وفاة مدام لاقالیت قد يؤخر صدور البيان الرسمي بضعة ايام»[٣]

(١) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٧ (٢ و٣) محفوظات عابدين : ملف الاصلاح القضائي ١٨٦٩

واذ كان نوبار يبذل مساعيهُ في اوربا ، راجع اسماعيل محفوظاته فلاحظ ان احداً لم يفاتح الولايات المتحدة الاميركية في الموضوع فكتب الى نوبار ما يلي :

«عزيزي نوبار : في موضوع الاصلاح القضائي ، لا تفاتح الولايات المتحدة بعد . فيجدر بنا ان نفعل ذلك الآن »[1]

وكذلك كان . والظاهر ان وشنطن كانت قد تلقت انباء رسمية عما يدور في هذا الصدد . ويقول القاضي برنتن : ولكن من سخرية القدر أن اول تبأ اتصل بحكومة وشنطن عن مشروع الاصلاح ، كان مفرغاً في قالب نداء الى الولايات المتحدة لتستعمل نفوذها لمنع تحقيقه . وكان هذا النداء باسم أمة إحدى أبنائها اليوم ، عميد المحاكم المختلطة ومقدم رجال القانون في مصر . ففي رسالة مؤرخة في ٢٢ دسمبر سنة ١٨٦٧ وموجهة الى وزير خارجية اميركا أعربت حكومة اليونان عن رأيها بأنهُ يبدو لها ان تعديلاً خطيراً كهذا ولا سيما لأنهُ يمس جميع حقوق الأجانب تقريباً في مصر ، يُعدُّ سابقاً لأوانه وان الجهل والتعصب والمفاسد المتأصلة في العناصر الوطنية تحول دون دعوتها لممارسة أعلى وظائف القضاء »[2]

ان المعارضة الناشئة عن وقوف حكومة اليونان هذا الموقف وضعت عراقيل كثيرة في طريق نوبار . ولكنهُ كان قادراً على التهرض بالتبعة الملقاة عليه . فقد كان متصفاً بالتفاؤل وحسن الحيلة والصراحة ، فلم يقنط من طرق أبواب الوزارات في أوربا . ولكن روسيا القياصرة لم تكن جزءاً من أوربا حينئذٍ أكثر من روسيا السوفيت الآن . وكان نظرها الى الواجب يختلف عن نظر لندن . فالذهب كان في نظرها مفتاحاً من مفاتيح التعقل . واذن كان لا بدَّ من الاعتماد على مساعي ابراهام في مفاوضها . فأرسلت اليه برقية في ١٣ يناير سنة ١٨٧٣ وكان لا يزال في الاستانة فاذا البرقية تنطوي على ما يلي :

« يجدر بك أن تأخذ مبلغ ٨ آلاف جنيه في سندات (القنصليد) وضعها في ظرف واكتب عليه عنوان الجنرال إجناتيف ، ثم اختمهُ بالشمع الأحمر ولكن لا تستعمل خاتمك . ثم سلمهُ الظرف وقل لهُ انك تلقيت هذا الظرف بالسفينة الخاصة التي جاءت لنقل جهاز ابنتي . فاذا سأل عما فيه فقل انك لا تعلم . واجتنب ان يفتح الظرف أمامك حتى يظن انك لا تعلم شيئاً عما فيه »[3]

كانت روسيا في تلك الايام تصير الروم الارثوذكس من المسيحيين . وكانت ذا سلطان عظيم في الاستانة . وكانت تطمح الى مدّ نطاق امبراطوريتها الى البوسفور . وكان سفيرها من أعظم السفراء الوافدين الى الباب العالي مقاماً ونفوذاً . فلو عارض في الاصلاح القضائي لتعذر على اسماعيل تحقيق ما يصبو اليه . وقد كان الجنرال إجناتيف سفير القيصر ولذلك كانت خطة اسماعيل تنطوي

(١) اشتراك اميركا في المحاكم المختلطة تأليف جنسر برنتن القاضي بالمحاكم المختلطة بالاسكندرية ص ٧٣
(٢) محفوظات عابدين : ملف ابراهام : سنة ١٨٧٣

على كتب عطارد هذا السفير . فاقبل ابراهام على عمله بما عرف به من الدقة والنظام . وفي يوم ١٥ يناير انبأ اسماعيل بانهُ سيطالع مسألة الظرف وفقاً لتعليماته ثم يسلمهُ للجنرال إيجناتيف [1]

الاَّ ان سير الامور كان بطيئاً . ولم يستطع « مراقب » الخديو ان يفي « مولاهُ » بما تقدم نحو العرض الاَّ في ١١ فبراير . قال في رسالته :

« قال لي « البكير » كما مارا انهُ اذا شئنا ان تمضي مسألة الاصلاح القضائي فعلينا ان نعطيه المال الذي وعد به ، لان التدبير قد تمَّ تقريباً بفضل ايجناتيف الذي يطلب عشرين الفاً من الجنيهات . فقلت لهُ : اني وعدتك حقيقة بمبلغ من المال ولكنني فعلت ذلك على شرطين اولهما : ان تأتيني بكتاب من إيجناتيف بان روسيا توافق على جميع الشروط . وثانيهما : أن تنهي المسألة في خلال شهرين . فذهب كامارا ثم عاد وهو يقول ثق بي عندما أقول لك ان إيجناتيف قد بذل جهده . ولكن المسألة لم تنته بعد . وقد تطول اذا لم يسلَّم المبلغ الذي وعد به »[2]

وتلقى ابراهام رداً من القاهرة في اليوم نفسه ومؤداه انهُ قد خولهُ دفع مبلغ ٨ آلاف جنيه وان الباقي وهو ١٢ الف جنيه يرسل عندما يسلمهُ ايجناتيف كتاباً ينصُّ على أن حكومتهُ خوَّلتهُ حق الموافقة على الاصلاح القضائي . فكان ردُّ ابراهام على هذا مؤرخاً في ١٣ فبراير وقد اكَّد فيهِ انهُ سلَّم إيجناتيف مبلغ ٨ آلاف جنيه على اساس القواعد التي وصفها الخديو فلما كان اول مارس حمل كامارا يشدِّد على ابراهام بوجوب دفع الباقي من المبلغ وهو ١٢ الف جنيه للسفير وأنبأهُ بأن الرسالة الخطيرة التي تنصُّ على الموافقة ستسلم في ذلك المساء . وقد سلمت فعلاً ولكنها كانت كما يصفها المحامون « مبهمة وعامة وغير محدودة » . فلما أبلغت محتوياتها الى الخديو بالبرق أبرق سموُّهُ الى ابراهام بتاريخ ٣ مارس :

« لا معنى لهذا الكتاب . ومن بواعث الأسف ان يكون قد تسلم مبلغ ١٢ الف جنيه لانهُ لن يعطينا كتاباً آخر الاَّ لقاء مبلغ آخر من المال »[1]

وقد كان ابراهام عارفاً بمداخل هذه المماحلات ومخارجها فلم يخدع فأبرق الى مولاهُ بذلك وقد طال الاخذ والردُّ بين ابراهام ووكيل السفير الروسي حتى منتصف شهر مارس اذ فاز ابراهام بكتاب من السفير وافٍ بالغرض فأبرق الى الخديو :

« مولاي الجليل . دفعت مبلغ ١٢ الف جنيه لايجناتيف فكان شديد الاغتباط »

ان سرد هذا القصة الاليمة من قصص الجشع الروسي يبين كيف تغلَّب الخديو على احدى العقبات التي هددت مشروع الاصلاح القضائي بالحبوط . وقد كان هناك عقبات اخرى ولكن توبار تخطاها بمنطق السياسي المحنك وباقة الدبلوماسي البارع

(١) محفوظات عابدين ملف ابراهام ١٨٧٣

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

للدكتور مصطفى الرمالي

— ١٧ —

إبرة آدم الفاخرة

ويقال لها يوكا (Yuca) عند أهل سنت دومنغو وهي شجيرة دائمة الاخضرار ساقها بسيطة أو متفرعة ترتفع مترين . اوراقها كثيرة عديدة متضامة صلبة دائمة لونها أخضر يضرب الى الزرقة كامة الحافة تماماً طول الواحدة منها متر وعرضها ٨ سنتيمترات مقعرة من وجهها العلوي ولها رأس شائك . وأزهارها مجتمعة في عنقود طوله مترات يخرج من وسط الاوراق الواحدة منها بيضاء تضرب الى الخضرة من الداخل ومبقعة باللون الارجواني من الخارج وشكلها كالجرس المتدلي

اسمها العلمي (Yucca Gloriosa, L.) (يوكاغلوريوزا) وفصيلتها الزنبقية (Liliaceae) (ليلياسية)وبالانجليزية (superb Adam's needle; mound lily) والفرنسية (yucca glorieux)

موطنها امريكة الحارة (فرجينيا) وهي ضرب من الزنبق الأبيض مرغوب فيه للزينة جداً في البساتين المصطنعة من الصخور (الجيليات) لشبهها بشجر النخل والاناناس والصبار ولدوام اخضرارها وهي بطيئة النمو والازهار ولذا تناسبها البيوت الزجاجية (الصوبات) في غير موطنها الاصلي أما اذا زرعت في الهواء فلا تنجح

ابرة الراعي المنسوبة لروبرت [١]

هي عشب سنوي يرتفع من ١٥ سنتيمتراً الى ٣٠ ورقته ذات ثلاثة فصوص أو خمسة مقسومة تقسيماً ريشياً ثلاثياً وأزهاره حمراء قرمزية أوراق تويجاتها كاملة الحافة طول الواحدة منها ضعف طول ورقة الكأس التي تكون مضلعة ولها سفاة كالابرة

اسمه العلمي (Geranium Robertianum, L.) (جرانيوم روبرتيانوم)[٢] وفصيلته الجرانية أو فصيلة ابرة الراعي (Geraniaceae) (جرانياسية) وبالانجليزية (herb robert; Scotch geranium) والفرنسية (géranium robertin; bec de grue; herbe à Robert)

شائع في اوربا (عدا انسا وانجلترا) وآسيا وافريقة الجنوبية ويكثر في الأراضي الزراعية تابعاً بطيمته وقد يزرع احياناً في المواضع التي تظللها الاشجار وعصارته تستعمل دواء قابضاً وعطراً كماء الورد

إبرة الراعي المُخَطَّطة

هي عشب معمر ساقهُ مستديرة غير قائمة ترتفع الى قدم ورقته السفلى ذات خمسة فصوص وكل فص بيضي الشكل محدد الرأس مسنن الحافة جداً وأزهاره جميلة وردية تخللها خطوط أرجوانية

اسمه العلمي (Geranium striatum, L.) (جرانيوم استرياتوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (queen Ann's needle work; striped crane's bill)

والفرنسية (géranium strié; bec de grue strié) شائع في شمال اوربا وايطاليا وغيرها يزرع للزينة ويبدأ في الازهار من شهر مايو

إبرَةُ الراعي اللانكشيرية

هي عشب معمر متساقط الأوراق ساقه مفرَّشة على الارض ذات عقد يرتفع من ١٠

---

(١) في الشام يطلقون على ما تقدم من انواع هذا النبات اسم (جرنة) و(عتر) و(منقار الكركي)

(٢) اشتق اسم جرانيوم من جرنيون (géranion) عند قدماء اليونانيين اخذاً من جرانوس (géranos) بمعنى كركي وذلك لشبه ثمرة هذا النبات برأس الكركي ومنقاره

سنتيمترات الى ١٥ أوراقه متقابلة الوضع في كل واحدة منها خمسة فصوص غائرة وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون تتخللها خطوط أرجوانية

اسمهُ العلمي (Geranium Lancastrienae, With.) (جرانيوم لانقاستريني) أو (Geranium sanguineum lancastrienae, Mill.) (جرانيوم سانغوينيوم لانقاستريني) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (Lancashire crane's bill) شائع في انجلترا وفرنسا وغيرها يزرع للزينة

إبرة الراعي القرمزية

هي عشب متساقط الاوراق جميل المنظر ساقه قائمة كثيرة الفروع ترتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه متقابلة الوضع في الواحدة منها خمسة فصوص وكل فص مقسوم الى ثلاثة فصوص صغيرة على هيئة خطوط وأزهاره كبيرة قرمزية تضرب الى اللون الارجوني اي حمراء كالدم

اسمهُ العلمي (Geranium sanguineum, L.) (جرانيوم سانغوينيوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (bloody crane's bill) والفرنسية.(géranium sanguin)

شائع في أوربا (فرنسا وانجلترا) وغرب آسيا يزرع للزينة وهو اجمل الانواع يزهر من مايو الى سبتمبر وعصارته تشتمل على حامض الغفص واسمها الفرنسي (rouge de géranium) تستعمل في الطب قابضاً

إبرة الراعي ذات أوراق شقائق النعمان

هي عشب ساقه كساق الشجيرة يرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه السفلى كفية ملساء الواحدة منها مقسومة الى خمسة فصوص وكل فص مضاعف التقسيم الريشي والأوراق العليا مقسمة تقسيماً ثلاثياً وأزهاره كبيرة قرنفلية اللون أو حمراء أرجوانية

اسمهُ العلمي (Geranium anemonaefolium, L.) (جرانيوم أنيمونيفوليوم) أو (Geranium Lowii) (جرانيوم لوياي) من فصيلة النوع السابق

وبالانجليزية (anemone-leaved crane's bill) شائع في جزيرة مَدِيرَة يزرع للزينة ويزهر في الصيف

إبرة الراعي المُبَقَّعة

هي عشب متساقط الأوراق معمر جميل المنظر ساقه الأرضية غليظة والهوائية قائمة ذات ضلوع على نوع ما تمائية الشعب مغطاة بشعر قصير ناعم أوراقه مقسومة الى ثلاثة فصوص أو خمسة مسننة الحافة الجذرية منها ذات عنق طويل جداً والعليا متقابلة الوضع عديمة العنق وأزهاره أرجوانية اللون فاتحة تتفاوت في الحجم

اسمه العلمي (Geranium maculatum, L.) (جرانيوم ماكولاتوم) من فصيلة النوع السابق وبالانجليزية (spotted crane's bill)

والفرنسية (géraine maculatum)

شائع في امريكة الشمالية وعصارة ساقه الارضية تستعمل في الطب مقوياً للمعدة وقابضاً في حالات النزيف الباطني والخارجي والاسهال

أذن الحمار المتوسط

عشب متساقط الأوراق ترتفع ساقه الى ٢٠ سنتيمتراً أو ٢٥ وله سوق كثيرة الامتداد على سطح الارض أوراقه بيضية الشكل ملساء تقريباً الجذرية منها ذات عنق والعليا تكاد تكون عديمة العنق (جالسة) وأزهاره زرقاء او بيضاء

اسمهُ العلمي (Ajuga reptans, L.) (آجوغا رپتانس)[1] وفصيلته الشفوية وبالانجليزية (bugle) والفرنسية (bugle rampante; consoude petite) [2] وهو شائع في اوربا يزرع للزينة ومشهور عند العامة هناك دواء لالتئام الجروح ومبرد وقابض لطيف

---

(١) يؤخذ من اللاتينيين أنهم عزوا الى النبات المسمى (ajuga) خاصية اذرار الطمث ولكن الراجح أن هذه الخاصية انما هي للنبات المعروف الآن (بالعرعر) وهو (الكمايطوس) واسمه العلمي (Ajuga Chamaepitys, Schreb.) وبالانجليزية (yellow bugle or ground pine) والفرنسية (germandrée ivette ou chamaepitys)

(٢) ولتشابه الخواص الطبية بين نباتي اذن الحمار المتوسط وابو خلسا او لسان الثور قد اطلق على الاول منهما اسم (bugle) مصحفا عن (bugula) باللاتينية الذي هو مرادف (ajuga) أما (bugula) فهو مختصر (buglossum) مرادف (anchusa) اسم الجنس لابي خلسا او لسان الثور واسمه العلمي (Anchusa officinalis, L.) وبالانجليزية (common bugloss)
والفرنسية (buglose ou bugloss des boutiques)

مدارس الصحافة

وبواعث انشائها

للدكتور ليل سبنسر

عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوس الاميركية
والاستاذ الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

ان الجامعات الاميركية في طليعة جامعات العالم اهتماماً بالصحافة وتدريسها كفن من الفنون الهامة . وقد دعاها الى ذلك سببان رئيسان هما : (١) قوة الصحافة ومنزلتها الاجتماعية . (٢) حاجة الصحافة والنشر في العصر الآلي الحديث الى دراية فنية ودربة عملية

منذ سنوات قليلة أخرج الاستاذ اوجبرن (Ogburn) بجامعة شيكاغو كتاباً عنوانهُ « التطور الاجتماعي » نبه فيه الافكار الى حقيقة جديرة بالتأمل هي ان المعلومات المدخرة عند اي فرد من الناس ترجع في اصلها الى عنصر اجتماعي . اي ان ما لدينا من المعلومات مأخوذ في الأصل عن غيرنا . وان قدراً ضئيلاً من تلك المعلومات مكتسبٌ بالملاحظة الفردية والاستنباط الشخصي المبتكر . وقدرة الرجل العادي على استنباط النتائج الجديدة بنفسه من غير الاستعانة بغيره قليلة لا تكاد تذكر . أو بعبارة أخرى ان الأمور الفكرية التي ينتفع بها المرء في هذه الحياة قد اشترك في تكوينها واعدادها افراد عدة مجتمعة فنحن نعرف ما نعرفهُ لأننا تلقيناهُ عن الآخرين ، لا لأننا فكرنا فيه مستقلين . لقد درس الاستاذ اوجبرن مائة وثمانية واربعين مخترعاً من اعظم المخترعات في العصور الحديثة فلم يجد في واحد منها ابتكاراً مستقلاً تمام الاستقلال بمعنى ان صاحبه انفرد به وحده ولم يعتمد في تكوينه على افكار غيره ، بل رأى في كل حالة أن المخترع أو الكاشف كان يستعين بالمعلومات التي كان لغيره الفضل في اعدادها

وهذه الحقيقة نفسها هي التي دعت الاستاذ روس فني Ross Finney بجامعة (منسوتا) الى القول بان التفوق العقلي في المرء ليس نتيجة لمجهوده الفردي ولكنهُ اثر من آثار التفكير الجمعي . ثم قال بعد ذلك أن كشف حقائق جديدة تضاف الى الحقائق القديمة عمل شريف جدير بالتقدير ولكنهُ عمل نادر الحدوث . وان الاستقلال الفكري الذي تفخر به احياناً ليس الا سراباً خداعاً لا حقيقة له

والواقع ان الآراء التي لدينا وهي التي تنسبها كثيراً الى انفسنا وصلتنا اولاً عن افراد الاسرة والمتصلين بنا ثم جاءت بعد ذلك عن طريق الصحف والكتب والمجلات . وما نأخذه عن الصحف أوفر وأكثر مما نأخذه عن الكتب والمجلات . ولا شك ان ما تنقله عن الزملاء والاصدقاء وغيرهم مقتبس معظمه من الصحف

فما تطلعونهُ عن القيضان في اميركا وإضراب العمال هنالك قد جاءكم نبؤه في الصحف . وما تعرفونهُ عن هتلر وموسوليني وستالين نقل جمهم من الصحف . كذلك ما تسمعونه عن الحرب في اسبانيا واعمال ايطاليا في الحبشة والازمة الوزارية في اليابان كل ذلك جاءكم عن طريق الصحف . والاخبار التي تذاع كل يوم بالمذياع جمعها الصحف ونقلها الى محطات الاذاعة فقامت بنقلها اليكم . وغاية القول ان الصحافة اصبحت اقوى وسيلة لنشر الانباء والمعلومات المتداولة بين الناس . وهذه المنزلة السامية للصحف في الحياة العصرية هي التي حدت بجامعات اميركا ودفعتها الى العناية بدراسة الصحافة وانشاء مدارس خاصة لتلقين الناشئين من الطلاب والطالبات فنونها والتخصص فيها كسائر المهن الاخرى

ولا يفوتني ان اذكر ان الصحف في اميركا قوية وان الجامعات هنالك قد انشأت مدارس لها اعترافاً بفضلها على المجتمع . وقد سررت كثيراً حين علمت ان الصحف في مصر تتمتع بحريتها ولا اعتبر ذلك امتيازاً لها بل اعده حقاً من حقوقها . وأهنئكم لانكم تنشرون صحفكم هنا في احوال تختلف عن نظائرها في بعض البلاد الاخرى كايطاليا والمانيا وروسيا . اذ لا يستطيع شعب ان يتمتع بالحكم المستقل ما لم تكن صحافته حرة تعبر عن آرائه وطرائقه التي يريدها لحكم نفسه . وتتمتعون في مصر بالحرية الصحفية تراث ثمين يجب عليكم المحافظة عليه . هذا هو السبب الاول الذي اردت ان احدثكم عنه .

اما السبب الثاني الذي دعانا الى انشاء مدارس للصحافة في اميركا فراجع الى تعقد الحياة الاجتماعية العصرية وازدياد الوسائل الفنية للنشر والاعلان . فالحياة الفطرية الاولى لم تكن في حاجة الى تعليم رسمي منظم إذ كان الاب والام يتوليان تربية الابناء في المنزل وتعليمهم ما يلزمهم للحياة في مجتمعهم الساذج الصغير . كما هو الحال الآن في القبائل المتوحشة التي يقتصر التعليم فيها على تدريب الابناء على صيد الاسماك والحيوان والدفاع عن النفس وتعليم الفتاة شيئاً يسيراً من الطهي وطحن الحبوب وحياكة الملابس وأمثال ذلك . ولكن لما اتسعت الحياة وتقدم المجتمع اصبحت النظم اكثر تعقيداً وصار التعليم الرسمي ضرورة من ضروريات المعيشة . فالاب والام لا يستطيعان الآن اعداد ابنائهم وبناتهم لعصرنا هذا . ولعل الكثير منا يذكر ان معرفة المواد الثلاث القديمة وهي القراءة والكتابة والحساب كانت كافية لأعداد الطالب للحياة وعُدّه مهيأً للزعامة

لقد انقضى ذلك الزمان واصبحنا في عصر تشابكت فيه المصالح وتعددت اساليب المعيشة واختلفت وسائل العمل والارتزاق ، ولا نبالغ اذا قلنا اننا في عصر لا يستطيع فيه الشاب ان يحصل على القدر اللازم لسعادته من التربية الا بعد ان يصل الى سن الثلاثين. ولقد كان هذا التزاحم على الحياة والميل الى النجاح فيها داعياً الى الاجادة والمهارة في الوسائل التي تكفل الفوز ومن اجل ذلك قال الناس بالتخصص والانقطاع الى بعض فروع العمل والتوفر عليها ليضمن الانسان الاتقان . فبدأ التخصص اولاً في الدين ثم في الطب ثم في الحقوق والهندسة وتبعها غيرها وجاء الآن دور التخصص في الصحافة . ومن الصعب ان نذكر تعليلاً صحيحاً لتأخر التخصص في الصحافة عن غيرها من المهن الاخرى وربما كان سبب ذلك الظن بأن كل فرد يحسن الكتابة وتحريك القلم وصوغ العبارات واعداد الآلات يصلح ان يكون محرراً لصحيفة او مديراً لها

ولكن الحقيقة ان التحرير والنشر يتطلبان تعلماً قيماً وثقافة حرة واسعة النواحي

فالصحفي الحديث لا بد له من الالمام التام بالتاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة واللغات. ولقد رأيت بنفسي خطأ جليلة لقادة عظماء قد نقلها بعض الصحفيين ونشرها في جرائده فكانت السخط والاستهزاء من القراء لا لأن تلك الخطب معيبة او بها نقص او سوء اختيار ولكن لان أولئك الصحفيين لم يكونوا ذوي المام تام بشئون الحياة وعلم واسع يمكنهم من فهم اغراض الخطباء وصوغها بالروح السامي والعبارات اللائقة التي تحدد المعاني وتوضحها وتنقلها الى القارئين كما يريدها أولئك الخطباء . وهذا هو السبب عينه الذي يدعو الى رفع شأن بعض الصحف واسقاط غيرها فمديرو الصحيفة والمشرفون عليها هم الذين يدعم ان يكتبوا لها الحياة والذيوع او يسوقوا اليها الموت والافلاس

ولا يغيب عنا ان مهمة الصحيفة ليست مقتصرة على الاخبار والمسائل العلمية والأدبية التي تتطلب منا نحن معشر الصحفيين خبرة وفهماً ولكن هناك باباً هاماً من الابواب التي تعتمد عليها الصحف وتستعين بها على الحياة والبقاء ذلك هو باب « الاعلانات » وهو باب ليس اقل شأناً واحتياجاً الى العناية والدراية من سائر الابواب الاخرى قلةً من الوسائل والاساليب الخاصة ما يدعو القراء الى الالتفات اليه. ولولا تلك الوسائل والاساليب لما اهتم به احد من الناس فيصيب الصحيفة بسبب هذا الاهمال ضرر جسيم — وهذا هو الباعث على ان بعض الناس يقرءون تلك « الاعلانات » في بعض الصحف ولا يجدون باعثاً على قراءتها في صحف اخرى

مما تقدم يتضح لنا ان تحرير الصحيفة والاشراف عليها واظهارها للناس في ثوب لائق يتطلب منا في عصرنا الحديث تخصصاً في فنون الصحافة وانقطاعاً لدراسة وسائلها كما ينقطع بعض الطلاب لدراسة الطب او الحقوق او الهندسة او غير ذلك

العلم في خدمة الانسانية

الغدد والحياة

— ٣ —

الغدد وتجديد الشباب وتعيين الشق

لما اتيح للعلماء تؤرا الشق نقين استطاعوا ان يمتحنوا بها اقوال الداعين الى تجديد الشباب بالعمليات الشقية sex operations فاستبدل شتياخ النسوي عملية زرع الغدد حقن الثيلين (توّر الانثى) او الاندروستيرون (توّر الذكر) ولكن التبديل لم يسفر حتى الآن عن اي دليل على انهما يبيدان النشاط للعجائز والشيوخ. وفي ذلك قال ستوكراد: «ظنّ شتياخ وفورونوف خطأً ان تكُّس degeneration الغدة الشقية هو الباعث على الشيخوخة. وهذا رأي قائم على وهم. لان تكُّسها عرض وليس بسبب. فالثور الخصيُّ والجواد الخميُّ والديك الخصيُّ لا تفوق في سرعة شيخوختها او بطئها الثيران والحياد والديوك السوية». ولا يزال فورونوف يبحث في كل قطر من اقطار الدنيا عن اسرار التعمير ولا يزال كثير من الشيوخ يعلّقون بباحثيه أوهى الآمال

ان عزل الثيلين والاندروستيرون والتستوستيرون مكن العلماء من ان يوغلوا في بحث اسرار الشق التي امضّت عقول الناس قروناً طوالاً. بهذه الانوار تمكنوا من تفسير بعض التجارب الغريبة التي تمت في القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن. ففي سنة ١٨٤٩ عمد باحث يدعى برتولد الى تجارب جربت قبل قرن من الزمان ونوّعها قليلاً واعاد تجربتها وذلك بسلّ خصى الديوك من موضعها الطبيعي وزرعها في الديوك نفسها ولكن تحت جلدها. فلم يظهر على الديوك اي أثر من آثار الخصي. وذلك لان الخصى ظلّت تفرز من موقعها الجديد مفرزاتها الداخلية في الدم وهي المفرزات التي ترتدّ اليها صفات الذكر الشقية. ثم جاء باحث آخر سنة ١٩٠٠ وجرب تجارب من قبلها بغدد الاناث الشقية. وفي سنة ١٩١٦ أخذ غوديل Goodale الميض من دجاجة وزرعه في ديك خصيّ فتحوّل الديك دجاجةً في مظهره الخارجي وسلوكه. ذلك ان تور الميض أفرز في دم الديك فأنشأ فيه الخصائص الانثوية المتصلة به

ثم كشف الدكتور فرانك لي Lillie كشفاً كبير الشأن في هذا الموضوع عند ما شرع في دراسة الحنّاث . وقد تمّ لهُ ذلك وهو لا يعلم أن عالمين نمسويين كانا قد سبقاهُ اليهِ قبل ست سنوات

قد يعض المواشي توائم ويكون أحد التوأمين في بعض الاحيان ذكراً والآخر أنثى تتصف بصفات الشقين اي الذكر والانثى وهو ما يعرف عندنا بالخنثى . والخنثى عقيم وأعضاؤها الجنسية غير سوية التركيب. فتناول الدكتور لي في دراسته عشرات من هذه الحنّاث فوجد أن جهاز الدورة الدموية في كلّ من التوأمين ، لا يكون متصلاً قبل الولادة اتصالاً مباشراً بدورة الام ، بل يكون أحدهما متصلاً بالآخر . وكذلك يدخل نوّر الخصية من الذكر دم الانثى وهي في أدوار نموّها الاولى فيحدث فيها تغيراً في تكوينها يجعلها شبيهة بعض الشبه بالذكر . وما انقضى على ذلك بضع سنوات حتى تمكن سانتد Sand أحد علماء كوبنهاغن عاصمة الدنمارك من انجاز عملية طريفة . ذلك انهُ أخذ ديكاً وزرع فيهِ بيضاً ، وانتزع ريش الجانب الايسر من جسمهِ عند اتمام عملية الزرع ، فلما نما ريش جديد مكان الريش المنتزع كان ريش الانثى وذلك من تأثير مفرزات المبيض . وكذلك أصبح هذا الديك نصف ريشه ريش ذكر والنصف الآخر ريش انثى . وفي سنة ١٩٣٠ اتخذت ماري جوهن Johns الباحثة في جامعة شيكاغو ذكر طائر أسمر الريش وحقنتهُ بالنوّر الشتي من امرأة ، فتحوّل ريشهُ وأصبح كأنهُ أنثى ذلك الطائر

هذه البحوث والتجارب تفسر لنا ما كان يقع للخصيان في قصور السلاطين ، او للفتيان الذين كانوا يخصون للاحتفاظ بصوتهم رفيعاً كصوت النساء (سوپرانو) للترتيل في الكنائس . ثمّ ان دراسة أنوار الشق كشفت عن بعض الحوادث الغريبة التي وصفها الطبيب النفسي كارل ينجر . فمن الحوادث التي حدثت حادث رجل أصيب بعد الحرب بمرض النوم . فلما شفي من مرضهِ لاحظ ان شعر عارضيهِ توقف عن النمو . وانّ صوتهُ اصبح عالي النغمة ، وكبرت ثندوتاهُ حتى اضطرّ ان يستأصلهما بعملية جراحية وأصبح كالنساء في ما يستوقف عنايتهُ ويسترعي اهتمامهُ . وكان لما رآهُ هذا الطبيب جالساً في سريره في احد المشافي وهو يطرّز . وتفسير ذلك ان مرضهُ أحدث اضطراباً في غددهِ الشقية فأصبح خنثى . وهذه الظاهرة ظاهرة الحنّاث كثيرة في النباتات ولكنها مشاهدة في الرجال كذلك . ولعلّ أشهر حوادثها حادث رجل ثندوتاهُ كثندي المرأة وسلوكهُ كسلوكها ولكن أعضاءهُ التناسلية اعضاء رجل تام الرجولة ، فالحنّاث والتجارب المتصلة بهذا الموضوع هي الدليل القائم على تأثير أنوار الشق في تغير خصائص الاحياء

***

إلاّ أن تفسير الشق بأنوار الندد الشقية ليس بالتفسير العلمي الوحيد . بل هناك التفسير

الآخر الذي تقدَّم به العلّامة توماس هنت مورغان وهو القائم على عوامل الوراثة المتضرية في الكروموسومات . ثمَّ لما نشأ علم المفرزات الداخلية بيَّن اقطابهُ ان هذه المفرزات ولا سيما مفرزات الغدد التناسلية هي العوامل المسيطرة على تعيين شق الوليد (Sex) وهل يكون ذكراً او أنثى . كان رأي ارسطوطاليس انهُ اذا كانت نطفة الذكر غير قوية ، نشأ وليد ناقص وهو الانثى . وظلَّ الناس قروناً متوالية يعتقدون ان مفرزات الخصية اليمنى تولد الذكر حالة ان مفرزات الخصية اليسرى تولد الانثى . واضيفت الى هذه العوامل عوامل اخرى ذكر بينها سن الوالد وغذاء الوالدة والحرارة عند الحمل بل واتجاه الريح ايضاً . وفي أواخر سنة ١٩٣٣ حاول احد العلماء ان يثبت ان زيادة المادة القلوية مثل مادة بيكربونات الصودا تفضي الى ولادة الذكور حالة ان زيادة المادة الحامضة كالحامض اللبنيك تفضي الى ولادة الاناث

ولا يزال العلماء الى يومنا هذا غير مجمعين على رأي واحد يفسرون به تعيين الشق في المواليد . ولكنهم يقرّرون أن الكروموسومات ومفرزات الغدد الصم المختلفة هي العوامل الرئيسية

ثم هناك تفسير آخر . فالاستاذ لي هاتنا يعتقد ان كل خلية تنشأ من تلقيح بيضة بنطفة ذكر تشتمل على خصائص الخنثى وان اضطراباً في الغدد واحوال البيئة التي تتكاثر فيها هذه الخلية ، قد تفضي الى تغلب الذكر على الانثى او الانثى على الذكر

ولهذا الرأي خطرهُ من ناحيتيه النظرية والعملية . اما الناحية العملية فيبدو خطرهُ في ان مربي الحيوانات يهمهم تكثير الابقار والدجاج دون الثيران والديوك . وقد حاول بعضهم ان يسيطر على شق الحيوان فاصاب قسطاً من النجاح . ففي مختبر علم الحيوان بجامعة انديانا تمكن الباحثون من زيادة نسبة النجاج الى الديوك من ٥٠ : ٥٠ الى ٢٢ : ٣٥ : ٧٨ : ٦٤ وذلك بحقن الثيلين في الفراغ الهوائي الذي في اعقاب البيض . ثم وردت انباء من موسكو بانهم تمكنوا من السيطرة على شق الارانب ولكن بطريقة أخرى . وذلك بفصل النطف الذكرية التي تدل كروموسوماتها انها تفضي الى ولادة الاناث . وهذا الفصل تمَّ بطريقة كهربائية . ثم لقّح بها بويضات تلقيحاً صناعيًّا . وكان عدد البويضات الملقّحة ٢٠٠ بيضة فكانت النتيجة ١٠٨ اناث . ولكن هذه التجربة وما تلاها لم تسفر عن شيء يصحُّ الاعتماد عليه مع ان كولستوف وهو الباحث الروسي الذي قام بهذه التجارب يزعم انهُ في الامكان تطبيقها على المواشي

***

واذ كان ايفانس وزوندك وردل وغيرهم يبحثون في خلاصة الفص الامامي من الغدة النخامية ، اتجه آيبل الى دراسة الفص الخلفي ، وكان قد نفذ الى حصنه اولاً في سنة ١٩١٧ وفي سنة ١٩٢٢ استخلص منهُ مادة ترفع ضغط الدم في العروق رفعاً سريعاً . ثم ظهر ان لها

وظائف اخرى . فهي تحدث قبض العضلات في رحم الحزير حتى ان جزءاً منها في ١٥ الف مليون جزء من الماء يحدث اقصى ما يمكن حدوثه من هذا الانقباض . فوائده البريرية عظيمة جداً في الطلق والولادة وفي منع النزف

ثم اقبل على البحث في خلاصة الفص الخلفي من الغدة النخامية طائفة من الباحثين . فاثبت اوليفر كام أن الخلاصة التي استخلصها آيل يمكن ان تفصل الى مادتين دعا الاولى « بترسين » Pitressin والثانية بيتوسين Pitocin فالاولى ترفع ضغط الدم . والثانية تحدث الانقباض . وقد استخلص حتى الآن ما لا يقل عن اثنتين وعشرين مادة مختلفة من الفص الخلفي من الغدة النخامية . ولكن آيل يأبى ان يصوغ لها اسماء لان مباحثه حملته على الاعتقاد بان هذا الفص يفرز مادة واحدة اصلية وان جزيء هذه المادة يتحلل وفي خلال انحلاله تتولد المواد المختلفة وكل منها له خواص فسيولوجية يتميز بها . هذا هو رأيه ولكن الباحث الجديدة لا تؤيده

ومن الذين بحثوا في الغدة النخامية رجل يدعى فيليب سمث وقد اثبت انه اذا نزعت النخامية من الجسم افضى نزعها الى ضمور الاعضاء التناسلية وضعف الغدة الدرقية واضطراب افراز الكظرين (الغدتين الواقعتين فوق الكليتين) . ثم وجد ايضاً ان هناك صلة بين الغدة النخامية واستهلاك السكر في الجسم . فقد تمكن مثلاً من احداث حالة البول السكري في جسم كلب بتغذيته بخلاصتها . ثم ان آخرين بينوا ان الحقن بخلاصة النخامية يهيج فعل الغدة الدرقية وان نزع الغدد التناسلية يحدث تغيراً في اطوار النخامية . فهذه الاوصاف العجيبة التي تتصف بها الغدة النخامية حملت العلماء على تسميتها « سيدة غدد الجسم » وذهبوا الى انها تسيطر على سائر الغدد وتقيم الميزان بينها

وقد ظهر ان للغدة النخامية اكثر من تور واحد . فارتد العلماء الى الغدد الاخرى يبحثون [illegible] تفرز غير تور واحد كذلك . فثبت ان الكظرين وهما الغدتان اللتان تستخلص منهما مادة الادرينالين يفرزان ايضاً توراً آخر اذا منع عن سيرو في الجسم أحدث المنع تائج خطيرة . في سنة ١٨٥٥ وصف الطبيب الانكليزي أدسن Addison حالات متعددة من مرض معين انتهت جميعها بالوفاة . وكان اهم اعراضه ضعفاً في الجهازين العضلي والعصبي والدورة الدموية . ولاح لأدسن من تشريح جثث الموتى ان هذا المرض مرتبط ببعض التصاقات في الكظرين . فلما نشأ علم المفرزات الداخلية حاول بعضهم ان يعالج هذا المرض بخلاصة الغدد فحضرت خلاصة من الكظرين ولكنها عجزت عن شفاء المرضى

وكان رجل يدعى هارتمان يدرس في جامعة بنسلفانيا الاميركية وكان قد عرف بالنبغ قبل اشتهاره ، فلما بلغه نبأ الاسوليين ، عمد الى البحث في علاقة الكظرين بهذا المرض المنسوب الى

أدسين الانكليزي ولكنهُ قصر بحثهُ على قشرة الكظرين Cortex لانه بدا لهُ ان القشرة دون سائر الغدتين لها صلة بهذا المرض . فاذا اخذ كية من كظور الابقار وفصل القشرة عن بقية الغدد واستخلص منها مادة فعّالة ، ازال منها كل اثر من آثار الادرينالين وحقن تحت الجلد في هررة نزعت كظورها فظلّت حية نشيطة ، تقبل على اللعب والاكل والتزاوج ، بل ان بعضها حمل

وفي شهر اكتوبر من سنة ١٩٣٧ اعلن هارتمان اكتشافهُ لمادة «الكورتين» (نسبة الى كورتكس اي القشرة) وهي خلاصة فعالة لتوّر قشرة الكظرين . واثبت ان نقص هذه المادة في الجسم يفضي الى مرض أدسين . فهل يفضي استعمال هذه المادة الى انقاذ المصابين به ؟ جربت التجربة الاولى في ٨ يوليو سنة ١٩٣٠ في شاب في الرابعة والعشرين من العمر فأطيلت حياتهُ قليلاً ولكن المرض كان قد تمكن منهُ فتوفي بعد ذلك . وسعى هارتمان وغيره من الباحثين الى الحصول على مادة «الكورتين» نقية من كل شائبة فلما جربت في المصابين بمرض ادسن كان تأثيرها عجيباً اذ انقذتهم من موت محتوم . وفي اوائل سنة ١٩٣٤ حضّر كندل (المشهور بتحضير التيروكسين : (راجع الكلام على الغدة الدرقية في هذه السلسلة) مادة الكورتين بلورات نقية كل النقاوة .

ومما استعمل لهُ الكورتين تصلّب الحدقة (غلوكوما) الذي يفضي الى العمى في الشيوخ وكان من أثر نجاح باحث في موضوع الانسولين ، ان عمد احد مساعديه ويدعى كولب Collip الى البحث في اربع غدد قائمة على جنب الغدة الدرقية (Parathyroid) وكانت قد اكتشفت في سنة ١٨٥٥ شكل كل منها كحبة الفاصوليا وحجمها حجم حبة الحمص وهي زوجان كل زوج منها على جانب الدرقية . الاّ ان وظيفتها كانت سرّاً مغلقاً . ولكن ظهر بعد البحث انها اذا اصيبت بمرض افضت اصابتها الى اصابة صاحبها بمرض يعرف باسم «تيتاني» واعراضهُ حركات عصبية في اليدين والقدمين والوجه والقصبة ، تفضي في الغالب الى الموت . ثم اثبت مكلم احد علماء جامعة جونز هبكنز ان نزع الغدد المجاورة للدرقية لا تفضي الى مرض «التيتاني» فقط بل الى نقص في مقدار الكلسيوم في الدم . وكذلك تمكن من تحسين حال المصابين بالتيتاني بجرع وافية من املاح الكلسيوم . ثم لاحظ كولب ان التنفس الثقيل اذا استمر افضى الى التيتاني فقرأ هولدين (J. B. S.) عن هذه المشاهدة وحاول ان يمتحنها فامتحنها بنفسهِ فأصيب بالتيتاني بعد تنفس ثقيل دام مدة طويلة ، ولكنهُ أثبت كذلك في تجاربه بنفسهِ انهُ اذا سبق هذا التنفس تناول مقدار من ملح كلوريد الاموتيوم لم يصب بسوء بعده

الاّ ان العلماء لم يكتفوا بمعالجة التيتاني باملاح الكلسيوم على طريقة مكلم بل عمدوا الى

استخلاص المادة الفعالة من الغدد المجاورة للدرقية المنتزعة من الماشية وكان اول من فعل ذلك طبيب عمارس في بلدة فريمونت بولاية نبراسكا الاميركية واستخرج إجازة رسمية بصنعها وبيعها ومنحها للمعهد الشعبوي . اي انهُ لم يربح من اكتشافه هذا مليماً واحداً

وكما ان املاح الكلسيوم استعملت اولاً في معالجة التيتاني ، فخلاصة الغدد المجاورة للدرقية تستعمل الآن في معالجة الاحداث المصابين باعراض ناشئة عن نقص الكلسيوم في دمهم

***

ثم هناك مبرٌّ غدة اخرى اخذ العلم الحديث يحيط التام عنهُ رويداً رويداً . ففي سنة ١٨٥٥ ظهرت رسالة موجزة في موضوع الغدة الكظية Thymus ولكن مؤلفها كان يجهل وظيفتها . وكان بعضهم يظن انها عضوٌ اثريٌّ لا عمل لهُ الآن . الاّ انها قد تضخم احياناً فتسدُّ قصبة الطفل فتموت اختناقاً . وهي جسم رخو ورديُّ اللون قائم فوق القلب يكون وزنهُ عند الولادة نحو ربع اوقية ثم يكبر حتى يبلغ وزنهُ عند البلوغ اوقية كاملة ثم يضمر رويداً رويداً فلا يبقى منهُ الاّ اثر يسير . وقد ظلَّ عمل هذا الجسم غامضاً حتى اخذ جودرناتش Goldernatsch قطعاً من الغدة الكظية وغذى بها الشرانيف (صغار الضفادع) فنمت نموّاً هائلاً من دون ان تتحوَّل الى ضفادع . وصنع « ردل » خلاصة من الكظية الثور وحقن بها حماماً مصاباً بضعف في غدته الكظية فبدت في هذا الحمام آثار عجيبة اذ جعل يبيض بيضاً سويًّا بعد ان كان يبيض صغار البيض فقط

وفي سنة ١٩٣٤ تمكن رونتري — وقد كان من اعوان بيل قبلاً — من صنع خلاصة هذه الغدة وغذى بها الجرذان فنفذ بتائج تبعث على الدهشة . ذلك ان الاجيال المتالية من الجرذان كانت تفوق بعضها بعضاً في سرعة نموّها وتبكير نشاطها الجنسي . فما كان الجيل الرابع والخامس برزت اسنان الجرذان بعد انقضاء ٢٤ ساعة على ولادتها والمدة التي تنقضي بين الولادة وبروز الاسنان في الجرذان السوية Normal ثمانية ايام . وتفتحت عيون الصغار في هذين الجيلين بعد انقضاء يومين وكان هذا لا يتمّ الاّ بعد انقضاء اربعة عشر يوماً . كذلك فطمها بعد ثلاثة ايام من ولادتها وبعد ثلاثة ايام اخرى استطاعت ان تسبح . كذلك أسرع نموّ غرائزها الجنسية فجيلها العاشر استطاع ان يخلف نسلاً بعد انقضاء ٤٣ يوماً على ولادته مع ان السويَّ منها لا يخلف نسلاً قبل انقضاء مدة على ولادته تتفاوت من ٨٠ يوماً الى اربعة اشهر ، فاذا اسرع نموّ الغرائز الجنسية في الصبيان والبنات بهذا المعدّل بلغوا سن النضج التناسلي في الثامنة الى العاشرة من العمر

ان الباب الجديد الذي يفتحهُ كشف هذا النور الكظي ، ولاسيما في تربية المواشي ، لباب سحريٌّ يجفل الانسان عندما يتأمل في ما قد يفضي اليه

والغدّة الأخيرة من هذه الغدد العجيبة التي أطلق عليها صوه العلم الحديث الغدّة الصنوبرية Pineal وهي مخفية بين ثنايا الدماغ ولكن بعد مناقلة لم يحن بينها وبين العلماء فقد صنعوا منها خلاصة مائية فثبت انها تؤثر في انتظار البراميسيوم فتزيد تكاثره سرعة. ولما حقنت بها الشراغيف زادت سرعة نموّها الى ضفادع . ثم جرّبها الدكتور غودود بالاطفال الذين تأخر نموّهم الجسماني والعقلي ولكن النتائج التي أسفرت عنها تجاربهُ لا تعدُّ حاسمة حتى الآن . ومن غريب ما يروى عن الفيلسوف ديكارت انهُ حسب الغدّة الصنوبرية مقرّ النفس ولكن العلماء لا يزالون في ريب من وظيفتها الحقيقية ولا يدرون هل تفرز ثوراً خاصًّا بها أو لا

***

لقد أثبت العلم ان الكظرين والغدد الدرقية والمجاورة للدرقية والحلوة والنخامية والتناسلية والكنفية والصنوبرية غدد صمّ اي انها تفرز مفرزاتها في الدم رأساً بلا قنوات خاصة . وقد أسفر البحث العلمي فيها خلال نصف قرن عن أثوار الافرين (الادرينالين) والثيروكسين والانسولين والتيلين والاندروستيرون والكورتين وغيرها مما لا يزال يحضّر في خلاصات مختلفة ولم يستفرد بعد او يحضّر نقيًّا في شكل بلورات

ان دراسة الغدد الصمّ فتحت الباب الى علمين جديدين لا يزالان في مهدهما وهما الطبّ القائم على مفرزات الغدد الصمّ والطب النفساني القائم على تأثير هذه المفرزات في حياة المرء الذهنية والعاطفية

فقد أقام ستوكارد الدليل على صلة وثيقة بين الغدد والشخصية ذلك ان الذهن والشعور في الانسان من أهم العوامل في خلق الانسان وشخصيته فعلى ذهنه يتوقف الرأي في هل هو أبله او ذكيٌّ او متوسط ، و الذكاء يتوقف على الدماغ الذي يرثهُ الانسان من أسلافه . ولكن نمو الدماغ يتوقف الى مدى بعيد على اثوار الغدد الصم . واهم من العقل في تكوين الشخصية اعمال الانسان ومداهُ وكيفهُ لاعمالهِ او استلامه لهُ . فنحن نحب من الرفاق من كان مرحاً لعوباً وقد نعرض عمن كان مقطباً يغلب فيه القتام على النور . والاعمال متصل اوثق الاتصال بالغرائز والغرائز تعتمد اعظم الاعتماد على مفرزات الغدد الصم في طبيعتها وقوتها (راجع مقال « الغدد والشخصية » في مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٢٦٥)

***

اما في علاج الامراض فالصفحات المتقدمة سلسلة متصلة الحلقات من الادلة على ان صحة الغدد اساس لصحة الجسد

من « تاريخ الاسلام السياسي »

السفاح

للدكتور حسن ابراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الآداب

بيعة السفاح

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ وقد أقام الخطبة في يوم الجمعة فخطب على المنبر قائماً وكان بنو أمية يخطبون قعوداً في الناس وقالوا: أحيت السنة يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد نوه في أولى خطبه بفضل آل محمد ، ونددّ بالامويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد آل النبي ، وألحى بالائمة على جند الشام ؛ وأطنب في مدح أهل الكوفة ، وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم ليبت العباس ، وختم خطبتهُ بقوله « انا السفاح المبّاح » ، مما يشعر في بادىء الرأي بأنهُ عوّل على سفك دماء كل من يقف في سبيله وفي سبيل دولته

يقول المسعودي[1] عن أبي العباس السفاح أنهُ كان جميلاً وسيماً ، ويقول صاحب الفخري أنهُ « كان كريماً حليماً وقوراً ، عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الاخلاق » . وهذا يخالف ما يتبادر إلى الذهن من ان اسم السفاح مرتبط بسفك الدماء ، لافراطه في التنكيل ببني أمية

وقد ناقش الاستاذ نيكلسن[2] لفظ السفاح في كتابه « تاريخ العرب الادبي » فقال : « لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح سماهُ الرجل الكثير العطايا أو المبّاح . ومع كل فانهُ مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال إن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الاولى سمي السفاح لانهُ أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة . والذي أميل اليهِ أنهُ إنما سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له : فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح »

ونحن نميل الى الاخذ بأن لفظ السفاح انما اطلق وشاع عن أبي العباس بعد هذه الخطبة

(١) ج ٢ ص ٢١٠ (٢) Literary History of the Arabs. p. 253.

لما قام به من سفك دماء الامويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المتاح أن يتوعد أهل الكوفة لما اظهروه في ماضي أيامهم من تغير في الاهواء والميول وغيرهم من اعدائه ولا سيما الامويين الذين عوّل على التنكيل بهم لما اقترفوه من آثام وذنوب ، وتبشيره من يقوم بنصرته باغداق العطايا والاموال عليهم

ولما تمت له البيعة تحول السفاح إلى الأنبار غربي نهر الفرات ، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، وقد أسسها سابق بن هرمز احد ملوك الفرس فجاء السفاح فجددها وأقام بها القصور ثم بنى المنصور في جوارها قصراً فاتخذه دار ملكه ، فسميت هذه المدينة الهاشمية نسبة الى هاشم جد هذه الاسرة

وقد قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني امية وقضى على أعقاب الامويين حتى انهُ لم يفلت منهم أحد الا عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الاموية ببلاد الاندلس ، كذلك وجه السفاح همته الى الفتك بمن والوهُ وساعدوه على تأسيس دولته فقتل أبا سلمة الخلال وأعقبهُ بسليمان بن كثير الذي أوصى ابرهيم الامام أبا مسلم به خيراً وهمَّ بقتل أبي مسلم لولا أن عاجلته منيته

محاربة قواد الامويين

أقام ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد بواسط ، فأرسل اليه أبو سلمة ، الجيوش فحاصرته هناك ، ولما طال الأمر أرسل السفاح أخاه أبا جعفر فحاصره أحد عشر شهراً بلغه في نهايتها خبر مقتل مروان بن محمد فرأى التسليم وفاوض ابا جعفر في الصلح ، وانتهى الأمر باعطائه الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتاباً يحمل امضاء الخليفة العباسي ، ولكن هذه الدولة قد قامت على المكر والحيلة ، فانهُ لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة وهذا أول غدر في الدولة العباسية ، وقد أخذ على عبد الملك بن مروان عدم وفائه لعمرو بن سعيد بعد ان ولاه عهده لان هذا مناف لأخلاق العرب ، فجاء أول خلفاء بني العباس ، واستهل خلافته بوضع هذه القاعدة التي سار عليها الخلفاء من بعده

القضاء على أعقاب الامويين

ولقد تتبع السفاح البقية الباقية من بني أمية وأنصارهم ولم يُبقِ عليهم . ويخيل الينا أنهُ انما لجأ الى هذه السياسة لما كان من عداء العباسيين لبني أمية منذ أيام الجاهلية . والعداء بين بني أمية وبني هاشم باقي الأثر لم يزده الاسلام الا تفاقماً وازدياداً . يضاف الى ذلك ما كان من

تأثير الشعراء ورجال البلاط في اذكاء نيران هذا العداء . وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان

يقول المسعودي [١] : ولما أُتي العباسُ برأس مروان ووُضع بين يديه سجد فأطال ثم رفع رأسهُ فقال : الحمد لله الذي لم يُبق ثأري قِبَلك وقِبَلَ رهطك ؟ الحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك ! ثم قال : ما أبالي متى طرقني الموت ، قد قتلت بالحسين وبني أبيه من بني أمية مائتين ، وأحرقت بيتين [٢] هشام بن عمي زيد بن علي ، وقتلت مروان بأخي ابراهيم ومثل :

لو يشربون دمي لم يروا شاوِبَهم ولا دماؤهم الغيظ تَرْوِيني

ثم حول وجههُ الى القبلة فأطال السجود ثم جلس وقد أسفر وجههُ ومثل بقول العباس ابن عبد المطلب من أبيات لهُ :

أبى قومُنا أن يُنصفونا فأنصفت قواطع في أيدينا تقطر الدما
تُوورِثْنَ من أشياخ صدقٍ تقرَّبوا بهنَّ الى يوم الوغى نتقدما
إذا خالطت هامَ الرجال تركنها كبَيْض لمام في الوغى متحطما

كان السفاح جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي . وقد أكرمهُ السفاح ، فدخل عليه سَدِيف الشاعر فأنشده :

لا يغرنَّك ما ترى من رجالٍ ان تحت الضلوع داء دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أُمويّا

فالتفت سليمان وقال : قتلتني يا شيخ . ودخل السفاح وأُخذ سليمان فقتل . ودخل عليه شاعر آخر وقد قُدم الطعام وعند السفاح نحو السبعين رجلاً من بني أمية ، فأنشده الشاعر :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفَوْها بعد ميل من الزمان وياس
لا تُقيلَنَّ عبد شمس عثاراً واقطعن كل رقلةٍ [٣] وغراس [٤]
ذُلِّلَتْ أظهر الثمود منها وبها منكم كنز المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي قربهم من بمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المهراس [٥]
والقتيلَ الذي بحرانَ [٦] أضحى ثاوياً بين غُربة وتناسي

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢١٣ (٢) مفرد أشلاء وهي البقايا (٣) الرقل جمع رقلة وهي النخلة فائت اليد (٤) نسيل النخل . والغراس التي تقطع من الام أو تقلع من الارض فتغرس (٥) ماء بجبل أحد ، قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن (٦) هو ابرهيم الامام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

أجل ! لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضي وما جرّه الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة ابرهيم الامام عالقة بيان الخليفة العباسي . فاذا كان من امر هؤلاء الامويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التي اعادها الى السفاح شعراء دولته ؟ امر السفاح بسليمان بن هشام فقُتل ، ثم امر بمن كان في داره من امية فضُربوا بالسياط وبُسط النطوع [1] عليهم وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً

ولقد بالغ العباسيون في النكيل ببني امية فعولوا على استئصال شأفتهم ، فتتبّعهم اخوه وأعمامه في البصرة والكوفة والشام ، ونبشوا قبر معاوية بن ابي سفيان ، فلم يجدوا فيه الا خيطاً مثل الهباء ، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حُطاماً كأنه الرماد . ولما قتل ابو العباس رجال بني امية ، واستصفى اموالهم قال :

بني أُمية قد افنيتُ جمعكم ... فكيف لي منكم بالأوّل الماضي
يُطيّبُ النفسَ ان النار تجمعكم ... عُوّضتموا من لظاها نَزْرَ مُنْتاض
مُنيتموا لا أنالَ اللهُ عشرتكم ... بليثِ غابٍ الى الأعداء نهّاض
ان كان غيّظي لفَوْتٍ منكمو فلقد ... رَضيتُ منكم بما ربي به راضي [2]

ولم يقف العباسيون عند النكيل بالموتى . فقد قتلوا الأحياء واستصفوا اموالهم . فليس من عجب اذا انصرف العرب عن العباسيين ودبّ في نفوسهم دبيب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم نيابةً العباسيين لهم ، واعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات في البلاد الاسلامية

قتل أعوانه

وان في قتل ابي سلمة الخلال وزير السفاح الذي كان من اهم العوامل التي ساعدت على تأسيس الدولة العباسية لمثلاً حيّاً على ما قضت به سياسة هذا الخليفة بالخلاص ممن ساعدوه وناصروه اذ رأى في وجودهم خطراً يهدد كيان دولته الناشئة . وقد يكون من الحسن ان نأتي هنا بترجمة ابي سلمة لنقف على حقيقة الأسباب التي ادت الى اغتياله للتخلص منه لما اتهم به من العمل على تحويل الخلافة الى العلويين

كان حفص بن سليمان ، ويكنى ابا سلمة الخلال ، مولى لبني الحارث بن كعب ، وكان من اهل اليسار في الكوفة ، اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان فصيحاً عالماً بالاشعار والسير والجدل والتفسير . وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بُكَيْر بن ماهان كاتب ابرهيم الامام . فلما حانت وفاة بُكير اوصى الامام بان يعهد الى ابي سلمة بالقيام بامر

(١) النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك بساط من الاديم (المجلد) (٢) النخري ص ١٣٥

الدعوة مكانه ، فكتب اليه الامام بذلك ، فأخلص ابو سلمة للدعوة العباسية وبذل جهده في القيام بنصرتها . ولقد اتفق المؤرخون على انهُ لما سبر احوال بني العباس عزم على العدول عنهم الى اولاد علي بن ابي طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته في نقل الخلافة الى العلويين ارسل مع رجل من شيعة العلويين كتاباً وامره ان يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ، فان اجاب ابطل الكتابين الآخرين وان لم يجب لقي عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، فان اجاب ابطل كتاب عمر الاشرف بن علي زين العابدين ، وان لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول الى جعفر الصادق ودفع اليه كتاب ابي سلمة فلم يُتم لهُ وزناً ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين بحيث قال « مالي ولابي سلمة وهو شيعة لغيري ؟ » ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق . فسأله الرسول عن رد كتاب ابي سلمة فقال لهُ : قد رأيتَ الجواب ! مضى الرسول بعد ذلك الى عبد الله المحض فسُرَّ بالكتاب وركب غداة هذا اليوم الى جعفر الصادق وقال لهُ :

« هذا كتاب ابي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من اهل خراسان » فقال لهُ جعفر الصادق كلاماً يؤيد ما ذهبنا اليه من ان الفرس او الكثيرين منهم على الأقل لم يكونوا في ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة : « ومتى صار اهل خراسان شيعتك ؟ أأنت وجهتَ إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ! وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم في ذلك الزمان وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منهُ ، بل شك في نصحه ، بل ، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذي جاء صاحبه به وأما عمر بن علي زين العابدين فلم يكن منهُ الا ان رد الكتاب وقال : « أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه » ، ومن هذا كله نرى ان العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الانصار ما يبدو لهم سبيل الوصول الى الخلافة ، فلم يروا بدًّا من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الاحوال فيتشقون الحسام ويقومون بطلبها ، ومن هذا لا نعجب اذا قتَّ رفض هؤلاء العلويين في عقد أبي سلمة وأدى الى قتله على يد السفاح بعد ان وقف على ما دبره لهُ ولأسرته

ويحكي لنا التاريخ ان السفاح لما بويع بالخلافة استوزر أبا سلمة على كره منهُ لمكانته من الخراسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبهُ وزير آل محمد الا ان هذا كلهُ لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، اذ خاف على نفسه ان هو قتله قام أهل خراسان يثأرون لهُ ، فعمل على ان يتم هذا الامر على يد أبي مسلم وكتب اليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه ان ابا سلمة يعمل على تحويل الخلافة الى العلويين وعهد لهُ بمهاجمته ، وباطن الكتاب يشعر بتصويب

فتهدد ، فأرسل ابو مسلم رجالاً من اهل خراسان ففتكوا بخالد وتخلص منهُ السفاح وابو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليهِ مقامهُ ، وبذلك هيأ ابو مسلم سبيل فتكه بنفسه ، فقد عوَّل السفاح على التخلص منهُ اذ كان شجىً في جسم دولته الاَّ ان منيته حالت دون ذلك حيث مات سنة ١٣٦ بعد ان قضى في الخلافة اربع سنين وستة اشهر

اقوال السفاح وصفاته

قال الطبري [١] : كان السفاح جعد الشعر طويلاً ابيض أقنى الانف حسن الوجه واللحية

وقال المسعودي [٢] : ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل ابي العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول : انما العجب ممن يترك ان يزداد علماً ويختار ان يزداد جهلاً . فقال لهُ ابو بكر الهُذَلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل الى امرأة او جارية فلا يزال يسمع سَخَفاً ويروي تَفْصاً . فقال له الهُذَلي : لذلك فضَّلكم الله على العالمين وجعل منكم خاتَمَ النَّبيين

كان السفاح يشجع الادب والفناء ؟ وكان يُجزل العطاء على الشعراء والمغنين . فقد دخل عليهِ ابو جبلة الشاعر فسلم عليه . وقال عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، افتأذن لي في إنشادك . فقال له السفاح لعنك الله ؟ ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بن مروان

أُمُسْلِمُ اني يا ابن كل خليفة ... ويا فارسَ الهيجا ويا جَبَلَ الارض
شكرتك ان الشكر حَبلٌ من التقى ... وما كلُّ من اوليتَه نِعْمةً يَقْضي
واحْيَيتَ لي ذكري وما كان خاملاً ... ولكنَّ بعضَ الذكر أنبه من بعض

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول

لما رأينا استمسكت يداكا ... كنا أُناساً نَرْهَب الملاكا
ونَرْكَبُ الاعْجاز والاوراكا ... من كل شيء ما خلا الانراكا
فكلما قد قلتُ في سواه ... زورٌ وقد كفر هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ... ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا ... فكنت انت الرجاء ذاكا

فرضي السفاح عنه واجزل له العطاء

---

(١) ج ٩ ص ١٥٤ (٢) ج ٢ ص ٢١٧

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ويصيح بالمطرب له من المغنين : احسنت والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه احد من ندمائه ولا مطربيه الا بصلة من مال او كسوة ويقول : لا يكون سرورنا معجلاً ، ومكافأته من سرنا واطربنا مؤجلاً . على انه سرعان ما احتجب السفاح عن ندمائه

وكان السفاح اذا احضر طعامه انبسط ما يكون وجهاً فكان ابراهيم بن مخرمة الكندي اذا أراد ان يسأله حاجة أخّرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله . فقال له السفاح يوماً :

يا ابراهيم ! ما دعاك الى ان تشغلني عن طعامي بحوائجك ؟ قال يدعوني الى ذلك التماس النجح لما اسأل . قال ابو العباس : إنك لحقيق بالتؤدد لحسن هذه الفطنة

ويحدثنا المسعودي [1] في كتابه مروج الذهب عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فمات فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الاموي فمات فبينا هي ذات يوم ، اذ مر بها ابو العباس السفاح ، وكان جميلاً وسيماً فسألت عنه وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه ان يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولي له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك — وكانت تملك كثيراً من المال والحشم والجوهر ، فأتته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : انا مملق لا مال عندي ، فدفعت اليه المال ، وأقبل الى اخيها وطلب اليه ان يزوجه منها ، فزوجه اياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار وزفت اليه في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمراً الا بمشورتها حتى أفضت الخلافة اليه

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا به خالد بن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين ! إني فكّرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة . فان مرضت مرضت ، وان غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجواري ومعرفة اخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهي منهن فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الصيداء ، وان منهن الفضة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء تفنن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الاطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ كلامه ، قال له ابو العباس : ويحك يا خالد ، ما صك مسامعي والله كلام احسن مما سمعته منك . فأعد عليّ كلامك ، فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ثم انصرف وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً ، قالت إني لانكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر فارقت

(١) ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧

لهُ ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل يغزوني عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله يتصحني وتشتمه ، وخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت الى خالد من الجارية وأمرتهم ألا يتركوا منهُ عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت الى منزلي وأنا على السرور بما وهبت من أمير المؤمنين واعجابه بما ألقيته اليه ، ولم أشك ان صلته ستأتيني ، فلم ألبث حتى سار إليَّ أولئك الجارية وأنا قاعد على باب داري ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي ، ثبتت بالجائزة واصلة حتى وقفوا عليَّ ، وسألوا عني ، فقلت هأنذا خالد ، فسبق إليَّ احدهم بهراوة كانت معهُ ، فلما أهوى بها عليَّ وثبت ، فدخلت منزلي وأغلقت الباب عليَّ واستترت ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ووقع في خلدي اني أوتيت من قبل أم سلمة وطلبني السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم الا بقوم هجموا عليَّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت ، فركبت وليس عليَّ لحم ولا دم فلما وصلت الى الدار اومأ اليَّ بالجلوس ، ونظرت فاذا خلف ظهري باب عليهِ ستور قد ارخيت ، وحركة خلفها ، فقال : يا خالد ألم أرك منذ ثلاث ؟ قلت كنت عليلاً يا أمير المؤمنين . قال : ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منهُ ، فأعده عليَّ . قلت : نعم يا امير المؤمنين . أعلمت أن العرب اشتقت اسم العشرة من العشر ، وأن احدهم ما تزوج من النساء اكثر من واحدة الا كان في جهد فقال . ويحك لم يكن هذا في الحديث . قلت : بلى والله يا امير المؤمنين ، واخبرتك ان الثلاثة من النساء كأنهن الفدر يغلى عليهن . قال أبو العباس برثت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت سمعتُ هذا منك في حديثك قال وأخبرتك ان الاربعة من النساء نعم صحيح لصاحبهن ، يشينهُ ويهرمنهُ ويسقمنهُ . قال ويلك ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت

قال خالد : بلى والله . قال : ويلك وتكذبني . قال وتريد ان تقتلني يا أمير المؤمنين ؟ قال لم في حديثك . قال : وأخبرتك ان أبكار الجواري رجال ، ولكن لا يخصيَّ ظنّ ، قال خالد ، فسمعت الضحك من وراء الستر ، قلت . نعم وأخبرتك ايضاً ان بني مخزوم ريحانة قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين وأنت تطبح بعينك الى حرائر النساء وغيرها من الاماء . قال خالد : فقيل لي من وراء الستر : صدقت والله يا عماه وبررت بهذا ما حدثت امير المؤمنين ، ولكنه بذَّ وغير ، ولطق عن لسانك فقال له ابو العباس مالك قاتلك الله واخزاك ، وفعل بك وفعل فتركته وخرجت وقد ايقنت بالحياة . قال خالد فما شعرت الا برسل ام سلمة قد صاروا اليَّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت ويرذون وغلام

قطرات ندى

لرامي الراعي

قيل لي : أنت بين سمّ الأفعى ووثبة الأسد فأيّ الموتين تؤثر ؟ فقلت لهم : هاتوا لي براثن الاسد فان فيها الرجولة والصراحة لا غدر الرقطاء الكامن في نابها الحقير

جمعت بين الكتاب والطفل في سرير واحد وجئت بالنفس اسألها أيهما تؤثر فأجابت لساعتها مشيرة الى الكتاب : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، اما الطفل فهو ربية القلب الطائش ، هو قطرة دم كثيفة علقت بسهم حاد من سهام «كوبيد» في احدى سكراته ، هو ثمرة الشهوة الزائلة واثر من آثار الجنون

خيّل اليّ ذات مساء ان قريحتي نضبت فهرولت الى الخيل وسجدت امامه قائلاً : انا من ابنائك المعجبين بك ، وهذه قريحتي بين يديك اظنها كبت فأقلها من عثرتها . . فالتفت الخيل الى عقبانه وبنانيه وامرها ان ترافق روحي ثم نظر اليّ نظرة الاب الرحيم وقال : امشي في طريقك ولا تخف فجنودي حرّاسك وعظمتي وغزارتي تحفران لك حيثما حللت فشكرت للخيل وعدت الى القلم والقرطاس فرحاً قرير العين غير خائف من الغد ومن النضوب...

كأني بغصن هذه الشجرة يمتد فوق رأسي ليقف بيني وبين الشمس اللاذعة فلله ما اكرم هذا الغصن ! ما اشد جرأته واوفر مروءته !!..

هذه الشجرة صورة أخذت عني فهذه هي الجذور التي تأبت وكوّنتني في

بذورها . . . وهذه هي قوتي في جذعها . . وهذه هي مواليدي في أغصانها . . وهذا هو أملي في اخضرارها . . . وهذا هو يأسي في ذبولها . . . وهذه هي مطامعي في ثمرها . . . وهذه هي أعصابي في أليافها . . . وهذا هو هديري في أعاصيرها . . . هذه حياتي في مائها . . وهذا موتي في قاسها . . . نعم نعم انا هي وهي انا فاذا شئت ان ترسمني فارسمني في ظلها واذا شئت ان تميتني فالق عليّ حفنة من ترابها . .

هل انا جنّة ربوتها القلب ونهرها دمي ، ام انا ما تقول : جسد عبد يخضع لروح قاهر . .

انزع هذه الغيوم البالية من الافق لانزع مني كآبتي ودموعها . .

الفلسفة جبل طويل يتجاذبهُ الكفر والايمان . .

هذه الشمس التي يحجبها وشاح واحد من ارشحة الليل وظلّه واحد من ظلال الشجرة ليست بالحيارة التي تخيلها . .

في نفسي آلهة وشياطين — في نفسي ابراج بابلية وصراع مستديم — في نفسي الجمال كل الجمال والقبح كل القبح يتنازعان السيادة في وجهي فلا تنظر اليّ فترى أثراً من السماء حتى ترى لساناً مندلعاً من افواه الجحيم . .

لا اريد ان اقيس هذه المسافات والابعاد المعروفة ، وانما أريد أن اعرف أين ينتهي عقلي وأين يبدأ جنوني . . أريد ان أقيس المسافة الروحية الفاصلة بين عربدتي ووقاري

بيروت

رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

﴿ الوضع الطبغرافي ﴾ يتألف القطر اليماني من ثلاثة أقسام : الاول المنخفض ذو الحراري والسباسب المنبسطة والاقليم الحار والهواء الرطب ويدعى « تهامة » ويجمع على تهائم ،والثاني المرتفع ذو الاطواد والهضاب الشاهقة والاقليم البارد والهواء الجيد ويدعى «قسم النجود» او «قسم الجبال » وهي تمتد جبال السرا ، والثالث المنخفض ايضاً شرقي قسم الجبال،وهو ذو حرار وسباسب كانت في عهد ملوك سبأ عامرة غناء فاصبحت بعدهم غامرة قفراء : ويدعى هذا القسم « الجوف » وهو بمثابة تهامة في الغرب ، واقليمه حار لكن هواءه جاف وجيد

﴿ وصف تهامة ﴾ تهامة بربة عظيمة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال الى الجنوب من جدة على ساحل البحر الاحمر الى عدن في ساحل المحيط الهندي ، على طول يقدر بالفي كيلو متر ، وهي تنحصر بين قسم الجبال والبحرين المذكورين على عرض يتفاوت بين ٦٠ و١٢٠ كيلو متراً وهي تنقسم الى تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن . وتهامة اليمن اما غربية وهي التي على البحر الاحمر واما جنوبية وهي التي على المحيط الهندي . وحديثنا عن الاخيرتين في الاكثر

كانت تهامة في الاصل قعراً للبحر الذي انحسر عنها في الطور الجيولوجي الاخير. يستدل على ذلك بطبيعة ارضها ووفرة رمالها وكثرة الاحافير والاصداف البحرية التي تظهر في تربتها السفلى . ولا يزال انحسار البحر الاحمر وارتفاع سواحله متوالياً على كر الدهور . فالرمال ما برحت تطمر مرافئه وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف الا على بعد شاسع . حدث هذا الطمر قبل اربعة او خمسة قرون في مرفأ غلافقة وقد كانت كما قال ياقوت في معجم البلدان مرسى زبيد ، وكانت زبيد خاصة تهامة واكبر مدنها فيما مضى ، فلما اندثرت غلافقة انحط شأن زبيد . وحدث الطمر ايضاً الى حدٍّ كبير في ميناء مخا ، فكان ذلك من دواعي انحطاطها وانتقال عمرانها الى الحديدة الحديثة العهد . ويحدث هذا الطمر والاندثار الآن في اللحية وامثالها من الموانئ الصغيرة فيتجدد غيرها على توالي العصور وهكذا دواليك

وبسيط تهامة يتموج تموجاً خفيفاً ويحدث قلمات متواضعة وتعترضه اودية حصيّة منحدرة

من انحاء الجبال ، اكثرها جاف في اغلب ايام السنة وبعضها حار ، وتعترضه ايضاً كثبان رمال ترداد في بعض الاماكن وتمتد الى مسافات شاسعة وتتحرك سطوحها بفعل الرياح كما هو الحال بين الحديدة وباجل وحيس وميناء غلافقة المندثر . وفي بعض شطوط تهامة مرتفعات صخرية تؤلف آكاماً تظهر في سواحل الشيخ سعيد ولاسيما حول مرفأ عدن

ومعظم بسيط تهامة قابل للحرث والزرع وذو خصب يقوى في بعض الاماكن لاسيما اذا جادها الامطار وفاضت الاودية المنحدرة من الجبال بالسيول وسقى الزراع جفوفهم منها — حيث تنمو الزرع والغرس نمواً عظيماً وتغزر محاصيل الدخن والذرة والسمسم والتبغ والنيلة والقطن والبطيخ ، والاشجار المثمرة وهي النخيل والموز والعنبا والليمون وغيرها . وفي تهامة نباتات وأعشاب برية شائكة وغير شائكة تنتسب الى فصائل مختلفة منها العسل الذي يعملون منهُ فخاراً والبكار والايام اللذان يستعملان في بناء العشش والاكواخ . وفيها من الاشجار غير المثمرة السمر والسلم والدوم والعشر والنشوى والخروع الهندي وغيرها . وتؤلف هذه الاشجار في بعض اماكن تهامة ادغالاً مكثفة كان يعتصم بها ثوار القبائل في حروبهم مع الدولة العثمانية

قال ياقوت : وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم اه . لاجرم ان تهامة شديدة الحرارة تتفاوت درجتها في الحديدة في الصيف بين ٣٠ـ٣٥ ليلاً و ٤٠ نهاراً ولا تقل في الشتاء عن ٢٤ـ٢٥ وانها شديدة الرطوبة تبلغ احياناً درجة الازهاق (٨٠ — ٩٠) وذلك لقربها من خط الاستواء ومجاورتها البحر . لهذا لا يمكن سفر القوافل وانشاء والركبان في تهامة الا ليلاً خوفاً من الرعن ولا يمكن النوم في ليالي الصيف الا على السطوح وفي العراء . وتهب فيها احياناً ريح السموم فتسفي الرمال وتحدث أعاصير ، ولا يلطف الحر الا هبوب الريح الجبلي الشرقي او البحري الغربي

واهل تهامة شافعية المذهب ، نحاف الابدان ، ربعات القامة او اطول ، سمر الوجوه لحر بلادهم ولاختلاطهم بالدم الصومالي او الحبشي من قديم الزمان . وهم في الجملة أدمث خلقاً وألين جانباً وأرفد للغريب وأقرى للضيف من اهل الجبال . لكن الامية اكثر انتشاراً في اهل تهامة منها في اهل الجبال ، وكذلك الشقاق والتناحر . ويعزى ذلك الى ان الشافعية ليسوا كالزيدية ذوي ائمة وسادة يعنون بشؤونهم الروحية والزمنية الى حدٍّ ما . والفرقة بين الشافعية والزيدية ما برحت ملحوظة . وهذه الفرقة سياسية وادارية اكثر منها مذهبية ، لو عني بشأنها زالت

وسكان السواحل في تهامة يعملون في البحر بالنوتية وصيد الاسماك وبناء الزوارق وبعضهم بالغوص واستخراج الصدف واللؤلؤ ، ولهذه الحرفة تجارة رابحة ، ويعمل اهل الحديدة وعدن بتجارة الصادر والوارد من اليمن واليه . وسكان السهول والقرى الداخلية يعملون في تربية الزرع والضرع ، ويعمل امثال اهل زيد وبيت الفقيه بالصبغ والنسج مما سوف نذكره

وفي تهامة قبائل شتى أشهرها الصيحة والزرائيق والقحرى وبني صليل والعبسية والجرابحة

وبنو مروان ودوغان وبنو قيس وغيرهم . وليست هذه القبائل رحالة بل مستقرة في قراها وضمن حدودها ، تعمل في الزرع والضرع ، وتسكن بيوتاً من الاعشاش . والزرانيق أشد هذه القبائل بأساً وخبثاً وأطولها يداً في قطع طريق البر وقرصنة البحر وفي تهريب السلاح والرقيق قبل منعهما . مواطنهم حول بلدة بيت الفقيه بين الحديدة وزبيد ، حاربوا الترك الثمانيين مراراً ولم يزالوا مشاقين لهم لما في مواطنهم من الحر الشديد والادغال الملتفة التي يختبأون بينها . وأرادوا ان يعيدوا الكرة هذه مع جلالة الامام الحالي بقيادة بعض الدسائس الاجنبية فساق عليهم جيشاً قبل بضع سنوات ، قمع فتنتهم وأمكث ثأمتهم . والقحرى ايضاً من القبائل القوية تسكن بين وادي سردود ووادي باجل ، لكنها ليست من الشر في ما يعامل الزرانيق

وكانت تهامة في اكثر عصور تاريخ اليمن ولاسيما في العصور الاسلامية منفصلة عن قسم الجبال . قامت فيها دول عديدة مستقلة ، كدولة بني زياد وبني نجاح وبني الصليحي وبني ايوب وبني الرسول وبني طاهر ، وسيأتي ذكر ذلك في بحث التاريخ . ويظهر ان هذه — الدول ما استطابت النشأة والمقام في تهامة رغم حرها ووباء هوائها الا لكثرة محاصيلها ووفرة ربح المسكوس التي كانت تقتضيها من قوافل البر وسفن البحر الواردة من الهند وافريقية الشرقية ومصر والحجاز والشام . فكانت تهامة مركز التوزيع بين هذه الاقطار قبل فتح قناة السويس ، وكانت ميناء عدن ومخا مركز التصدير والتوريد . الا ان الدول المذكورة لم تكن لتقنع بتهامة ، بل كانت كلما اشتد ساعدها ورأت ضعف ائمة الزيدية بسطت ايديها نحو الجبال فملكتها مدة ، ثم أخلتها اذا عجزت عن حفظها . وهكذا كان شأن أئمة الزيدية ، كلما قووا ورأوا خلو التهائم من الحفظة استولوا عليها ، واذا ضعفوا اضاعوها وحكمها كبراؤها . وظل هذا الاخذ والرد حتى تم جمع المنطقتين نهائياً في عهد الترك الاخير سنة ١٢٨٩ هـ وفي عهد جلالة الامام الحالي سنة ١٣٤٣ بعد ان نازعه عليها الادارسة الذين كانوا اصحاب عسير

وثمة في سواحل تهامة على البحر الاحمر عدة جزر بعضها صغير غير مأهول لا يزوره الا الصيادون والغواصون . ولكن أكبرها حجماً وأجلها قدراً قران وبريم . فقران في شمالي الحديدة ، كان الترك انشأوا فيها قبل نصف قرن محجراً صحياً فحفلت بالسكان منذ ذلك الحين ، ثم احتلها الانكليز غضب الحرب العامة . وبريم وتدعى ايضاً ميون في مضيق باب المندب ، لها مرفأ عميق صالح للبواخر . ورغم حرمان هذه الجزيرة الصغيرة القاحلة من اي اثر للماء و الخضرة فقد أوجد فيها الانكليز منذ ان احتلوها في الربع الاخير من القرن الماضي الماء المقطر وكل ما تحتاج اليه البواخر الداخلة والخارجة من البحر الاحمر من فحم ومؤونة . وتجاه هذه الجزيرة في ساحل اليمن موقع غير مأهول له امكانة عسكرية كبرى يدعى الشيخ سعيد فيه الحكومة اليمنية مخفر للجنود ومركز للبرق

وفي ساحل تهامة وداخلها مدن وقرى عديدة . منها في الساحل بيدي واللحية والصليف

ولبن عباس والحديدة والطائف وغلافقة والخوخة ومخا وعدن . وفي الداخل عبال وباجل والزيدية والقطيع والدريهمي والمتيرة والزهرة والضحي والمراوعة وحيس وبيت الفقيه وزبيد ، وفي تهامة الجنوبية وراء عدن الشيخ عثمان والحوطة والراحة وبير احمد والحسوة وغيرها

واكبر مدن تهامة وأشهر موانيها على البحر الأحمر في عهدنا (الحديدة) . ويظهر من عدم ذكرها في كتب جغرافيي العرب انها لم تكن لمضي ثلاثة قرون او أربعة سوى قرية حقيرة يقطنها الصيادون . الا انهُ بعد ان طمرت الرمال ميناءي مخا وغلافقة ولعذر على السفن ان ترفأ اليها سعدت الحديدة بالعمران . وهي الآن مدينة كبيرة يقدر عدد سكانها بثلاثين الفاً ، جميعهم عرب شافعية المذهب ، بينهم خلاسيون أمهاتهم من رقيق الحبش او الصومال وفيها قليل من الهنود البانيان واليهود ومن اليونان والطليان المشتغلين بالتجارة . والحديدة محاطة بسور بني سنة ١٢١٥ هـ لهُ خمسة ابواب وعدة ابراج ، وفي داخل السور دور حجرية جميلة بيضاء وبعضها ذو طبقتين وثلاث وثمة عدة أسواق تمس بحوانيت الباعة والتجار وستودعاتهم . وفيها حركة بيع وشراء واصدار واستيراد ، كانت أقوى من الآن كثيراً في عهد الترك . وفيها عدة مبان حكومية ومساجد ، غير ان ساحلها مكشوف ومعرض للانواء ، تلجأ السفن عند اشتدادها الى خليج الحيامة في جنوبها . وحر الحديدة شديد ووبيء تزداد وطأته بحكم شدة الرطوبة ايضاً وفي خارج سورها احياء ودور كثيرة كلها عشش وأكواخ . وليس في الحديدة الا قليل من البساتين لفقدان المياه الجارية والملوحة التربة ، ولذا تأتيها البقول والثمار من القرى والجبال القريبة منها . وماء الشرب يجلب اليها من آبار تبعد نحو أقل من ساعة ينقل في براميل محمولة على عجلات تجرها الجمال . وفي شمالي الحديدة على بعد ٢٤ ساعة عنها (اللحية) ، وهي بليدة وفرضة على البحر محاطة بسور وفيها ثلاثة مساجد ، وفي خارج سورها حصن ، ويجلب اليها ماء الشرب من آبار تبعد ساعتين او ثلاث . و (الزيدية) بليدة تبعد عن الحديدة ١٢ ساعة بيوتها عرائش ، ينسج فيها حصر من ورق شجر الدوم يشبه النخل . و «باجل» بليدة تهامية على طريق صنعاء تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة . وفي جنوبي الحديدة بليدة (المراوعة) ذات مساجد وحوانيت ومصانع لنسج الفوط والبزوز المتنوعة ومعاصر لعصر السمسم ويسمون زيته في اليمن سليطاً ويزرع حولها النيلة والقطن والبطيخ . و (بيت الفقيه) في جنوبي الحديدة وعلى بعد اثني عشرة ساعة . وهي مبنية على تل مرتفع ، وهواؤها وماؤها أجود ما في مدن تهامة ، ودورها من الاجر ومن العريش ، وفيها حوانيت كثيرة وخمسة مساجد ، أحدها جامع كبير ، وفيها حصن ، وقد اشتهرت بمنسوجاتها الجيدة المتينة المنسوجة من الحرير والقطن ، وعدد سكانها خمسة عشر الفاً ، وحولها نخيل كثير . وفي جنوبي بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات تقع مدينة (زبيد) بنيت في فم وادي زبيد ووسط سهل خصب كثير النخيل ، وأحيطت بسور

مربع الشكل شيد من الاجر ، وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وفي داخلها قلعة بني فيها دار للحكومة وجامع باسم بانيه اسكندر باشا ، وفي البلدة جامع آخر كبير لمصطفى باشا النشار أحد ولاة الترك في اليمن . وفي زبيد من السكان عشرون الفاً ، ودورها من الاجر أو العريش . وفيها جوامع ومساجد ومدارس عديدة . قال القلقشندي في صبح الاعشى : زبيد مدينة مبنية في مستوٍ من الارض ، عن البحر على أقل من يوم وماؤها من الآبار وبها نخيل كثير ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هواؤها . وقد كانت مقر ملوك اليمن بني الرسول كما ان تعز كانت مصيفهم . اه . وبعد ان كانت زبيد قاعدة تهائم اليمن حافلة بالملوك والامراء الذين سيأتي ذكرهم في بحث التاريخ وبالتجار والسفار وبدور العلم والعلماء والمدونين حسبك منهم الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط الذي حط رحاله في شيخوخته فيها ومات سنة ٨١٧ هـ ، وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب . . . انحطّ شأنها بعد زوال دولة بني الرسول ، ولا سيما بعد خراب ميناء غلافقة ثم مخا وانتقال السفن والتجار والحكام الى الحديدة ، فلم يبق من مجد زبيد وعمرانها ولا سيما من دورعلمها وعلمائها الا أثر ضئيل . وفي جنوبي زبيد بليدة (حيس) فيها عدة مساجد ومطاحن ومصانع للنيلة ومصانع للاواني الخزفية . وفي اقصى الجنوب فرضة (مخا) التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد اكبر موانئ اليمن بل كل جزيرة العرب ، ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧ — ٨ آلاف دار ، وعشرات من الخانات والمستودعات ، لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليماني النابع في لواء تعز واقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka) . وظل هذا العز والعمران في مخا حتى طمر البحر مرفأها بالرمال فاضطرت السفن الى التحول الى الحديدة وعدن ، ثم دهمها القضاء المبرم في سنة ١٢٥٠ هـ حينما هاجمها السيريون ونهبوها وخربوها ، فأصبحت قرية حقيرة تندب مجدها الغابر

ومثل ذلك يقال عن مدن تهامة الجنوبية والغربية التي كانت قديماً قدرس اكثرها وخلفها غيرها . ذكر منها الهمداني وابن خلدون والمقدسي والعمري وغيرهم من جغرافيي العرب ، عدن ولحج وأمين والرواغ والشفاق والمندب والحصيب وهي قرية زبيد والقحمة والكدراء والهجم وعطينة والشرجة والحردة وغيرها . وصف المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) عدن فقال : بلد جليل عامر أهل حصين دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب معدن التجارات كثير القصور مبارك على من دخله مترامن سكنهُ مساجد حسان ومعايش واسعة ، قد أحاط به جبل ما يدور الى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل اليه الا ان يخاض ذلك اللسان فيصل الى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وعليه

ذب حديد ومدوا من نحو البحر حائطاً من الجبل الى الجبل فيه خمسة ابواب ، الاّ انها يابسة عابسة لازرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلأ كثيرة الحريق والوكف . وقال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار : لم تزل عدن بلد تجارة من زمن التبابعة والى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ويمتار اهل كل اقليم منها ما يحتاج اليه اقليمهم من البضائع . الاّ ان المقيم بها يحتاج الى ما يتبرد به في اليوم مرات من قوة الحر . ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الاموال التابية اه .

قلت : ما برحت هذه الاوصاف جارية في عدن على ما رأيت الاّ ان حالها قد حسن في الجملة منذ ان احتلها الانكليز في سنة ١٢٥٤ هـ فحفلت بالشوارع المستقيمة والمباني الجميلة والمتاجر الحافلة والحدائق المغروسة ، والحصون والمتاثر الظاهرة فوق الجبال السود المحيطة بها ، والماء المشروب الذي استجلبوه بعد الحرب العالمية من قرية الشيخ عثمان ، وهي اليوم من اهم نقط المواصلة بين الشرق والغرب ومن أحصن حصون البريطانيين ومركز أساطيلهم البحرية والجوية ومحطة عظيمة تموّن منها البواخر بالفحم والنفط وما يلزم ، وبندر كبير تستمد منهُ بلاد العرب وافريقية الشرقية عامة واليمن خاصة كل ما يلزمها من السلع ، وفيها وكالات البواخر التي تغشاها بكثرة في غدوها ورواحها بين الغرب والشرق . ويقدر سكانها بخمسين الفاً اكثرهم عرب مسلمون وبينهم الصومالي والهندي والفارسي والافرنجي . وبجهة عدن (الصهاريج) او اسداد الماء وهي من أجل الاعمال الهندسية في العالم تسع ثمانين مليون جالون ماء . وتاريخ انشائها مجهول ، يرجع الى قبل الميلاد بخمسة قرون او عشرة . وكانت هذه الاسداد مردومة عند احتلال الانكليز لعدن ثم كشفت ورممت في سنة ١٢٧٢هـ . وعدن في شبه جزيرة على ساحل البحر في دلتا وادي لحج وعندها ينتهي مخلاف لحج ، كما ان هذا المخلاف منتهى اليمن في الجنوب . ويقيم سلطان هذا المخلاف في بليدة اسمها « الحوطة » تبعد عن عدن نحو عشرين كيلومتراً ، وفيها من السكان نحو عشرة آلاف ، وفيها قصور السلطان واخوته ومساجد كثيرة . وسلطان لحج عبد الكريم فضل العبدلي واخوه الامير احمد قد اخذا بحظ وافر من الثقافة والحضارة لتفرّدهما بين عدد سلاطين وامراء بقية المحميات ، ولها عناية بالعلم والادب والزرع والغرس . زرت بستاناً كبيراً للسلطان في شمالي الحوطة فوجدتهُ يحتوي على كثير مما لم اسمع الاّ باسمه من اثمار البلاد الحارة التي جلبت اشجارها من الهند ، كالجوافة والباط والسيتافل والرامفل والتارجيل والتمر الهندي والشيكو والبيذان والفناء والحيالي والمانجو وغيرها ناهيك بأثمار البلاد المعتدلة . وللامير احمد مؤلف مطبوع في مصر سنة ١٣٥١هـ دعاه «هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن» فيه بحث وتحقيق جديران بالثناء والاعجاب خاصة وقد انقطع التحبير والتحرير بين امراء اليمن منذ عهد بني الرسول اصحاب زبيد (٦٢٠-٨٥٨هـ)

الى الثلاثين . . .

لسيد قطب

إلى الثلاثين نُعنّي الركاب حثيثـــة يا ليال
مضى من العمر أغلى اللباب فلست آسي لقال
مضى من العمر ما يستطاب من بهجة أو جمال
مضى كما جاء — عهدُ الشباب عهد المنى والخيال
وضاع في غمرة واضطراب ومرّ دون احتفال
فأسرعي يا ليال

علام من بعده تمهلين ؟ وأيّ غيب نهاب ؟
وما احتفالي بمرّ السنين ؟ من بعد مرّ الشباب ؟
وما الذي يا ليالي يكون بعد اكتمال الرغاب ؟
يكون — واحسرتاه — السكون على ضفاف اليباب ؟
يكون — كالقيد — عقل وزين ! يعطو لشط الصواب!
فيا لسوء المآب

فذلك العقل ومن القيود ونحن شرّ البُناء
يذودنا عن مراقي الخلود وخير ما في الحياء
والطيش ومن الشباب المريد يسمو بنا عن مداه
فنحن نرنو لهذا الوجود بفتة وانتبـــاه
فلا ليالي بصرف الجدود ولا نخاف الفناء
فكلّ يوم حياه

يضاعف اليوم مني المصاب أن لم أعش بالخيال
قضيت — واحسرتاه — الشباب كالكهل في كل حال
يخيش بالنفس سيل الرغاب فلا يمس اعتدالي
ووجهتي في الحياة الصواب ونظرتي للمآل !
عصيت أمر الحياة المجاب فكان رشدي ضلالي!
فأسرعي يا ليال

الحضارة الحثية

نواحيها الصناعية والتجارية

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

التجارة

يؤخذ من مخطوطات الكابادوك ان الحثيين كانوا منذ اقدم عهودهم تجاراً من الطبقة الاولى وعلى اتصال وثيق بسائر امم الشرق يتاجرون معها بشتى الاصناف اهمها الاصواف والماشية والمعادن وكان عندهم شبه مصارف تجارية لترويج معاملاتهم وعقود يتقاضون بها حاجاتهم وكانت تزن قطعة نقدهم الكبرى ستين مثقالاً من الفضة وقد عثر لهم على عقود بيع وشراء وتسليف على بضائع وقروض مقابل رهونات مدونة على الآجر واستدل من بعض النصوص على وجود محل في الحواضر الكبرى يدعى كاروم اشبه بالغرف التجارية المعروفة في ايامنا يهتم بتبين معدل فوائد القروض بين التجار ويعد المرجع الأعلى لحسم الخلافات التجارية وكانت معظم قيودهم تختم بالرصاص [illegible] وكانت وعدائهم معينة بخمسة ايام عوض اسابيعنا الحالية تقريباً وعقودهم انهُ اشق على ايفاء القرض الفلاني بعد مرور تسع خمسات اي بعد خمسة واربعين يوماً

وعندما تقدموا في مضمار الحضارة مهروا في تقنية المعادن وصياغتها فصارت تجارتها تدر عليهم ارباحاً طائلة وقد اهتموا بها حتى ملوكهم فأخذوا يطلبون الى فراعنة مصر ارسال سبائك ذهبية ليصوغوا لهم منها حليًّا في معابدهم الملكية مقابل اجر يحسبونهُ من اصل البضاعة . ثم تفننوا في القرن الحادي عشر صنع الاسلحة وسائر مستلزمات الحضارة من معدن الحديد الذي كانوا يستخرجونه بكثرة من مناجم اسيا الصغرى وجعلوا معامل هذه الصناعات ومحال الصاغة الكبرى ملكاً للدولة واخذوا يتاجرون بمصنوعاتها مع سائر امم الشرق وقد عثر العالم الاثري

المسيو تورو دانجان في حفريات تل برسيب عن رسالة لملك حتي جواباً الى ملك غير معروف يقول لهُ فيها : « لقد اوعزت الى معاملي بأن تصنع ما اوصيتم به من اصلح انواع الحديد فعندما يتم عمله سوف ارسله اليكم » وأصحب رسالته خنجراً من الحديد كنموذج وقد كشف التنقيب عن اشياء كثيرة من تلك المصنوعات كالطواق والآلات والسلحة والصنام وتماثيل وتمائم مرصعة بالذهب

وقد كان الامن مستتبًا على طرق مواصلاتهم التجارية والثقة موطدة تقطع قوافلهم المسافات الشاسعة وتقضي فيها اياماً وليالي من غير ان تخشى بأساً ولم تكن طرقهم مستقيمة على شاكلة الطرق الرومانية بل كثيرة الالتواء كشبكة ترتبط بكل البلاد الحثية بعضها ببعض وتدلنا الآثار التي شادوها على قارعة هذه الطرق على اتساع حلقة تجارتهم وبعد مداها في غربي مملكتهم كما انهُ في الجهة الشرقية كانت كركيش متقدمهم على الفرات وعقدة مواصلاتهم مع بلاد ما بين النهرين

الصناعات والفنون

لا غرو انهُ لا يمكن ان يبلغ شعب من الشعوب مستواهُ الراقي في الفنون والصناعات ما لم يجتز سلسلة من المراحل الابتدائية . لذلك نشاهد في آثار الحثيين تفاوتاً في درجات رقي فنونهم وصناعاتهم يختلف باختلاف العهود التي ترتدُّ اليها . فيجدر بنا والحالة هذه ان نقسم هذه الفنون والصناعات الى قسمين نطلق على الاول اسم الفن الحثي الآسيوي وعلى الآخر الفن الحثي السوري نظراً الى ما لكل من هذين القسمين من عهود متفاوتة وميزات خاصة . فبينما يكاد يكون الاول مشتقاً من الفن السومري لكثرة وجوه التشابه بينهما نرى على الثاني نسخة من الفن الاشوري تزداد بروزاً مع تقدُّم عهود التاريخ حتى تنفذ منهُ الى الصميم . على أن هذه التأثيرات لم تحل دون تكيُّف الفنون والصناعات الحثية وتطبع بطابع خاص جعلها موضوع بحثنا في خطوطه العامة

(فن العمارة) فاذا أخذنا بفن العمارة وهو من أهم العوامل في درس مدنية الشعوب دلتنا الآثار الحثية الباقية على عبقرية الشعب الذي شيدها . فقد امتازت عمائر الحثيين باستقامة خطوطها الساذجة وضخامة قواعدها وتوسط ارتفاعها وتناسبه مع امتدادها وتجلت هذه الأوصاف خاصة في الآثار التي اكتشفت في بوغاز كوي وهوبوك كما بدت على انقاض قلعة كركيش

ومن أروع تلك الأدلة على قولنا حصون حاتوشا وأبوابها الحجرية التي تم بضخامتها وصلابة بنائها على ما كانت عليه تلك العاصمة القديمة من القوة والمناعة وقد قامت في وسطها تلتان على ذرى رابيتين تحيط بهما أسوار غليظة يبلغ سمك جدرانها اربعة امتار ونصف متر وهي مبنية بأحجار كبيرة الحجم متراصة تتخللها دعائم على مسافات متوازية تزيدها متانةً ينفذ منها باب حجري مستطيل الى قباب طويلة مزخرفة الجدران برؤوس اسود بارزة كأنها قائمة على

حراسة الابواب ويخرج من هذه القباب الى فناء داخلي تتفرّع منهُ سائر المشتملات من أبهاء وغرف وهياكل

ومما اكتشف ايضاً في حفريات بوغاز كوي بقايا قصور تيسر معرفة شكلها الهندسي بفضل بقاء جدران طبقها الاولى فوجدت مبنية بأحجار جسيمة الحجم يتألف داخلها من رواق طويل ينتهي الى فسحة مكسوة بالبلاط توسطها بناية كبيرة يلوح من زخارف انقاضها انها كانت مبدأ في قلب القصر وتقوم في غرب هذه البناية غرف كثيرة تشرف على الفسحة المذكورة وتمتاز هذه الأبنية الحثية بأسسها العميقة خلافاً للابنية الاشورية التي كانت تقوم على سطح الارض

فيستنتج مما تقدّم ان الحثيين بالغوا في صلابة بناء عماراتهم الكبيرة التي كانت من الصخر الصلد وحاطوها بكل ضروب التحصين وجهدوا في أن تكون غايةً في المناعة ويظهر انهم بذلوا معظم جهدهم في تشييد قصور الملوك ومعابد الآلهة توخياً لرضاء أربابها

(الحفر والنقش) وقد تفرق الحثيون في الاستكثار من الحفر والنقش على آثارهم حتى انتشرت نقوشهم في جميع أنحاء الاناضول وسوريا الشمالية على ان فنها لم يكن متجانساً في كل الامكنة على السواء . ففي يازيلي قايه وبوغاز كوي القديمتين تراه أقل رقيًّا مما هو عليه في كركميش وزنجيرلي . فبينما كان الحفار الحثي يتعسر همه في البدء على اخراج نقوش ناتئة اخذ يمشي على مرور الايام بنحت الاجسام والتقرب من تصوير الحقيقة ويجهد في محاكاتها فبرز في بسط اعضاء الجسم وصار لهُ ميزة خاصة بأسلوبه ومبتكراته ثم نحا آخر نحو الرقة وكاد يضاهي في بعض الآثار نقوش المصريين الرائعة

ومما كان من امهر خصائصه تصوير الحيوانات حيث توصل بها الى محاكاة الشبه بامانة تكاد لا تصدق فخص منها نقوش الأسود التي برع في تمثيلها واكثر من صفوفها على ابواب قلاعه وقصوره ومعابده . فمنها تبدو لك جالسة وقد بسطت ايديها الى الامام كأنها تعبة من طول السهر وقد بانت اعضاء جسمها كافة فتكاد تعد اضلعها ومنها تراها منتصبة كأنها تتحفز للوثوب وقد فتحت اشداقها لتزأر فترتاع من هول مشهدها . وهنالك نقوش كثيرة على جانب عظيم من المهارة تمثل كلاباً تطارد سرب غزلان ومشاهد قنص وصيد قلَّ مثيلها في محاكاة الطبيعة مثل نقش مويوك الذي ظهر فيه رجل يعدو هرباً من نشابة الصياد . وقد اقام الحثيون تمثالاً لابي الهول المصري في عاصمتهم الاسيوية ونقله المكتشفون الى متحف استامبول حيث يشاهد مرتمياً من الكسر ذا جسم عنيّ ووجه بشري بهم كبير يحاول الابتسام

اما سائر النقوش فقد تنوعت موضوعاتها الى حدٍّ لا يحصر وأتيح لنا ان نتتبع مبدعيها في حفلاتهم وطقوسهم واعمالهم وفي كل امر من امورهم . ففي بوغاز كوي عثر على قاعدتي تمثال من حجر

الجص مزينتين بنقوش تمثل في احداهما رجلاً ملتفاً برداء وفي الاخرى فاتحاً الرداء وهو واقف وقفة تعبد وابتهال امام هيكل يشبه مقصداً كثير القبوب اكتشف له مثال من الفخار في معابد اشور وتبين ان كثرة قبوبه تساعد في عرف الاشوريين على ظهور ارواح الاجداد من نوافذها

وقد تعرفنا بفضل نقوش أخر تعطي صدوغ احد ابواب مدينة حاتوشا الى ملك محارب حليق الذقن يكسوه قميص حريري مشدود تكاد تبرز من تحته عضلات صدره الواسع. اما رأسه فمغطى بخوذة بيضوية الشكل يحتذي موقاً معكوف الاقب ويحمل في طيات مخزمه العريض خنجراً معوجاً بقبضة مزخرفة وقد امسك بيده اليمنى المقربة من صدره فأساً ذا حدين اما يده اليسرى فتراها مطبقة القبضة دلالة على شدة بأسه وهو في وقفة تخاله فيها يتأهب للشي

وهنالك نقش آخر يرينا الآلهة النباتات القروي محملاً بعناقيد العنب وقد امسك بيد عنقوداً كبيراً وفي الاخرى حزمة من سنابل الحنطة كأنهُ يشير بها الى ملك واقف امامه وقفة الخشوع والاحترام

وفي بازيلي قايه صور اشكال من الطفوس نقشت على سلسلة من صخور جبلية يسترعيك بينها مشهد يمثل مواكب من الآلهة والملوك والملكات وقد وقفوا في صفين متقابلين يتقدمهم اله عظيم على رأسه تاج عال وقد امسك بيده اليمنى قبضة من الاسلحة وأشاح باليسرى الى الهة الشمس الواقفة قباله مما فسره العلماء بحفلة زواج احد الملوك وارتقائه الى مصاف الآلهة

وفي محل آخر نرى الهاً شابًّا ممسكاً بيده اليمنى شارة الملك وقد لف الاخرى حول عنق اله اصغر رمزاً الى حمايته ويجدر بنا ان نشير ايضاً الى بعض آثار هويوك التي تمثل مشهد تطواف كهنة بأسلحتهم الرسمية حول ذبيحة مقدمة على هيكل بحضور الملك والملكة . وان نتوه بمشهد آخر يمثل الآلهة قاعدة في مجلس طرب وقد التف حولها ناخو الابواق وسائر المطربين ولا يفوتنا الى ان نلمح في الختام الى المشاهد الطفسية العديدة التي وجدت في ارسلانتيه وكركميش وفي غيرها مما لا يعد ولا يحصى

﴿صناعة المعادن﴾ عرف الحثيون صناعة المعادن من اقدم عصورهم فصاغوا من سبائك النحاس تبرجليًّا وأصناماً صغيرة كما طرقوا الحديد وصنعوا منهُ الرقائق المصورة والتماثيل وخلطوا الخارصيني بالنحاس وركبوا من مزيجهما الشبه وسكبوا منهُ آنية وكؤوساً ودمى طلوها بالذهب والفضة واذابوا الفضة واستعملوه لبصم اختامهم وصهروا سائر المعادن واستخدموها في صناعاتهم . يشهد لنا بذلك ماخلفوه من شتى الآثار التي وسموها بميسمهم الخاص وقد كثرت فيها تماثيل الآلهة المستطيلة ظهور حيوانات ومعظمها سليم الذوق ودقيق الصنع

﴿صناعة الفخار والخزف﴾ وقد اتقنوا كذلك صناعة الفخار والخزف وتفننوا في منتجاتها

فتمازت مصنوعاتهم باناقة اشكالها وزخرفتها وجمال تلوينها ولاسيما الآنية المكتشفة منها في انحاء سوريا الشمالية حيث تطورت اشكالها السقيقة المبتذلة واخذت تقرب من اشكال الآنية المعدنية فتبسطت اعناقها وصار بعضها بطيئاً والبعض الآخر معقاً وكان الاحمر لونها الغالب الا انهم وسموا بعضها بتعاريج هندسية وبخمون اشجار ملونة كادت تضيع لونها الاصلي ثم اخذوا يكفونها باشكال بعض حيوانات مثل السمك والبط والسلاحف وما شاكلها ويطلونها بالميناء اللامعة فصارت في منتهى الزخرفة كما دلت على ذلك مجموعة آنية تل برسيب المحفوظة في متحف حلب وقد شبه العالم الاثري بوتيه بعضها بالخزف الصيلاني الجميل المكتشف في ايران

(الحفر على الاسطوانات) ومما برع الحثيون في صناعته الحفر على الاسطوانات . فقد عثر لهم على اختام ترتد الى القرن الخامس عشر ق. م على جانب عظيم من دقة الصنع كثيرة الزخرف وقد حفر على بعضها صور آلهة حثية عارية مثل آلهة الخصب وقد نقشت حولها احرف هيروغليفية حثية كما اكتشف في قبور كركميش اسطوانات حثية الفن ولكنها مشبعة بروح اجنبية حيث ترى بعضها مزداناً بنقوش آشورية واخرى بتماويذ مصرية وتصاوير آلهة وادي النيل، وقد برهنت هذه الآثار على مدى تأثر الحثيين في الامم التي اتصلوا بها

وقد يبقى بحثنا ناقصاً اذا تغاضينا عن ذكر مدى انتشار الفنون الحثية في سائر الاقطار الشرقية وتأثيرها في الحضارات التي ازدهرت من بعدها . تأييداً لانتشارها نذكر الصنم الحثي الذي عثر عليه في حفريات بابل بين آثار القرن الثاني عشر ق. م وهو يمثل الاله تحشوب بقميصه القصير وسيفه المعوج في خصره وحذائه المعكوف الطرف ولحيته الكثيفة وشعره المدرّح وقد لبس على رأسه تاجاً يعلوه قرنان وأمسك بيده فأساً مهدداً بالبطش والانتقام

كما ان تأثير الفنون الحثية في سائر الفنون القديمة تبدو في كثير من الامور أخصها قواعد الاعمدة اليونانية المزدانة بنقوش وتماثيل حيوانات معروفة بكونها من مبتكرات آسيا الصغرى . وفي خوذة الجندي اليوناني وسائر لباسه الذي يماثل ألبسة الجنود المنقوشة على آثار زنجيرلي وفي تماثيل الآلهة المتصفة على ظهر حيوانات وفي غيرها من الاساطير الدينية وبعض الصناعات التي تسربت من الحثيين الى بحر إيجه فاليونان

وصفوة القول ان اكتشاف الحضارة الحثية قد أبان مصادر كثير من الفنون القديمة وأظهر الأواصر العديدة المتوثقة بين الاقطار الشرقية منذ أقدم الازمنة وأوضح فضل هذه الدولة العريقة التي اذكت شعلة المدنية قبل اربعة آلاف سنة وحملت قبراسها احقاباً طويلة في أحلك ظلمات القرون السحيقة

نفسية الجماهير

لغوستاف لوبون

اذا اجتمع نفرٌ من الناس لسماع محاضرة أو مشاهدة قصة تمثيلية فاننا نتبين نوعاً من الشعور قد سرى الى عقول هؤلاء الناس جميعهم وان لم يكن على درجة واحدة في كل واحد منهم . ومصدر هذا الشعور هو الممثل أو الخطيب ومنهُ ينتقل الى جمهور الحاضرين ولكن هذا الشعور ليس بالعميق الراسخ فسرعان ما يتبدَّد ويتلاشى في مشاغل الانسان الكثيرة . وكلما كان الأفراد مهيئين لمثل هذه الايحاءات كان الامتزاج في عاطفة الجمهور أقوى وأكمل وكان تأثيرها أشد وأبرز . والواقع ان الاستعداد لقبول هذه الايحاءات يختلف باختلاف الأفراد . وهو في الاطفال والنساء أظهر منهُ في الرجال وفي بعض الشعوب أقوى منهُ في غيرها . وعلى هذا نجد عقل الجماعة مسرحاً لشتى الايحاءات لا تكاد تظهر سلسلة حتى تعقبها سلسلة أخرى تجرفها في طريقها وتنتزع منها مكانها . ولا يتوقف دوام أثر هذه الايحاءات على كيفية انتشارها بأسهل الطرق ولكن على مقدار ما فيها من صلابة وحدة في العاطفة . لأن هذه الحدة في العاطفة التي تسحب الآراء عادة هي التي تعمل على تثبيتها وتغلغلها في عقول الأفراد . وبهذه الطريقة يسعى كل حزب الى كسب أنصاره بواسطة الخطب الساحرة والكلمات الخلابة التي يتوهمها هؤلاء الأنصار أنها تتفق ورغباتهم . لان الأفراد يسمون دائماً وراء امتيازات خاصة مشتركة بين الجميع ومن أجل ذلك يجتمعون لاعتقادهم أنهم يصيبون مجتمعين أكثر مما يصيبون متفرقين . وعلى هذا يقوى فيهم شعور الزمالة كلما استهدفوا لخطر فيتكاتفون جميعاً على درئهِ . فالخوف شعور وجداني لهُ فوائده العظيمة في الجمع بين الأفراد وفي تكوين الجماعات وبمقدار بقاء هذا الخوف تكون مدة اتحاد هذه الجماعات والتئام صفوفها

ولم يغفل قادة الشعوب عن هذه الظاهرة السيكولوجية في الجماهير فسلطوا جهدهم على استغلالها والانتفاع بها . فاذا نجح القائد مرَّة في ادخال الخوف في قلب الجمهور من أجل خطر — وهمي أو حقيقي — لم يصعب عليهِ بعد ذلك ان يقبض على زمام هذا الجمهور وأن يوجههُ كيفما يشاء . هذا ما نراهُ في جميع الشعوب فقبل ان تندلع نيران الحرب يكون الرأي العام قد تهيأ لها عن

طريق الصحف والخطباء الذين لا يفتأون يدخلون الرعب في قلوب الناس بما يذيعونه عن زيادة تسلح احدى الدول المعادية. لذلك كان أول واجبات الزعيم الشعبي أن يبث الخوف والكراهية وعدم الثقة في نفوس الناس. لقد كشف جوستاف لوبون عن تلك العاطفة — الخوف — التي تحتل المكان الاول في أعمال الانسان فقال « ان روح الجماعة عاجزة عن أي نشاط ذهني فهي بين الاقدام والاحجام وبين هذين القطبين تتذبذب روح الجمهور فهي قد تدنو وتأبى تبعاً لشعور العطف أو الكراهية »

فاذا أدرك الزعيم رغبات شعبه وعمل على تحقيقها استطاع أن يبعث فيه روحاً قوية قد تدفعه الى التضحية. ويكفي ان يذكره بهذه الكلمات الشرف — الدين — الوطن فيثير فيه أهواءه الدفينة وميوله الغوية وسلوك الجماعة يعتمد قبل كل شيء على سلوك الأفراد الذين تتألف منهم هذه الجماعة. وتصرف الفرد يخضع للجنس واللسن والبيئة ولكنه يعتمد في النهاية على السلالة أو بوجه عام على العوامل الوراثية . وما دام الأمر كذلك فقد كان المنتظر ان يختلف سلوك الجماعات الفردية النزعة Individualistic Races عن سلوك الجماعات الاجتماعية النزعة Collectivistic Races وسنرى هل هذا صحيح أو غير صحيح . واذا شبهنا المجتمع الانساني بجهاز عضوي ونظرنا اليه من الوجهة البيولوجية تمكنا أن نتعرف على طبيعة الجماعة ونفسيتها وما ينتج عنها من تصرفات . وكما يختلف الافراد في التكوين الجسمي كذلك الحال في الجماعات ففي الانسان نجد كل خلية تكتسب عناصر الوراثة من كلا الوالدين ، ونشاط الخلية يتأثر دائماً بالعناصر التي ورثتها . كذلك الحال في الجماعة فان تكوين الكتلة البشرية يخضع دائماً لتصرفات الفرد وعلى ذلك نجد أن هناك شبهاً قوياً بل تطابقاً محكماً بين خلايا الانسان الواحد وبين الناس في المجتمع

هذا من الناحية البيولوجية أما اذا نظرنا الى المجتمع من الناحية النفسية — السيكولوجية — فاننا لا نجد اختلافاً كبيراً بين الانسان والجماعة الا أن الخلايا في الانسان أسرع اتصالاً بعضها ببعض من اندماج الافراد في الجماعة ففي الاول رباط مادي لا نجد مثيله في الاخير ولكن هذا الرباط يستبدل في الكتلة البشرية بما يسمى انتقال المشاعر أو الايحاء

ولست أميل هنا الى الدخول في موضوع عويص بالبحث في طبيعة انتقال هذا الشعور فقد تكون الحركات المتوافقة للخلايا ناتجة من انتقال نوع من أنواع الشعور . ومهما يكن فان في الجماعات البشرية دوافع قوية منتقلة تنتقل من فرد الى آخر كتلك التي نجدها في خلايا الجسم البشري . وكما يحدث ان الخلايا التي في الانسان تؤثر في حركات غيرها كذلك الحال في الكتل البشرية فاننا نجد صدى التأثير هو الذي ينتقل من شخص الى آخر . ويمكننا أن نستنتج من هذا ان حالة التأثير في الجماعة هي مجموع تأثير الافراد غير أن السلالة واللسن والجنس والنمو في الافراد وغيرها من مؤثرات البيئة تجعل « التفاعل » في الجماعة غيره في الافراد إذ أننا نجد في الجماعة كما في حياة الافراد العقلية دوافع شتى تتصارع وتتناضل . هذه الدوافع هي التي تتسلط

على حركات الجماعات كما تتسلط على حركات الافراد وهي دوافع غريزية خالصة

ولكن هذه الدوافع وحدها لا تكفي لتكوين كتلة نفسية متماسكة تحيا حياة اجتماعية متماثلة اذ لا بد أن يكون بين الافراد شيء من التجانس العقلي . دع رجلاً يقوم بين مائة من الناس ينمي على الامة ضعفها وتفككها فسرعان ما يلتف حوله هؤلاء المائة ولكن اذا كان هؤلاء المائة من أجناس وشعوب مختلفة فانهم سرعان ما ينصرفون عن الخطيب لان كلامه لا يعنيهم في قليل أو كثير

وعلى ذلك يجب أن يكون هناك بعض التشابه في التكوين العقلي أو ما يسمى بالتجانس العقلي في الجماعة . وكلما زادت درجة التجانس في الكتلة البشرية كان التكوين النفسي للجماعة أيسر وكانت مظاهر الحياة الاجتماعية فيها أظهر وأوضح

فاذا أتيح لجماعة متجانسة شخص يثير فيها الحماسة والعمل فان شعور هذه الجماعة لا يلبث ان يتحد وقد يمر بعقل كل واحد منهم في تلك اللحظة كل العمليات العقلية التي شاعت في ذلك الجو الجديد ويصبح من السهل اقناعهم وتوجيههم الى حيث يريد الزعيم بل قد يكون اقناعهم أسهل من اقناع الفرد لأن أعمال كل عضو في الجماعة غير أعمال الشخص الذي يواجه الموقف كفرد مستقل . فالفرد في الجماعة لا هم له إلا أن يجد قوة الجماعة ولكن الجماعة لن تحاول أن تبقي على كيانها أو أن تحافظ على حريته فهو في هذه الحالة يصبح فرداً في الجماعة يفقد فيها شعوره الشخصي وادراكه لذاته كشخصية تميزه . وعلاوة على ذلك فانهُ باندماجه في الجماعة يفقد كثيراً من المسئولية الشخصية إذ يشعر أن مشاعر غريبة قد غمرتهُ وقوى أخرى خارجية قد جرفتهُ في هذا الطريق الجديد وهو عاجز عن أن يقف أمام تيارها . لذلك يكون من اليسير جداً على الزعيم أن يتلاعب بتلك الجماهير التي أسلمتهُ قيادها يوجهها كيفما يشاء . فهي تسير وراءه بعاطفتها لا بعقلها تسمع كلماته فتفتح لها قلوبها وترى اشاراته فتسارع الى الاستجابة لها فتندفع في فورة العاطفة وحرارة التأثر فترتكب من أعمال الطيش والتدمير ما يثير عجب جميع الناس الذين لم تصبهم نيران الثورة ولم تستجب قلوبهم لنداء العصيان . ولكن ليس لنا أن نعجب لأمر هذه الجماهير التي طاشت أو لتلك العقول التي خلت فان هذه الظاهرة النفسية وان بدت لنا غريبة شاذة هي نتيجة طبيعية لتلك الثورة الجامحة . فاذا وقفنا على الصفات النفسية للجمهور ما هانا أمره . فالجمهور ساذج عاطفي الى حد كبير ، كثير الاندفاع قليل الثبات ، متطرف في كل شيء . قابل للايحاء ، مسرف في تحكمه ، متسرع في حكمه فهو شبيه بالطفل المتروك أو الهمجي غير المكبوح وقد يكون في بعض الحالات أقرب الى الوحش الضاري منهُ الى الانسان العادي . اذا فهمنا هذه الحقائق الأولية في نظريات نفسية الجماعات ما رمينا الجماهير الساذجة التي تفقد عقلها في الازمات النفسية العنيفة بالانحطاط الخلقي والتفاني ووقفنا على تلك الحقيقة المهمة وهي ان الجمهور لا يصحبه اي شيء من الشعور الخلقي والعقلي الذي يصحب أعمال الافراد الذين يكونونها

وقد يخطىء كثير من الناس فيعزون أعمال العنف والتخريب الى الرعاع المستهترين والواقع أن جميع الافراد سواء المهذب المثقف أو السوقي الأمي يكونون في حالة عقلية واحدة في تلك الثورات النفسية الشاذة . اذ الكل يتبع نداء الغريزة ، ويندفع بتأثير الايحاء

لقد فهم شكسبير عقلية الجماهير فهماً دقيقاً فلا تخلو قصة من قصصه التمثيلية الكثيرة من الاشارة اليها والتعرض لها . وأقوى مثال على هذا ما جاء في مسرحيته الرائعة « يوليوس قيصر » من موقف الشعب الروماني بعد قتل قيصر . فقد نجح بروتس زعيم المتآمرين في اقناع الشعب بضرورة قتل قيصر لانقاذ روما حتى أن الشعب اعتبر القتلة أبطالاً جديرين بالخلود . فلما جاء « مارك انتوني » وجد نفوساً حانقة على قيصر وأتباعه فلم يشأ أن يهاجم القتلة أو أن يسيء الى قصدهم بل عمد الى استمالة الجمهور اليه بأن حدثه عن أعمال قيصر وكيف ان قيصر قد بنى لهم مجداً خالداً وشاد لهم امبراطورية عظيمة دون أن يكسب لنفسه شيئاً

فسرعان ما انقلب ذلك الجمهور الحانق الساخط على قيصر واتباعه الى جمهور ثائر على القتلة المجرمين فاندفع في فورة العاطفة يطالب بدم قيصر البريء . وهنا يورد شكسبير حادثة طريفة قد تكون حقيقة تاريخية ثابتة وقد لا تكون ولكنها على اي الحالات حادثة يمكن ان يقدم عليها جمهور في مثل تلك الثورة الجامحة والهياج العاطفي العنيف . خرج الشعب الروماني جموعاً متدفقة يبحث عن القتلة فصادف في طريقه رجلاً فسأله عن اسمه فأجاب الرجل « سنا » فلم يكد الجمهور الثائر يسمع هذا الاسم حتى انقض على الرجل يريد الفتك به لانه كان يبحث عن احد الاشخاص المتآمرين يدعى « سنا » وعبثاً حاول ذلك المسكين ان يقنع الجمهور انهُ « سنا » الشاعر لا سنا « المتآمر » . هذه الحادثة البسيطة وان لم تكن حقيقة تاريخية ترسم صورة لنفسية الشعب الثائر الذي لا يعرف الا الانتقام والتدمير سواء كان هذا التدمير يتصل بالسبب الحقيقي الذي من أجله يثور أو لا يتصل . وتعليل هذا أمر يسير فالجمهور في حالة هياجه كالفرد في ثورة غضبه فكما ان الفرد يخرج به الغضب أحياناً عن دائرة العقل فيثقف ويدمر كل ما يلقاه أمامه وقد يبكي او يضرب نفسه ان أعوزه ذلك . كذلك الجمهور يدفعه حنقه وجنونه الى قلب كل ما يراهُ أمامه وهذه ظاهرة نفسية طبيعية فهو في تلك الحالة ثائر مضطرب فيريد ان يرى كل شيء حولهُ ثائراً مضطرباً أي انهُ يريد أن يتنفس عن نفسه بخلق الجو الملائم لطبيعته الثائرة . ومن الخطل ان نأخذ مثل هذا الجمهور بالشدة والعنف فاننا ان فعلنا ذلك نزيد النار اشتعالاً . فكم من شخصيات عظيمة ذهبت ضحية الثورات الجامحة لأنها لم تفهم نفسيات الجماهير . وما اكثر الذين كان يرجى منهم مستقبل عظيم فجرفهم الجمهور في طريقه لانهم تصدوا لهُ

والواقف على تاريخ قادة الشعوب يدرك تماماً أن هؤلاء القادة لم يكونوا اذكى الناس أو اكفأهم ولكنهم كانوا أجرأهم وأكثرهم صبراً وأعرفهم بنفسية شعوبهم

الرتب العسكرية

في مصر والعراق

للدكتور امين المعلوف

كثر البحث في هذه الأيام في توحيد الرتب العسكرية في اللغة العربية فرأيت ان اكتب شيئاً عما أعرفهُ عن الرتب العسكرية في العراق. وقد كانت في أيامي كما يأتي من أدناها الى أعلاها وسأذكر الاسماء المصرية ثم العراقية ثم الانجليزية والفرنسية

الرتبة المصرية	الرتبة العراقية	الرتبة الانجليزية	الرتبة الفرنسية
نفر	جندي	Private	Simple soldat
وكيل أونباشي	جندي اول	Lance corporal	—
اونباشي	نائب عرف	Corporal	Caporal
جاويش	عرف	Sergeant	Sergent
باشجاويش	رأس العرفاء	Sergeant major	—
صول	نائب ضابط	Warrant officer	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم في مصر صف الضباط وفي العراق ضباط الصف. ثم الضباط وهم من ملازم ثان الى مشير فجميعهم ضباط

ملازم ثاني	ملازم ثان	Second Lieutenant	Lieutenant
ملازم أول	ملازم اول	First Lieutenant	—
يوزباشي	رئيس	Captain	Capitain
صاغ	رئيس اول	Second captain	—

هؤلاء الاربعة يقال لهم ضباط اعوان والواحد عون

بكباشي	مقدم	Major	Commandant
قائمقام	عقيد	Lieut. Colonel	—
ميرالاي	زعيم	Colonel	Colonel

هؤلاء الثلاثة يقال لهم في مصر ضباط عظام وفي العراق قادة والواحد قائد

لواء	امير لواء	Brigadier general	Général de brigade
فريق	فريق	Major General	Général de Division
—	عميد	Full General	Général d'une armée
مشير	مشير	Field Marshal	Maréchal

وأحياناً يسمى المشير في العراق العميد . هؤلاء الاربعة يسمون في مصر ضباط كرام وفي العراق أمراء فيقال تحية الامراء اذا كان لهم تحية خاصة

ثم ان الرتب العسكرية العراقية وضعت اولاً في الحجاز . ثم عدّلت في دمشق ثم في العراق عدلها الفريق جعفر باشا العسكري . وكان وزيراً للدفاع وعاونتهُ في بعضها . وكان رحمه الله يتقن لغات كثيرة من اللغات الشرقية العربية والتركية والكردية والفارسية والأفغانية وقليلاً من الروسية ومن اللغات الأوربية الفرنسية والالمانية وتعلم أخيراً الانكليزية وأتقنها . قلت انهُ عدل الرتب العسكرية في العراق وقد اقترحت عليه يوماً كلمة عميد للكلونل لان كلمة كلونل أصلها من كلمة عمود فلما عرضها على جلالة الملك قال العميد كثيرة للكلونل أي الزعيم فاجعلها لأكبر رتبة في الجيش وهكذا كان . أما العقيد فكلمة شائعة في الشام والعراق يقولونها لزعيم القوم في يوم القتال وأظن أصلها من «عقد لهُ لواء» . وأما المقدّم فرتبة كبيرة كانت في زمن المماليك ثم في لبنان وهم يطلقونها على من هو دون الامير . ولعلّ بعض اخواننا المصريين لا تروقهم لان المقدّم عندهم هو رئيس الفئة او العمال ولكن المقدّم كانت ولا تزال عند العرب رتبة كبيرة . ولعلّ بعضهم يفضلون ترجمة الكلمة الفرنسية وهي القائد ولكن القائد لا تصلح لها فقد يكون القائد ملازماً او يوزباشيًا او أمير لواء . بقيت مسألة أخرى وهي الخوف من استعمال الافرنج للرتب العسكرية بلفظها العربي وكتابتها بحروف لاتينية كما يستعملون في أيامنا الكلمات الآتية وهي

Perik, Lewa, Miralai, Binbashi, Youzbashi

كأن هذه الرتب خصصت لنا نحن المشارقة . قلت لو عرفنا كيف نحفظ كرامتنا لترجمنا هذه الكلمات لما وقع ذلك . او لو اننا امتنعنا نحن انفسنا عن كتابتها بحروف لاتينية ولو ان اليكباشي او الميرالاي او اللواء عند ما يكتب اسمه بالافرنجية على بطاقته يكتب General أو Colonel أو Major لما حصل ذلك . او لو سألني واحد ما هي رتبتك في الجيش وكان كلامهُ معي بالانكليزية فقلت مثلاً أنا Captain فقال هذه الرتبة ليست عندكم بل عند الانجليز والفرنسيين لقلت لهُ ماذا كانت رتبة ابراهيم باشا الكبير وماذا رأيك في قيادته لأجاب He was a great General اوهل الرتب العسكرية مكاً لكم . وعندي ان أحسن وسيلة لاتقاء ذلك ان يصدر البرلمان قراراً ويترجم هذه الرتب بالانجليزية والفرنسية وينشر قراره بصفة رسمية فلا تعود الجرائد الفرنسية والانكليزية تكتب اسم الفريق فلان باشا Ferik so & so ولكن General so & so والمسألة بسيطة جدًّا . اني لا أحب التدخل في السياسة ولن أفعل ولكن لا أرى وسيلة لحفظ كرامتنا في هذا الصدد الا هذه

سير الزمان

المستعمرات

من الناحية الاقتصادية

لواء الاسكندرونة

للدكتور عبد الرحمن شهندر

المستعمرات

من الناحية الاقتصادية

١ — للدكتور شاخت
في مجلة « الشؤون الخارجية »

ان بلدان اوربا الشرقية بلدان زراعية على الغالب ، فالسوق الالمانية في نظرها لها المقام الاول . ذلك ان المانيا تستورد الآن ١٤ في المائة من صادرات بولونيا ، و١٦ في المائة من صادرات تشكوسلوفاكيا و١٧ في المائة من صادرات النمسا و٣٠ في المائة من صادرات المجر و٤٩ في المائة من صادرات بلغاريا و٢٠ في المائة من صادرات رومانيا و٣٦ في المائة من صادرات يوغوسلافيا و٤٥ في المائة من صادرات اليونان و٦٤ في المائة من صادرات تركيا . فزوال السوق الالمانية يفضي الى أسوإ الآثار في حياة هذه البلدان الاقتصادية والاجتماعية . ثم ان السوق الالمانية لاتقل شأناً عما تقدم في نظر البلدان السكندينافية . فازدهار في اوربا لايمكن ان يقوم الا على أساس من الرخاء في المانيا

في عصر الازدهار الذي كان يسود العالم قبل الحرب الكبرى ، لم يكن لموضوع المستعمرات والمواد الخام من الشأن ما لهُ الآن . وهذا القول يصدق على المانيا صدقهُ على غيرها . فقد بلغت اموال المانيا المشمرة في الخارج قبل الحرب ٢٤٠٠ مليون جنيه فكانت تشتمل الفوائد التي تجنيها من هذا المال في شراء المواد الخام التي تحتاج اليها حيث تشاء . وكانت الاسواق التي تباع فيها هذه المواد حرة مطلقة من القيود . وكان من النادر أن ترى موارد المواد الخام خاضعة لاحتكار فعلي تمارسهُ شركات دولية ضخمة قوية . وكانت المعاهدات التجارية البعيدة الآجال تضمن حرية التجارة الدولية . وكان نقد جميع الامم الكبيرة على اساس الذهب فكان الذهب قاعدة صالحة للتبادل وكانت المهاجرة الى البلدان الجديدة ومنها مطلقة من القيود ، وينظر اليها بعين العطف والتشجيع

جميع هذه القواعد الاولية والاساسية في التجارة الدولية والمعاملة بين الامم قد زالت . فالقيود الدقيقة مفروضة على الهجرة ، والذهب قد حذف من سفر النقد في معظم البلدان ، والمعاهدات التجارية تعقد لمدى قصير ، والحواجز والحصص وما اليها تثقل التجارة الدولية وتقف سدوداً في وجه تيارانها . وعلاوة على ذلك لقد اخذ من المانيا المال الذي كل شيء لها في الخارج

والبلدان التي فيها موارد المواد الخام خاضعة كالتجارة لقيود دقيقة . وقد رأينا نتيجة هذه الخطة في السنوات الاخيرة . فقد نقصت تجارة العالم الى نحو ثلث ما كانت عليه وضعفت الثقة الدولية حتى كادت تزول ، ويحطّم نظام الاعتماد المالي الدولي لانهُ قائم على الثقة

فلما ضعفت التجارة الدولية ونقص مقدارها ، عمدت البلدان الكبيرة الى استغلال موارد الثروة التي فيها ، وكثيراً ما ترمي المانيا من هذه الناحية بالالطواء على نفسها ولكن الذين يرمون المانيا بذلك يفسون ان فرنسا والكلترا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا سبقتها الى ذلك . فالاكتفاء الذاتي (autarchy) في ميدان الاقتصاد يتمُّ من تلقاء نفسه ، في البلدان التي تحتوي على مصادر لمعظم المواد الخام التي تحتاج اليها الصناعة ، والتي تتمتع بنظام نقدي واحد يسهل التعامل والتبادل بين اجزائها . فخفض قيمة الجنيه ما كان ليسفر عن النجاح الذي أسفر عنهُ ، لو لم تتقف بلدان الدومنيون في ذلك اثر انكلترا . وفرنسا لولا تطبيق نظام نقدي واحد عليها وعلى مستعمراتها ، لما استطاعت ان تجني من هذه المستعمرات اكبر قدر من الفائدة

ولئلاَّ يتهم الدكتور شاخت بالقاء الكلام على عواهنه بقوله ان الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية سارتا في طريق الاكتفاء الذاتي (اوتاركي) أورد أرقاماً أثبت بها ان نصيب بلدان الدومنيون والمستعمرات والمحميّات من صادرات بريطانيا العظمى في الاثني عشرة السنة الاخيرة زاد من ٤١ في المائة الى ٤٩ في المائة وزاد نصيب بريطانيا مما تستورده منها من ٣١ الى ٤٢ في المائة . وزاد ما تستورده فرنسا من مستعمراتها في العشر السنوات الاخيرة من ١٠ في المائة الى ٢٦ في المائة وزادت صادرات فرنسا الى مستعمراتها من ١٤ في المائة الى ٣٢ في المائة . اما الولايات المتحدة الاميركية وروسيا فاتساع مساحتيهما وغنى اراضيهما بالموارد الاقتصادية المختلفة يجعلانهما في غنى تقريباً عن التجارة الدولية

يقابل هذه الدول الاربع ، دول كثيرة السكان محدودة الاراضي . ولما كانت اراضيها لا تنطوي الاَّ على موارد يسيرة للمواد التي تحتاج اليها ، فهي شديدة الاعتماد على التبادل الدولي في الحصول على معظم ما تحتاج اليه

وكأن رجال السياسة اكتشفوا مؤخراً فقط ان الامبراطورية البريطانية تشمل ربع اليابسة على سطح الكرة الارضية ، وتنتج نصف محصول العالم من الصوف والمطاط ، وربع محصوله من القمح ، وثلث محصوله من الشاي وكلَّ محصوله تقريباً من القصدير . وقد الفي بيان في مجلس اللوردات من عهد قريب ظهر منهُ ان الامبراطورية البريطانية ، غنية الموارد بثماني عشرة مادة من خمس وعشرين مادة لازمة للامم الصناعية الكبيرة ، وان محصولها من مادتين أخريين لا بأس به ، وانها في حاجة الى استيراد ما تستهلكهُ من خمس مواد أخرى فقط

يثابر هذا ان المانيا غنية الموارد بأربع من هذه المواد فقط ، ومحصولها من مادتين أخريين لا بأس به وانها تعتمد على الاستيراد في ما تحتاج اليه من بقية المواد وهي تسع عشرة مادة . قال الخطيب في مجلس اللوردات . ولسنا نعجب والحالة هي ما هي ان في المانيا واليابان وايطاليا قلقاً. فهم ان بريطانيا من اكثر الامم تعلقاً باهداب السلام ولكن الباعث على ذلك انها تملك كل ما تحتاج اليه . ومما يستوقف النظر بوجه خاص في كلام هذا الخطيب ما بين حب السلام والسيطرة على موارد المواد الخام من صلة . وقد كان على حق عندما قال ان الامة المتوتة الصلة بموارد المواد الضرورية مصدر من مصادر القلق في العالم

الا ان حالة المانيا تختلف عن حالة اليابان او حالة ايطاليا . فعلى الرغم من عضوية الامم ، اكتسحت اليابان منشوريا وضمت ايطاليا بلاد الحبشة اليها . وصار في الامكان ان نقول ان اليابان وايطاليا انتقلتا من صف الامم القليلة لقلة مواردها الى صف الامم الراضية بما تملك . اما المانيا ، فهي الدولة الكبيرة الوحيدة التي لا تزال غير راضية عن حالها . ولذلك ستقو المانيا ، على الرغم من حبها للسلام ، مصدراً من مصادر القلق العالمي ، ما زال موضوع المستعمرات وموارد المواد الخام من دون حل يرضيها

ففي سنة ١٩٢٩ عند ما كانت الدول لا تزال سخية في فتح الاعتمادات المالية لالمانيا وعقد القروض ، وعند ما كان الذهب لا يزال قاعدة للمعاملات التجارية الدولية ، انفقت المانيا في استيراد ما تحتاج اليه ١٤٦ر٠٠٠ر١ جنيه منها ٨٨٠ مليون جنيه انفقت في استيراد مواد الغذاء والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . ولكن مبلغ وارداتها هبط في سنة ١٩٣٥ الى ٣٣٦ مليون جنيه منها ٢٨٠ مليون جنيه في استيراد مواد الغذاء والمواد الخام وبضائع غير تامة الصنع . وهذا يدلك على ثقل القيود التي قيد بها انتاج المانيا الصناعي . فقد انفقت المانيا في سنة ١٩٣٥ مبلغ ١٦٠ مليون جنيه على شراء المواد الخام وبضائع غير تامة الصنع ، وهو اقل جداً مما تحتاج اليه صناعتها للمحافظة على مستوى معيشة شعبها . فالنجم الوردي الذي ابتلع على اثر تقرير مشروع دوز عندما انهالت الاموال على المانيا من الخارج ، قد تحول الى قتام الواقع عند ما امسك المتمولون ايديهم دونها. فمن السخرية اذاً قول من يقول ان المانيا تستطيع ان تبتاع كل ما تحتاج اليه من دون ان يكون لها مستعمرات . انها لا تستطيع ذلك لانها لا تملك من المال خارج بلادها ما يكفيها لذلك وهي لا تملك هذا المال لان الدول الاخرى لا تستهلك من منتوجاتها الا قدراً يسيراً

ففي هذه الحالة ، يزول العجب الذي يستولي على الكتاب ورجال السياسة ، عند ما يقرأون ان المانيا تحاول ان تصنع المواد الخام التي تحتاج اليها في بلادها بوسائل صناعية . انا نعلم انه اذا اصبنا النجاح في صنع بعض المواد التي نستطيع بها المواد التي كنا نستوردها ، فذلك يكلفنا كثيراً.

ولا بدَّ من ان الانصراف عن مبدإ الاكتفاء الذاتي لانهُ يفضي الى انخفاض في مستوى المعيشة في بلادنا . ولكننا لسنا مخيَّرين في ذلك ، ما زالت الاحوال السياسية تحول دون نشاطنا الاستعماري ولن يستتب السلام في اوربا حتى تحل هذه المشكلة

ولا يعني في هذا المقام الا ان اقول ان مبدأ الاكتفاء الذاتي لا يصح ان يكون هدفاً تحدى اليه الركائب . انهُ مناقض لقواعد الحضارة . فالاكتفاء الذاتي يعني العزلة . والنقص في التعامل الاقتصادي يفضي الى نقص في التعامل الذهني . وكذلك تدثر وسائل التبادل العلمي والفني والثقافي . فالحياة الاقتصادية القائمة على مبدإ الاكتفاء الذاتي تفضي الى اكتفاء ذاتي في الحياة العقلية . والعالم لا يرتقي الا بالتبادل

***

وهناك فريق من الكتاب والمفكرين يذهب الى ان العودة الى التبادل الاقتصادي الحر يزيد حصة المانيا منهُ وتصبح كذلك قادرة على شراء ما تحتاج اليهِ من المواد الخام . وسبيلهم الى هذه العودة خفض الحواجز الجمركية والغاء نظام الحصص وتشجيع التجارة الدولية الحرة . وكل مفكر يوافق على هذا الرأي ، ولكن العبرة في التنفيذ . والحائل الاكبر دون التنفيذ ، ان قوة البلاد الاقتصادية ، اصبحت في هذا العصر العامل الاساسي في تقرير ما لها من مقام سياسي . فامتلاك موارد المواد الخام اصبح في عهدنا مسألة سياسية ، بعد ان كان قبلاً مسألة اقتصادية

وكذلك اصبح تغيير قاعدة النقد وسيلة تستعمل للضغط السياسي . فالناس تظن ان منع المواد الخام او اباحتها يفضي الى التأثير في حالة خصم او صديق على التوالي . وقد رأينا تطبيق هذا الرأي في فرض العقوبات على ايطاليا . ورأينا كذلك ان كل امة شريفة لا تخضع مختارة لذلك إذ يستحيل عليها ان تسلم بالعيش وهي رهن رحمة الدول الاخرى

ومما يقال في هذا الصدد ان المستعمرات بوجه عام ، ومستعمرات المانيا السابقة بوجه خاص لا قيمة لها من الناحية الاقتصادية . فاذا صح ذلك فلماذا تحتفظ بها الامم الاخرى ؟ ومن الخطإ ان يشير الباحث الى ان مستعمرات المانيا السابقة لم تكن ذات شأن في حياة المانيا الاقتصادية قبل الحرب ؛ لان التجارة الحرة كانت واسعة النطاق حينئذٍ والمانيا كانت تستطيع ان تفوز بمعظم ما تحتاج اليهِ من اسواق العالم المختلفة . فلم تكن في حاجة في استغلال مستعمراتها استغلالاً تامًّا . ومع ان مستعمرات المانيا كانت وليدة العصر الحديث ، من العقد التاسع في القرن الماضي الى مطلع الحرب الكبرى ، الاَّ انها انجزت فيها من الاعمال والمنشآت ، اكثر مما أنجز على ايدي امم اخرى خلال قرنين من الزمان في بعض مستعمراتها

٢ — للمستر كيلنغ

في مجلة « الكوسموبوليتي »

اذا صرفنا النظر عن البواعث السياسية وجدنا ان البلدان التي تطالب بمستعمرات تبغي معالجتها على حاجتها اليها من الناحية الاقتصادية لانها تجد فيها موارد للمواد الخام واسواقاً للمصنوعات ومنافذ لازدحام السكان . وهي حجة تبدو مقنعة ولكن هل تؤيدها الحقائق ؟

اما في ما يتعلق بالمواد الخام ، فكلمة المستعمرات بوجه عام تعني المناطق الماحة للاستعمار اي المناطق التي ليست دولاً ذات سيادة او مستقلة استقلالاً ذاتياً كبلدان الدومنيون والهند في الامبراطورية البريطانية . فالمستعمرات بهذا التحديد مصدر ضئيل جداً من مصادر المواد الخام . ولعل المواد المهمة الضرورية للصناعة ، الصادرة من مستعمرات هي المطاط (وهو يكاد يكون احتكاراً استعمارياً) والقصدير . حتى اذا اضفنا الى ما تقدم المواد التي لا تصدر المستعمرات منها اكثر من ٥٠ في المائة من محصولها العالمي لما اضفنا الا النحاس والفصفات والفاناديوم وانتاج وجوز الناروجيل . اي ان المستعمرات لا تصدر الا أربع مواد أو خمساً ليست كلها في مقدمة ما تحتاج اليه الامم الصناعية . وهذا القول يصدق بوجه خاص على المستعمرات الافريقية . فما يصدر من افريقية كلها من المواد الخام الصناعية والغذائية اقل من ٤ في المائة من محصولها العالمي . فمستعمرات المانيا السابقة كانت لا تصدر الى المانيا الا مقداراً يقل عن واحد في المائة عما تستورده المانيا من المواد الخام

أما المواد الخام الاساسية في الصناعة والغذاء كالفحم والحديد والنفط والقطن والنحاس والقمح واللحم والالبان فتصدر جميعها من بلدان مستقلة ذات سيادة لا من المستعمرات . ويمكن ان يقال بوجه عام ان المصادر الرئيسية لمواد الصناعة والغذاء الاساسية هي الولايات المتحدة الاميركية واتحاد روسيا السوفيتية والامبراطورية البريطانية . فمن الخطأ القول بان اعادة توزيع المستعمرات يسد النقص في ما تحتاج اليه البلدان المطالبة بها من المواد الخام للصناعة والغذاء

ولكن اذا سلمنا جدلاً بانه يسد هذا النقص فهل للسيادة السياسية فائدة اقتصادية ؟ ان الرد المألوف على هذا السؤال هو ان السيادة السياسية ، ذات شأن بلا شك في اثناء الحرب . ولكن المستعمرات لا تجدي نفعاً اذا كانت الدولة صاحبة السيادة لا تملك من القوة البحرية ما يمكنها من ابقاء مسالك البحار مفتوحة لسفنها . فلننظر في أثر السيادة السياسية من الناحية الاقتصادية في ابان السلم ، فهل للدولة المستعمرة امتياز اقتصادي على سائر الدول في البلدان الخاضعة لها ؟

ليس ثمة ريب في ان هناك بعض امتيازات . واولها قائم على الرسوم الجمركية التفضيلية التي تفرض على الصادر من المستعمرة . فهذه الرسوم تفرض في بعض البلدان التي لم تبلغ شأواً اقتصادياً بعيداً كوسيلة لزيادة ايرادها . ولا يجوز توجيه النقد اليها من هذه الناحية . ولكن

بعض المستعمرات تفرض « ضرائب التصدير » لا بقصد زيادة ايراد البلاد ، بل بقصد تفضيل بلاد على اخرى من البلدان التي تستورد محصولاتها . وفي مقدمة البلدان التي تعمد الى هذه الوسيلة في مستعمراتها فرنسا والبرتوغال . الا ان رسوم التصدير التفضيلية في مستعمرات البرتوغال معتدلة في الغالب حالة انها في المستعمرات الفرنسية عالية جداً الا اذا كانت المواد المصدرة ذاهبة الى فرنسا نفسها . اما في الامبراطورية البريطانية فليس ثمة رسوم تفضيلية الا على ركاز القصدير . فما يفرض عليه عند تصديره من ملايا او نيجيريا عالٍ جداً الا اذا كان مرسلاً الى انكلترا او احد اجزاء الامبراطورية

ولا ريب في ان « التفضيل » على هذا المنوال غير مرغوب فيه من الناحية العالمية وخطره حيث يكون الاحتكار . ولكنهُ لا يعرقل قدرة اي امة من الامم على شراء ما تريده في اسواق العالم الاخرى ، اذ لا تعرف مادة واحدة ، في البلدان التي تعتمد على هذه الوسيلة محتكرة فيها احتكاراً تاماً . حتى ركاز القصدير المشار اليه لا يستخرج منهُ من مناجم ملايا ونيجيريا الا ٤٠ في المائة من المحصول العالمي . والباقي يستخرج من مناجم في بلدان اخرى لا تفرض رسوم التصدير التفضيلية

وهناك نوع آخر من التفضيل ينجم عن شركات المنتجين الكبيرة التي تنشىء ما يشبه احتكاراً ثم تتحكم في الاسعار على نحو ما فعلت في المطاط والنحاس ، فكانت النتيجة ، ان تحكمها ورفع الاسعار افضيا الى زراعة اشجار المطاط في بلدان اخرى ، واستغلال مناجم نحاس كانت مهملة . ويظهر ان الشركات والحكومات قد افادت عبرة من حوادث الماضي فتأسست (فيما يتعلق بالتصدير والمطاط) تمثيل البلدان المستهلكة الرئيسية في المجالس الاستشارية للشركات او الحكومات . وينتظر ان يشمل هذا النظام مواد اخرى منعاً للتحكم . وعلاوة على ذلك ان الشركات التي تتحكم بالاسعار لا تفرق بين دولة واخرى تفضيلاً وتميزاً لجميع الدول المستهلكة في نظرها سواء

الا ان ما تقدم يؤثر فقط في ما تشتريه الدول من المواد الخام الصادرة من المستعمرات . ولكن الدول المطالبة بالمستعمرات تطالب بها لانها تريد ان تستغلها . والردُّ الغالب على هذا الطلب ان الدول المطالبة لا تملك من رؤوس الاموال ما يكفي لهذا الاستغلال . وهذا يصدق بوجه خاص على المانيا . لان اليابان وايطاليا صدّرتا قدراً من المال لاستغلاله . فلليابان مال مستثمر في الصين ومنشوكو وجزائر الهند الشرقية الهولندية وملايا البريطانية . ولايطاليا مصالح مالية في غط رومانيا والعراق وفي بعض بلدان اميركا الجنوبية

ولكن لنسلم جدلاً هنا ايضاً بأن البلدان المطالبة بالمستعمرات تملك قدراً كافياً من المال لتصديره وتثميره . فهل ثمة عقبة ما تحول دون تثميره في المستعمرات الخاضعة لدول أخرى ؟ ليس في مستعمرات بريطانيا وهولندة على الاقل ما يبعث على الشكوى . ففي ملايا البريطانية مناجم حديد ومغنيس تملكها اليابان ، ومزارع مطاط يملكها الايطاليون ، واليابانيون ، وغيرهم

وللشركات الاميركية نصيب كبير من السيطرة على منتجات المتفيس في الشاطىء الذهبي ومنتجات البوكسيت في غانة البريطانية . والمادة الوحيدة في الامبراطورية البريطانية التي يقصر استغلالها على البريطانيين هي النفط . ولكن النفط في المستعمرات الهولندية ليس محصوراً في أحد بوجه خاص . والاميركيون يسيطرون على قسط وافر من منتجات النفط في جزائر الهند الشرقية الهولندية . والامثلة على ذلك متعددة

الا أن مشكلة المواد الخام ، هي في المقام الاول مشكلة توفية الثمن ولا سيما عند ما يوفى الثمن بنقد أجنبي . اذ لا ريب في الفائدة التي تجنى ، عند ما تكون المواد الخام في منطقة تستعمل نفس النقد الذي تستعمله الامة التي تستوردها ولذلك رميت الدول المستعمرة بسيطرة غير مباشرة على المواد الخام بواسطة اقامة الحواجز الجركية حول المستعمرات . فيمنع ذلك اتباع هذه المستعمرات بضائع أمم أخرى ، فتعجز هذه الامم عن توفية ثمن ما تشتريه منها بثمن ما تصدره اليها . وكذلك يقع التفضيل من طريقة عرقلة أساليب التسديد

وهذه عقبة كبيرة اذا ثبت ان المستعمرات اسواق كبيرة ، وان هذا التفضيل واقع حقاً . والواقع ان سياسة الباب المفتوح في نصف مستعمرات العالم مضمونة بمعاهدات دولية أي ان المستعمرات التي تشملها هذه المعاهدات لا يمكنها ان تقيم حواجز جركية تفضل بها دولة على اخرى من دول الجامعة . ولم تستثن اليابان ولا المانيا من ذلك . وهذه المعاهدات تشمل جميع بلدان الانتداب من طبقة B و C وكل حوض الكنغو بما فيه شرق افريقية البريطاني وافريقية الاستوائية الفرنسية ، وغرب افريقية البرتغالية والسودان وروديسيا الجنوبية . اما في مراكش فسياسة الباب المفتوح كانت جزءاً من التسوية الدولية التي عقدت بعد أزمة ١٩٠٦ في مؤتمر الجزيرة . الا ان سياسة الباب المفتوح ألغيت خارج هذه المناطق . حتى هولندا وبريطانيا المشهورتين بغورهما من سياسة الحواجز والتفضيل التجاري ، عمدتا اليها خارج المناطق التي لا تشملها معاهدات الباب المفتوح . ومع ذلك فان جميع المستعمرات في العالم لا تتباع اكثر من ١٠ في المائة من مجموع الصادرات العالمية

فمشكلة «النقد الاجنبي» الذي لا بد منه للدول المتبرمة في شرائها ما تحتاج اليه من المواد الخام ليست مسألة استعمارية ، تحل بتوزيع المستعمرات من جديد . انها مسألة تمت الى اتساع التجارة العالمية ، اولاً ، والى بعض العوامل السياسية ثانياً . حتى اتساع التجارة العالمية وحده لا يكفي ، ما زالت الصين تقاطع اليابان ، واليهود في مختلف بلدان العالم يقاطعون صادرات المانيا ، ومصانع السلاح والذخيرة تلح في الحصول على مقادير كبيرة بل استثنائية من المواد اللازمة لها . اما موضوع المستعمرات من حيث هي منافذ للسكان فله بحث آخر

لواء الاسكندرونة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

(خليج الاسكندرونة) هو الخليج الوحيد على الساحل السوري ذو القيمة الاقتصادية والحربية البارزة ، ويبلغ طوله نحو ستين كيلومتراً وعرضه دون الاربعين وعمقه ٣٧ متراً ، والمسافة بينه من مدينة الاسكندرونة وبين مدينة جرابلس على نهر الفرات لاتتجاوز مائة ميل في حين ان المسافة بين بيروت وبين مدينة (ابوكمال) على الفرات ايضاً تربي على ثلاثمائة وخمسين ميلاً وهذا يدلنا على ما لهذا الخليج من الشأن الاقتصادي في مستقبل الايام بالنظر الى انهُ يحوي الميناء الطبيعي على البحر المتوسط الابعد ليس لشمال سورية فقط بل له وللقسم الشمالي من العراق ايضاً . وان لنظرة واحدة على المنصور الجغرافي تقنع المرء بان هذا الخليج هو المنفذ الطبيعي للاساطيل يحميها من عواصف البحر واخطار النواصات ويزودها بمعظم ما تحتاج اليه

(لواء الاسكندرونة) يتألف لواء الاسكندرونة من الاقضية الثلاثة الآتية (١) الاسكندرونة (٢) قرق خان (٣) انطاكية . ويهمني ان اوجه نظركم الى ان الكتب والاحصائيات التي وضعت قبل هذه الازمة وما فيها من اغراض في التحريف والتبديل ومخالفة الواقع نصت على ان الترك في اللواء هم اقلية. فقد جاء « في الجزولة الآرية » للاستاذ وصفي زكريا ص ٥٦ وقد طبعت سنة ١٩٣٤ ان الترك مع التركمان يؤلفون من خمسة وثلاثين الى اربعين في المائة من مجموع السكان، وفي الاحصاء الرسمي الذي صدر في حلب سنة ١٩٣٢ كان عدد السكان في اللواء كما يأتي بالتقريب ٢٠٠٠٠ من العرب السنيين و ٥٥٠٠٠ من العرب النصيرية و ٢٥٠٠٠ من العرب المسيحيين و ٤٤٠ من اليهود و ١٣٥٥٠ من الارمن و ٢٠٠٠ من الكرد و ١٠٠٠ من الشركس و ٧٠٠٠٠ من الترك. وجاء في الملحق رقم ٣ من البيان الذي اصدرتهُ اخيراً لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مجموع عدد السكان في اللواء ٢١٩٠٨٠ منهم ٢٤٢٠٨٥ من الترك و ١١٠٠٣٠ من العرب و ٩١١٠٢٤ من الارمن و ٥٨١٧ من سائر العناصر فيكون الترك بنسبة ٣٨٫٩٠ في المائة والعرب ٥٧٫٠٧ والارمن ١١٫٣٧ وسائر العناصر ٢٫٦٦

وقد طبقت السلطة الفرنسية على هذا اللواء المعاهدة التي عقدتها مع الترك في اليوم العشرين

(١) نص المحاضرة التي القاها في جمعية الشبان المسلمين في القاهرة في مساء يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧

من اكتوبر — تشرين الاول — سنة ١٩٢١ وهي معاهدة انقره فكان مستقلاً في مقارنة وزراعته واشغاله العامة وكان المتصرف فيه مربوطاً بمندوب المفوض السامي وكانت النفوذ الثرسية فيه العربية والتركية والفرنسية . ومما هو جري بالتدوين ان الدولة المنتدبة غيّرت في حدوده الجغرافية وتقاسيمه السياسية بالنسبة الى منطقة حلب فصيراً يضم اليه اكبر عدد من الترك ممكن ويخرج منهُ اكبر عدد من العرب ومع ذلك فقد أتت النسبة المئوية كما تقدم ، وفي (الجزيرة الاثرية) ان العشيرية يقطنون في الاسكندرونة والساحل الممتد منها الى بليدة عرسوس وفي نفس انطاكية والجبال الممتدة منها غرباً نحو ميناء السويدية ، ويقطن الارمن في جبل موسى واعضاده الممتدة حتى ساحل البحر وفي ناحية كسب وفي بليدة قرق خان ، ويقطن الشركس في قرى حربان والريحانية وهم من سهل السق ويقطن الترك وكذلك التركمان — وهم الذين نزلوا تلك الانحاء في زمن الدولتين النورية والصلاحية — في جبل السكام واعضاده الممتدة شمال الاسكندرونة وشرقها وفي بعض سهل السق وفي الجبل الاحمر واعضاده الممتدة الى جنوب عرسوس وكسريك وينطن الكرد في حرة اللجة شمال السهل المذكور

ويوجد ان الامية في لواء الاسكندرونة ٥١ في المائة بينما هي في لبنان ٤٢ وفي دمشق ٥٥ وفي حلب ٦٣ وربما استفادت هذه المنطقة من نهر العاصي فائدة كبيرة من مائه لاجل الري ومن قوته لاجل تحريك الآلات وتوليد الكهربائية . فقد وجد ان تصريف الادنى بالقرب من انطاكية في سنة ١٩٣٢ ثلاثين متراً مكعباً في الثانية في حين لا يتجاوز هذا التصريف في نهر بردى اكثر من اربعة امتار ، ووجد انهُ ينحدر انحداراً كلياً بالقرب من انطاكية مما يزيد البلاد بقوة تبلغ الوف الاحصنة ، ويوجد معدن الكروم في الاسكندرونة والذهب بمقادير ضئيلة في سهل نهر بالقرب من انطاكية ، والنحاس بمقادير قليلة وفلز المنغنيز الجيد في جبل السكام او اماتوس

الشهادة بسوريّة هذا اللواء قبل ان تخلق قضية الاختلاف عليه بين الترك والعرب : قال بليون ان الصخور التي تفصل الشام من الشمال عن اسيا الصغرى ليس لها مثيل في التخوم الطبيعية ، وقال شيخ الربوة وهو من علماء القرون الوسطى حد الشام من ملطية الى العريش وعرضه الاعرض من منبج الى طرسوس . وعدّ ياقوت الحموي من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وآذنه وانطاكية وجميع العواصم من عرعش والحدث وغير ذلك ، وقال ابن حوقل المتوفى في القرن الرابع للهجرة في كتابه (المسالك والممالك) « ان انطاكية أنزه بلد الشام بعد دمشق » وجاء في المعلمة البريطانية في طبعتها التاسعة « ان الاسكندرونة تقع على اقصى الساحل السوري الشمالي حيث يؤلف هذا الساحل مع ساحل آسيا الصغرى او الاناضول زاوية . . . . وهذه المدينة هي ميناء حلب وتكون بطبيعة الحال ميناء سكة حديد تمتد على نهر الفرات » . وجاء في دائرة

المعارف الاسلامية « ان الاسكندرونة او اسكندرية العرب — كما جاء في مخطوطات الاصطخري وابن حوقل — هي ميناء حلب على البحر الابيض المتوسط وانها كانت في عهد العرب تابعة لجند قنسرين — حلب (اي منطقتها الحربية بحسب تقاسيم تلك الايام العسكرية) . انها عمرت في زمن ابي الفداء ولكنها استعادت بعد ذلك شأنها باعتبارها ميناء لمدينة حلب التي كانت آخذة في الانتعاش» . وقال استاذنا المرحوم سليم بن يوسف ان سوريه يحدها شمالاً اسيا الصغرى . وقال (يذكر) ان حد الشام من طورس الى مصر . وجعل (اليزه ركلو) العالم الفرنسي الجغرافي المشهور حد الشام من جبال اللكام الى طورسينا . وقال (فيدال غينه) ان الفرمانات السلطانية والوثائق الرسمية على عهد الدولة العثمانية كانت تسمي البلاد التي تحدها جبال طورس شمالاً وصحراء سينا جنوباً « عربستان» او بلاد العرب . وجاء في بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان صديقنا العلامة المرحوم الاستاذ هوجارث عميد جامعة اكسفورد قال « اذا اخذنا سورية كقطر يحده البحر وصحراء الحماد وجبال طورس وصحراء سينا تكوّن لدينا متبسط جغرافي متناسق بحدود طبيعية صريحة وهي وحدة في منظرها الخارجي . . . . وان مكانة الاسكندرونة ناشئة عن علاقتها مع ممر بيلان ، وهو باب سورية في عهد التواريخ — الذي هو عبارة عن مدخل عين الى سهول سورية الشمالية التي كانت انطاكية وحلب عاصمة لها منذ القدم وكذلك فان الاسكندرونة هي المرفأ الهام لسورية الشمالية . . . . . وان الخصائص الجغرافية التي تتمتع بها انطاكية تجعل منها عاصمة سورية قالما يتجه الطريقان المباشران من البحر الابيض المتوسط الى الداخل الخ »

(الشعوب السامية ولواء الاسكندرونة) ذكر المؤرخان اليونانيان (هيرودتس) و(زينوفون) ان (ميرياندروس) وهي مدينة كانت قريبة من الاسكندرونة كان يقطنها فريق من الفينيقيين ابناء عم العرب ، وجاء في كتاب (تحمل التاريخ) للاستاذ (كوك) ان السلالة السامية — وهي تشمل الارمن والبابليين والاشوريين والعرب والفينيقيين والعبرانيين والموآبيين تسكن المنطقة التي تحدها من الشمال جبال طوروس . وفي بيان لجنة الدفاع عن الاسكندرونة ان مباحث علم اصل البشر التي قامت بها مختبر الجامعة الاميركية في بيروت والتي اجريت في امستردام واكسفورد دلّت على ان سكان الجبال في مناطق الاسكندرونة وانطاكية لا يختلفون في شيء عن سكان جبال سورية ولبنان وبلاد العرب الجنوبية ، ولدينا نص تاريخي على ان الملكة زنوبيا التدمرية (الزباء) دخلت انطاكية فاتحة في سنة ٢٦٦ للمسيح وان صورتها نقشت على سكة هذه المدينة ولدينا نصوص اخرى على اتصال العرب بتلك الانحاء منذ القديم . فقد جاء في التاريخ ان عربان البادية هاجموا ضاحية انطاكية في سنة ٤٠٤ للمسيح ، وفي مدينة (الرها) في الشمال كان بيت

(الاغير) يسيطر على القبائل العربية في شمال سورية ، وبعد ما فتح ابو عبيدة حمص بعث خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف عليه الروم بقيادة ميناس اعظم رجالهم بعد هرقل فالتقى الجيشان في الحاضر فقتل ميناس ومن معهُ فلما رأى الروم ذلك ولوا على وجهه حتى لم يبق منهم احد واما اهل الحاضر فارسلوا الى خالد انهم « عرب » وانهم انما حضروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم

ومما هو جري بالتدوين ويدل على نوع الشعوب التي كانت تقطن تلك الانحاء وانها سلالات سامية انّ ابا عبيدة ابن الجراح لما وصل الى جبل اللكام (امنوس) وهي الجبل الذي يمتدىء من البحر في منطقة الاسكندرونة صالح سكانه (الجراجمة) وهم اصل الموارنة في لبنان — وكانوا يومئذٍ بين رياس وبوقا — على ان يكونوا اعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام — والمسالح جمع مسلحة وهي الحامية المسلحة

ومن النصوص الدالة على ارتباط هذه المنطقة بسورية ارتباطاً وثيقاً خاصًّا ان السلوقيين كانوا يسمون الطاكية (الطاكية سورية) ليفرقوا بينها وبين المدن اليونانية الاخرى التي تشاطرها هذا الاسم ، وتُدعى عمر (يلان) او عمر (ايسوس) في الوثائق التاريخية (باب سورية)

ولهذه المنطقة شأن عظيم في تاريخ النصرانية فقد دخل هذا الدين انطاكية في سنة ٢٣ للميلاد ومن هذه المدينة انتشر التبشير به في الانحاء وفيها نشأت الخلافات الدينية المذهبية . وفي العهد الروماني ظهر فيها رجل من رجال النصرانية كان لهُ شأن كبير وهو يوحنا فم الذهب الذي اشتهر بصلاحه وطلاقة لسانه ومواعظه التي كان يلقيها على اهل انطاكية الى ان نفي مرات في طريقه الى المنفى ، وكانت انطاكية في سالف العصر مقرًّا لجميع البطاركة وهي لا تزال الى الآن مقرًّا لبطارك الشرقيين ويطلق عليهم اسم بطارق انطاكية وسائر المشرق والنصرانية هي اليوم سورية والنصارى فيها من صميم السوريين

(الوجهة الاقتصادية) تتجلى الوحدة الاقتصادية بين هذا اللواء وحلب بان عاصمة الحمدانيين هي السوق الطبيعية لمنتجات هذا اللواء من خضر واثمار وحبوب ولحم ثماني واسماك ، وقرى هذا اللواء وما لها من مناظر خلابة ومياه عذبة وهواء نقي هي المصطاف الطبيعي للحلبيين ، والقسم الاعظم من التجارة الخارجية التي تمر بالاسكندرونة هي اما ان تكون واردة من حلب او صادرة اليها . ودلت الاحصائيات بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٣٣ على ان ٢١ في المائة من مجموع ما دخل مرافىء سورية الاربعة — وهي بيروت وطرابلس واللاذقية والاسكندرونة — من صادرات وواردات (وبضائع النقل « ترانزيت » داخلة في ذلك) هو من امكلة الاسكندرونة

(النصيرية) هي طائفة النصيريين المنتشرة في هذا القرار وفي الجهات المجاورة له وتسمى النصيرية نسبة لنصير غلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب . وقد انتشر في الكتب التي كتبت عنهم قديماً انهم يؤلهون علي بن ابي طالب ويعتقدون ان سكنه السحاب حتى اذا مرت بهم سحب قالوا السلام عليك يا ابا الحسن ويقولون ان الرعد صوته والبرق ضحكه . وان سلمان الفارسي وسراه وميمون بن مهران قائله ويقولون انه خلص اللاهوت من الناسوت . وفي بعض الكتب ان كلمة « عمس » المختزلة من علي ومحمد وسلمان هي كلمة المرور بينهم ، وهم يخفون عقائدهم عن غيرهم ويعظمون الخمر ويرون انها من النور لاجرم انهم يعظمون شجرة العنب ويتجنبون قطعها ولكن جاء في المجلد السادس من خطط الشام للاستاذ كرد علي ان صاحب « تاريخ العلويين » قال انهم ليس لهم ديانة خاصة بل هم مسلمون شيعيون جعفريون يعتقدون ان الائمة الاثني عشر معصومون من الخطأ وان قول الامام دلالة قطعية وهو لا يمكنه ان يخالف القرآن او الحديث ولا يحق لاحد ان يؤول القرآن سوى اهل البيت ، وهم ينتسبون الى طريقة تدعى الجبلاية وهذه الطريقة هي التي ادت الى افتراقهم عن بقية الاثني عشرية . وهم فيما بينهم قد تفرقوا الى عشائر وأفخاذ ترجع كلها الى اربعة اصول كبيرة هي الخيّاطون والحدادون والكلبية والقاورة

وقد افتى غير واحد من رجال الدين المتأخرين بصحة اسلامهم استناداً الى ما جاء في الحديث « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو منا » والى آيات واحاديث اخرى وفتاوى وردت في كتب الفقهاء المتقدمين

(الاسكندرونة) وتقع الاسكندرونة على الطرف الشرقي من الساحل الجنوبي وعلى القرب منها والى الشمال تقع (بياس) حيث تبتدىء الحدود بين تركيا وسورية ، وقدر لي ان زرت الاسكندرونة في سنة ١٩١٢ لما كنت ذاهباً في الجيش الثماني الى حرب البلقان فألفيتها مدينة ذات مناظر خلابة تحيط بها روابٍ زمردية من جبال اللكام وهي واقعة في منبسط من الارض ويبلغ عدد سكانها في الاحصاء الحديث زهاء خمسة عشر الفاً فيهم العرب والترك والارمن ، وهؤلاء لجأوا اليها بعد الاضطهادات التي ذاقوها في بلاد الترك ، والعرب سنيون وعلويون ومسيحيون من الروم الارثوذكس غالباً ، وذكر الذين زاروها في الآونة الاخيرة ان مبانيها مثل سائر مباني المدن الشرقية الناهضة المتصاعدة بالمدنية الحديثة منها القديم المرقع والتداعي والأكواخ التي يقطنها الفلاحون في الجهة القبلية . ومنها الجديد الذي لا يختلف عن مباني بيروت لا بحجره ولا بالأجر الاحمر — الترميد — الذي يكسو سطوحه . وكذلك الحال في طرقاتها وشوارعها فمنها الضيق المعوج ومنها المستقيم المعبد العريض ولها مرفأ صغير في جهتها الشرقية والقرب منهُ المكس والمعامل والمستودعات التي بنتها شركتا النفط وعرق السوس

ولما زرتها لم يكن قد تمّ بعد فرع سكة الحديد الذي يربطها بحلب وهو فرع يمتد منها الى قلعة عجيبة على رأس هضبة تدعى (طوپراق قلعة).

أطلقوا على المدينة من عهد (يلان) او عهد ايسوس وهو الذي دعاه الأقدمون (باب سورية) ومشينا في طريق منحدرة فوجدنا المستنقعات تحيط بهذه المدينة وهذا سر وباء الملاريا او البرداء التي تفتك بأهليها في أيام القيظ والخريف، ويبلغ الحر فيها مع الرطوبة في الصيف درجة الاشباع لوقوف جبل اللكام سدًّا من ورائها حتى اذا اصطدم هواء البحر بهذه الجبال تجمعت فيه الأبخرة وتكثفت بحيث تحجب قرص الشمس

وأذكر أني أكلت فيها سمكاً من الفرجان مقلوًّا لم أستطب سمكاً مثله وقد اشتريتهُ من طاهٍ يحمل مقلاته ويبيعهُ في الشوارع

بنا هذه المدينة (انتيخون) أحد خلفاء الاسكندر في سنة ٣٣٣ قبل المسيح تخليداً للنصر العظيم الذي أحرزه هذا الملك الجبار على داريوس ملك الفرس في معركة (ايسوس)، ولما فتحها المسلمون في زمن ابي عبيدة بن الجراح وجدوها خراباً يباباً فلم يرد لها ذكر في فتوحاتهم لكنها استعادت سؤددها بالتدريج حتى ان السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد بنت فيها حصناً او صرحاً وما كان نفس الصرح الذي رممهُ ورسمهُ احمد بن ابي داود الأيادي في زمن الخليفة الواثق وظلت هذه المدينة مرمًى للغزاة من المسلمين والروم الى أن استولى عليها الصليبيون فعادت الى الخراب وأصبحت ملجأ للقوص من البر والبحر الى ان طلب التجار الافرنج المقيمون في حلب من الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري ان تجعلها مرسى حلب فأجابتهم الى طلبهم، وكان لها شأن قبل فتح قناة السويس لان الانكليز اتخذوها اقرب محطة للهند بطريق البحر المتوسط وقد تستعيد هذا الشأن اذا كثرت وتنوعت الطرق التي توصلها بالداخل وفي سنة ١٢٤٨ جاءها ابرهيم باشا المصري بجيوشه وأنشأ فيها مصنعاً للسفن يأتيه بالأخشاب اللازمة لهُ من جبل اللكام. وفي سنة ١٢٩٥ جعلتها الدولة العثمانية قضاء تابعاً لولاية حلب

***

(الطاكية): شادها سلوقوس نيكاتور احد خلفاء الاسكندر الثلاثة في سنة ثلاثمائة قبل المسيح ودعاها باسم والده. ثم استولى عليها الرومانيون فابتدأ حكمهم فيها في سنة ٦٤ ق. م. وتربع على كرسي الولاية فيها اكابرهم «الجولة الاثرية ص ٥٢» امثال بومبيوس ويوليوس قيصر وانطونيوس: جاء هذا اليها في سنة ٣٨ ق. م. ومعهُ زوجه كليوپاترة، وفي التاريخ ان جوليا دومنا السيدة السورية الحمصية زوجة الامبراطور سبتيموس سفيروس كان لها فضل عظيم على

مدينة انطاكية حين اجتاحت . بيد أن كراكلا المولود في حمص على ان يرد الى هذه المدينة ما سلبهُ والده الامبراطور عنها من الامتيازات . وفي اواخر القرن الرابع للمسيح دخلت انطاكية في قبضة البزنطيين . وفي سنة ٦٣٨ فتحها المسلمون على يد ابي عبيدة بن الجراح .

وفي كتاب « الاعلام » للاستاذ خير الدين الزركلي «ان حبيباً الفهري وهو ابو عبد الرحمن حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي دخل دمشق مع ابي عبيدة فولاهُ ابو عبيدة انطاكية وقد توفي سنة ٤٢ هـ » . وروات انطاكية الرخاء وتقدمت تقدماً كبيراً في زمن الامويين

وفي اواخر القرن الخامس للهجرة فتحها الصليبيون . ولكن في سنة ٦٦٦ هـ افتتحها عنوة الملك الظاهر بيبرس بعد معركة من اشد المعارك هولاً على السكان ، ثم جاء الفتح العثماني فبقيت في قبضة العثمانيين الى اواخر الحرب العالمية ، ومن المهم ان يذكر القراء ان الاهلين فيها وفي سائر انحاء اللواء استقبلوا الجيش العربي استقبال الفاتح المنقذ وايدوهُ في اعماله . وانطاكية مذكورة في التاريخ دائماً بالزلازل التي كانت تنتابها كالزلزلة العظيمة التي اصابتها سنة ١٨٢٢ . وكان عدد سكانها في زمن ثيودوسيوس مائتي الف ولكنهم كانوا في سنة ١٨٣٥ خمسة آلاف وستمائة يضاف اليهم ستة آلاف جندي مصري بقيادة ابراهيم باشا ويبلغ عددهم اليوم خمسة وثلاثين الفاً . وقد جلب الى هذه المدينة ماء (دفنة) في انابيب حديدية وانيرت بالكهرباء وفيها اربعة وعشرون مسجداً واربع كنائس وكنيس واحد لليهود . وصادراتها الصابون وفياض الحرير والصوف والحبوب وزيت الزيتون والسمك والقطن والتطران . وفيها صناعات متنوعة للغزل والدباغة والنسج والخشب وفاكهتها من اجود فاكهة . وذكر لي صديق من اهلها ان اربع خوخات — دراقنات — من خوخها تزن اقة كاملة ، وهذه المحصولات لا تباع في اسواق حلب فقط بل ان فاكهة انطاكية تزاحم فاكهة الشام في اسواق بيروت ايضاً . واذا صحت الاخبار التي تناقلها البرق اخيراً وأفاضت في ذكرها الصحف من ان في هذا اللواء ينابيع للنفط بالقرب من الاسكندرونة متصلة في جوف الارض بينابيع الموصل . فسيكون لهذه الينابيع شأن خطير في مصير هذا الجزء من بلادنا العزيزة

***

لقد آمنت بالحق قبل ان أؤمن بالوطن ولو لم اعلم ان هذا اللواء جزء من سورية العربية لما تجزأ ما تنزلت للوقوف هنا أرهق أسماعكم الحساسة وأضيع أوقاتكم الثمينة بالدفاع عنهُ فالحق اولاً ، والوطن ثانياً ، ومن لا يؤمن بالحق لا يؤمن بالوطن

حديقة المقتطف

بوشكين

أمير شعراء روسيا

لحليم دمري

اوجين اونيل

من مسرحياته « فصل معترض »

لفؤاد عيناني

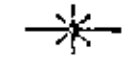

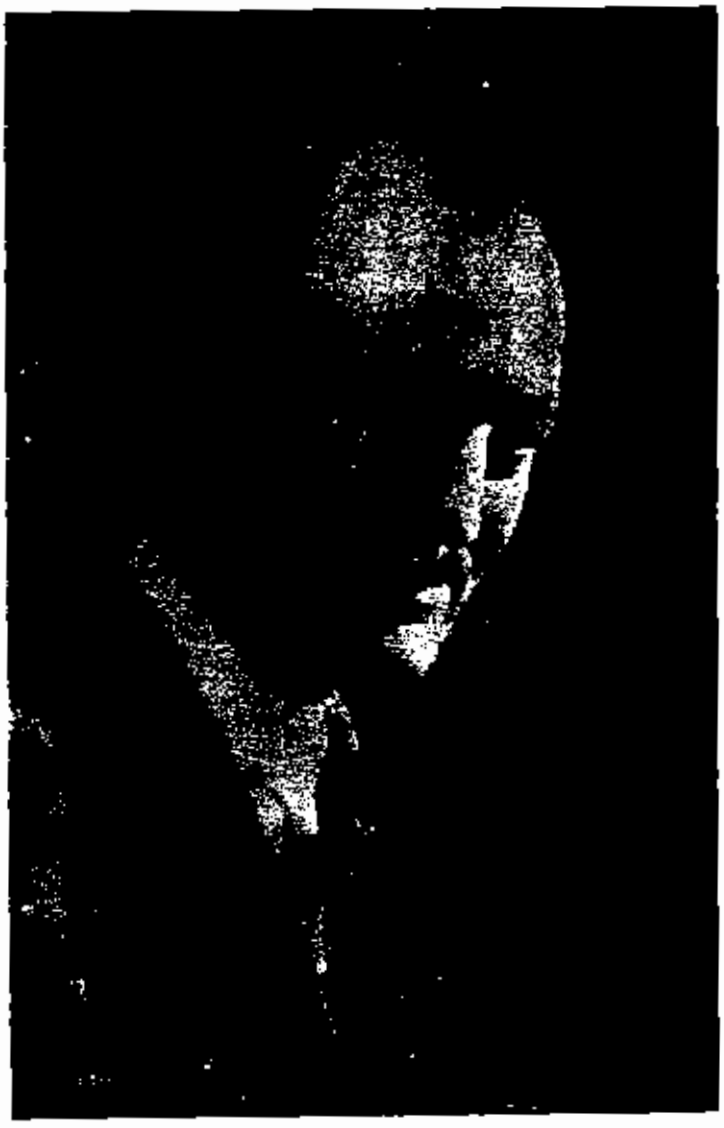

قيصر صابر

صاحب الرسالة القيمة في «الحضارة الحنية» التي نشرنا خاتمها في هذا الجزء

بوشكين

« أمير شعراء روسيا »

لحليم دمرى

عصر الشاعر

غزا نابليون روسيا عام ١٨١٢ واعتبر المؤرخون غزوته أكبر ظاهرة في تاريخ روسيا الحديث الى ان وقع الانقلاب الشيوعي . ولقد أثار توغل الجيش الفرنسي في روسيا الشعور القومي بل كان سبباً مباشراً للثورة النفسية الفكرية بل لتلك الزوبعة السياسية الخطيرة التي غامت فيها سحائب الخصومة واتقدت في نفس الشعب اسلافي امجد الحمية الوطنية . فاشترك الفرد والجماعة في غاية واحدة نبيلة هي دفع المعتدي للاحتفاظ باستقلال الوطن . ولقد أتيح لقادة الجيش كما أتيح لقادة الجماهير ان يضطروا الطاهل العظيم « نابليون » الى الارتداد عن روسيا بعدما عانت جيوشه شتى المصاعب وبعد ان احتمل الجندي الفرنسي ألم الجوع في شتاء قارص البرد شديد الزوابع الثلجية . أما « موسكو » فقد أحرقها أهلها وأما نابليون فقد رجع الى باريس لا يلوي على شيء . .

ولقد كان الشباب في روسيا يتطلع الى « باريس » حيث انبثق فجر الفلسفة الحديثة والافكار الاجتماعية الجديدة . ولقد كان الشباب يميل بحكم مظهره آنئذ الى تلك الاريستوقراطية المحافظة بل الى تلك المظاهر الخاصة بالبلاط الروسي

استطاع الأدب ان يكون مظهراً عظيماً من مظاهر الحياة الاجتماعية بل كان الأدب خصباً منتجاً ووديعة مقدسة بين أيدي الشباب . ولقد نشأت في هذا العصر تلك الخصومة الخالدة بين المحافظين على آداب القرون الوسطى ونزعاتها المختلفة وبين اصحاب الجديد ممن يرون الحياة كما هي لا يعيشون على الماضي ولا يتخذون من القديم معبوداً . ولعل الشاعر « جريبويدوف » يتحدث في شيء من السخرية في قصته الرائعة التي عنوانها « الهم من الذكاء » « Woe from Wit » عن هذه الخصومة الادبية

ولقد تألفت جماعة من شباب روسيا بعضهم من الحرس القيصري ينادون بحرية الفلاح والدستور . على أنهُ لم يمضِ بضعة اسابيع سنة ١٨٢٥ حتى شنق منهم خمسة من بينهم الشاعر المعروف « ريليف » وعرفوا بالديسمبريين فكان ذلك صدمة قوية هزت الأدب واساءتهُ في الصميم سدَّدها الى الديمقراطية القيصر « نيقولا الاول »

كان الأدب في اوربا إبان تلك الثورة الاجتماعية في روسيا بالغاً شأواً عظيماً بل كان نبراساً يضيء ظلمات ذلك العهد الذي مثل فيه الطغيان بصورة من هذه الصور « الاقطاعية » البالية . وطبيعي ان تنتقل الفلسفة في شتى مناحيها والادب في مختلف صوره الى روسيا حيث هذا الروح الادبي الناشيء في ساحة الجهاد . وهنالك نشطت الدعاية للتفكير الحديث وللأخذ بأسباب الرقي العقلي . وبلغ الشعر في هذا العهد مكانة رفيعة بل قد بلغ كماله المزموق في امير شعراء روسيا الشاعر العبقري « الكسندر سيرجفتش بوشكين » الموصوف بالمتنبي

وُلد « بوشكين » في موسكو في ٧ يونيو وفي رواية اخرى في ٢٥ مايو سنة ١٧٩٩ وكان أبوه نبيلاً وأمهُ نمت الى ابراهام دانيال الزنجي الأفريقي الذي قرَّبهُ بطرس الاكبر فورث منهُ شعرهُ الجعد ومزاجه الحاد . تلقى علومه في مدرسة تسار كوسيلو على مقربة من بطرسبرج وكان يكثر من الاطلاع في مكتبة أبيه الزاخرة بالمؤلفات الفرنسية . كان يجيد عدة لغات يطلع على آثارها ويكتب بما احتوتهُ من آثار علمية وأدبية . وعرف عن اخلاقه الاستهتار والسخرية والاسراف . ولقد حوى شعره كثيراً من هذه السخرية التي تتميز بها طبيعة بعض الشعراء

نشرت قصائده الاولى عند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٢٠ نشرت قصتهُ الشعرية البليغة « رسلان ولودميلا » وفي السنة نفسها عين في منصب في « بيسرابيا » بجنوب روسيا انقاذاً لهُ من النفي الى سيبيريا وكان الباعث على نفيه قصيدة في « الحرية » اذاعها مخطوطة . ولقد أتيح لهُ وهو في القوقاز ان يستوحي روعة تلك البلاد . فكتب « سجين القوقاز » وهي قصة شعرية تصف غرام فتاة شركسية بضابط روسي . وفي عام ١٨٢٤ عاد الى قرية أبيه في « بوسكوف » بعد ان نظم قصيدة رائعة في البحر عند مغادرته اودسا . وهنالك قضى سنتين كتب فيها أدعى مخلفاته الادبية للخلود ومن بينها ذكريات حياته التي أودعها الشعر كما كتب قصته الطريفة « أوجين

أونيجين» وانك تلمس في بداءة هذه القصة الروح الشعري الذي تأثره بوشكين كما تستطيع ان تلمس في بسر وسهولة «روح» الشاعر الانجليزي بيرون. ولقد كان «بيرون» نموذجاً رفيعاً تمثله الشاعر في مناحي شعره بل كان الصخرة البارزة التي قام عليها نبوغ الشاعر «بوشكين». لم يتأثر بوشكين في بيرون نزعته الرومانطيقية بل كانت «الواقعية» هدفه الأسمى. ولعلك واجد أثر هذا في «كونت نولين» بل في «أوجين أونيجين» فهي وحي روسيا في نفس الشاعر وما استطاع ان يمثر عليه فيها من مثل صادقة هي الحياة الواقعة نفسها. بل انها لتشبه في كثير تلك الحياة التي كان الشاعر نفسه يحياها والتي يصور فيها الاجتماع الروسي بأجلى بيان. ولقد كتب مأساته الكبيرة «بوريس جودينوف» عام ١٨٢٥ وبعدها بعام واحد انعم عليه القيصر بالعفو العام. وعين مؤرخاً للقيصر عقب أن تزوج «ناتاليا جونشاروفا» عام ١٨٣١. ولقد كتب يومئذ تاريخاً لثورة «بوكاشيف». كما كتب قصة «ملكة البستوني» عام ١٨٣٣ وقد نشرنا ملخصها في مقتطف فبراير الماضي. وكذلك كتب «ابنة القبطان عام ١٨٣٦». ثم بارز «جيكرين دانتيس» في ٢٧ فبراير سنة ١٨٣٧ وكان هذا الرجل عدوه ولكنه أثار غيرة بوشكين بما وجهه الى زوجته من الغزل. الا ان دائرة المعارف البريطانية تفكر ان بواعث هذه الغيرة كان لها ما يؤيدها. وأسفرت المبارزة عن جرح بوشكين جرحاً بالغاً فتوفي بعد يومين متأثراً به

الشاعر

كان بوشكين محبًّا للجماعة لا ينقطع عن المجالس الأدبية يكلف كلفاً شديداً بالمرأة وتعصف حبه قبل زواجه اشبه ما تكون بالاساطير الآن. والمرأة ما برحت صورة من صور تفكيره وخيالاً لا يبرح مخيلة الشاعر. بل هي ما برحت مصدراً من مصادر الوحي الفني الذي لا ينضب له معين

جهد بوشكين في ان يجعل شعره مثلاً رفيعاً لطبيعة التأليف بين الحقائق. كان رحيلاً بعيد النظر تتصل شاعريته بهذه المعاني السيقة التي يوحي بها الأدب ولا عجب فقد قال عنه «جوجول» «ان بوشكين لظاهرة غريبة بل انه تلك الظاهرة الفريدة للروح الروسي». وقال عنه دوستويفسكي «ان النبوة لتمثل في شاعريته». وحقاً لقد

عرف ان ينفذ الى الوجدان الانساني . وان كان قد استلهم الفن الاوروبي الشعري الا ان طابعه الروسي لم يفارق خواطره التي تتصل بقلبه الكبير . كل شيء في حياة الشاعر لهُ منحاه الشعري ولعل الشاعر نفسه وحدة تلك القصيدة الكبيرة . قصيدة الكون والحياة . وشعر بوشكين نسيجه العاطفة الانسانية بل العاطفة الالهية والخيال والذوق . ان بطرس الاكبر قد اضطلع بجهود مضنية في سبيل الاصلاح الاجتماعي واما بوشكين فقد وصل الينا في هذا الجيل لتقرير الوجدان واثبات الروح الانساني . وان قصائده لمصباح قوي ينير ظلمات النفس ويحمل للحياة الاجتماعية والعقلية رسالة الفكر الموهوب وإذن بوشكين نبي مكرم . . . »

استمد بوشكين شاعريته من معينين . الاول اقطاب الادب الاوروبي لا سيما الكتّاب الفرنسيين الذين هيمنوا على الحياة العقلية في القرن الثامن عشر . والثاني الثقافة الانجليزية التي قامت على « بيرون » « وشاكسبير » « وسكوت » . واما وحي « شاكسبير » فانت تستطيع ان تجده في قصة « بوريس جودينوف » تلك الدرة الثمينة في الشعر المرسل . ولعل ما فيها يشبه من وجوه كثيرة قصة شاكسبير « الاوقات المسيرة » . ففي « بوريس جودينوف » نحس تهديد ديمتريوس لموسكو وعلى رأسها بوريس المظنون انهُ قاتل « تساروتش » . ويعتقد عالج بوشكين تلك القصة لتطابق تاريخ « كارامزين » وهي تبين مدى العذاب النفسي الذي يتألم حياة المغتصب الظالم وخطر يوم الدينونة الذي يقترب منهُ . أما قصته « الغجر » « The Gipsies » فيتمثل في بطلها اليكو « Aleko » جماع النظرة الاجتماعية في النفوس الانسانية المكبلة التي يضمها الشعب الروسي . وان هؤلاء الفقراء الذين ينتقلون من بلد ليرتحلوا الى آخر نشأوا أحراراً لا يتقيدون بهذه القيود المدنية ولا يدرون شيئاً عن اوضاع الحياة التي تفرض على المجموع . انهم يبعدون عن كل تهذيب أو تعليم الا تلك الثقافة البدائية التي يتوارثونها . وهذا بوشكين بلسان « اليكو » ينادي الكبرياء ليسخر منها فيقول الا فلتشيحي وجهك عنا ايتها المتغطرسة . فقد خلقنا ابطالاً لا نحفل بقانون . وانما لا ننفي ان نعذب أو نعاقب انساناً . ولعل المعنى المقصود انهم كالنهر السيال يصادف السهل الدهاس فيجري ويجيء على المكان الصخري ليرتطم به وأنهم اصحاب دماثة خلق وعزة نفس لا يلجأون الى مهانة

أو يقبلون ضيماً . ولقد رمى « بوشكين » طبقة الاشراف بهذا التنديد الذي نطق به « اليكو » ويقول بوشكين عنهم « ما أسخف هذه النفوس التي تخرج الى هذا الوجود لتقضي بضعة اعوام تتضع نفسها في تقدير منازلهم من نفوس الغير . انها لجنة الرياء » . وليس « اليكو » الا أفق ترك حياة المدن ونزح الى طائفة من هؤلاء « النجر » فكان ضيف الشؤم عليهم — وهو على حد تعبير « دوستويوفسكي » ممن تزيد بهم الحاجة واختتمت حياتهم بالاخفاق واستوعبهم الادب الروسي الحديث

كان بوشكين من دهاة الاشتراكية وهذه خواطره تنساب فيها صوفيته الانسانية وعطفه الكريم بل تلك هي هواتفه الخالدة التي تنادي بتحقيق « النفسية الروسية » التي تضمن للفرد حريته ومتعته امام ما يمكنه أن يأتيه من خير للجماعة . والنفسية الروسية قائمة على التجديد في أساليب الاجتماع حتى تمهد الحياة للانسان فرصة من السعادة المنشودة . هي تسعى جهدها نحو الحرية في اتصى حدودها واعمق معانيها . لا يجب ان يحتمل الشعب « الكرياء المزيفة » التي يتصف بها رجال الدين أو اصحاب السلطة انما يجب ان يأخذ بلباب الدين وهو التسامح والتقوى وان يعمل الحكام لخير الشعوب . ولقد كان بوشكين قطباً من اقطاب الشعر الغنائي وقد اعترف ملحق التيمس الأدبي ان ترجمته متعذرة لان الوحدة بين معانيه وشعوره وأسلوبه لا تنفصم الا ويضيع سر الجو الذي تخلقه نيرانه المتناسقة

وهاك مقطوعته الصغيرة « احببتك » ففيها يقول

« اني أغرمت بك وهاك اعترافي القيه بين يديك الآن . ان ذكريات حبك لما تزل تلهبني ولست احب ان تنتهي بك الى شيء من الألم . فانا لن أرجو لك مفاجأة أخرى . لقد انطفأ سراج املي وعقد لساني ولكن تلهي يفيض بهذا الحب الذي تعزبه نفسي . فيه استوى رأي الحسود والطبيب . اني لاستمد حبك من فيض القلب فاحببتا لو تبدين بعاطفة كعاطفتي »

ولقد اكبر العالم شاعرية بوشكين لما فيها من روعة وروح . انها عيون ثرة للقلوب المتعطشة للجمال والحق ، بل هي انجيل الرحمة . وان خواطره لتصدر عن قلبه الفني الى المجتمع الروسي كالورد النضير يجلو الندى في بهجة الصباح او كالنرجس الغض اذ يبكي في ظلال المساء

فصل مضطرب

Strange Interlude

« اما الانسان فضعيف بائس ، وآلهة
في ايدي القدر ، ولكنه يشقى ويتألم بمهابة
وجلال ! » سفي فارك

يقول « تشارلز لام » : « الملهى آلة تسلية » ، ولا بأس ان يضحك الانسان ويسر ويتمتع نفسه بمسرات الحياة وفنونها ، على أن يكون في ذلك معتدلاً حكيماً . ويرى « برنارد شو » أن الملهى يجب ان يكون « مصلاً للتفكير وحاثاً ومنبهاً للوجدان ، ومظهراً للسلوك الاجتماعي ودرعاً واقية من البلاهة واليأس ، ومعيداً لارتقاء الانسان » ويقول في موضع آخر : « إن الملهى مكان لا يرتاده الانسان إلاّ لينسى نفسه ، حيث يكون قد جُذِبَ اهتمامه وأُثيرَتْ عواطفه الى أقصى درجات الاستعداد والنشاط ، وتلاشى وعيه »

ولقد كانت المسرحيات عند قدماء الاغريق من اسمى انواع الادب وفنونه ، تعنى بالمسائل الاساسية الهامة التي تشغل حياة الانسان ، فكانت صوراً لفلسفتهم ومظهراً لآرائهم في الحياة ، وهي التراث الخالد الذي أبقوه اثراً حياً في الادب العالمي ، كمسرحيات صوفقلس واسكيلس ويوريبيديس . وما تبقى منه ليس الاّ جزءاً ضئيلاً من تفكير ذلك الشعب العريق وأثراً نفيساً من عبقريته التي بقيت على مرّ العصور ، فكانت أساساً لمدنية اوربا وثقافتها العقلية

ولعلّ اروع مظهر من مظاهر الدراما الحديثة ان المؤلفين المسرحيين يعملون ما في استطاعتهم للتعبير عن خفايا النفس الانسانية ومراميها ، واظهار الافكار على ملامح الوجه قبل النطق بها . وهم يسعون بواسطة « الملهى » — المسرح — ليس للتعبير عن حقائق الحياة الظاهرية فحسب ، بل وليبان المشاعر والافكار الخفية التي هي العامل القوي في حياتنا

الصلبة . وهم يفوزون بذلك النفوذ الى ما وراء هذه الحياة العادية التي نحياها للوصول الى اعماق النفس الانسانية والارتشاف من مصادر الفكر الصافي والينابيع المجهولة المتدفقة نوراً وفكراً سامياً . وبعد فهذه رسالة « اونيل » التي يعمل من اجلها — بواسطة شخصيات مسرحياته — لاظهار العالمين المختلفين اللذين يحيا بهما الانسان — العالم الظاهر ، عالم الحقيقة والواقع ، و — العالم الخفي — الذي يتستر وراءه الانسان ، عالم الاحلام والافكار المنبثة كما يبدو ذلك في مسرحيته Strange Interlude

فكيف اذن حاز « اونيل » هذه الشهرة العالمية وامتاز على اقرانه وزملائه بمسرحياته الرائعة ؟

أَلَمْ يكن — كما قال (كلود برتون) :— « فريداً ممتازاً بقصصه حين رسم لمعاصريه صوراً حقيقية متنوعة لحياة الشعب الاميركي ، وصفحات ملونة من آماله وامانيه ، واذواقه وعاداته ، وآلامه وشقائه ، مما لم يتسنَّ لمؤلف مسرحي قبله عرض هذه الصور المختلفة على المسرح بقوة وصدق وجاذبية ؟ ! »

***

نصل الآن الى نقطة هامة في تطور شخصية اونيل الادبية ، بعد تنقله بين المذاهب الفنية المختلفة ، فاذا بنا عند مسرحيته الفريدة (فصل معترض) Strange Interlude . وهي قصة «امرأة واربعة رجال» وتطورها في نواحي الحياة المتقلبة ، وهي مسرحية طويلة ذات تسعة فصول ويستغرق تمثيلها خمس ساعات . جرت وقائعها في اميركا وتمتد خمساً وعشرين سنة . وتظهر هذه المسرحية مُعَبَّرَةً بالاحاديث النفسية الداخلية لكل شخص من اشخاص القصة على حدة ، وذلك بعد ان يقول كل شخص دوره في القصة بصوت عال ، يلتفت جانباً ويقول وكأنهُ يناجي نفسهُ ما يدور في نفسه . ومن ميزاتها انها تزخر بالقوة والحياة ، فتشعر بها كأنا امام امر واقع . فهي تؤثر في المشاهدين والمستمعين تأثيراً قوياً ، حتى ليشعر هؤلاء حين انتهائها انهم امام قصة حقيقية تمثل وتجري وقائعها في الحياة وليس على المسرح

نحلل لنا هذه المسرحية ، وهي مأساة متشابكة الحلقات ، نفسية امرأة معذبة بائسة . فهي قصة حياتها وحبها ومغامراتها . وخلاصتها : ان (نينا) Nina وهي ابنة

أستاذ من (نيو اكلند) في اميركا ، خُطِبَتْ الى طيار اميركي اسمه (غوردون) Gordon قتيل في الحرب الكبرى . وكان قد نصحهُ ابوها ان لا يتزوج من (نينا) قبل عودته سالماً من ساحة الحرب ، خوفاً على ابنته ان تبقى ارملة فيها اذا لم يعد زوجها . وكذلك ذهب (غوردون) وحارب في فرنسا ، ولكنه لم يعد كأُلوف مثله ، فحنقت الفتاة على ابيها حنقاً عظيماً ، لانهُ مانع من زواجها ممن تحب ، وقضى على آمالها وهي تحلم بحبيبها وخطيبها المفقود !

يرفع الستار في الفصل الأول عن بيت الاستاذ حيث نجد (تشارلز مارسدن) Charles Marsden وهو قنصلي مشهور وصديق للعائلة من زمن طويل . عاد من اوربا ، وهو أعزب متعلق بأُمهِ ومخلص لها الاخلاص كله ، وهو يحب (نينا) ويتودد اليها بيد انهُ لأسباب قصية ، لم يصرّح لها بحبه ، فهو حيي خجول ، ذو شخصية عجيبة ، نكاد نراه في كل فصل من فصول المسرحية ، يحوم حول المأساة ، وكأنهُ يشعر بها ، ونكنهُ يحجم عن الولوج في هذا المأزق . فهو في بيئة مشبعة بالمؤامرات والحقد والشحناء

ثم ان (نينا) تصاب بحالات عصبية شديدة وعلى وشك ان تفقد اعصابها . وهي تعلل حقها الشديد وتقرر من أبيها الذي قضى على احلامها فتقرر الانتظام ممرضةً في احد المستشفيات لمواساة الجنود العائدين من ساحات القتال ، وتوقف نفسها على خدمة الجرحى ذكرى لحبيبها المفقود (غوردون) !

وأما في (الفصل الثاني) فاننا لا نزال في بيت الاستاذ ، وهو الآن مريض ينازع سكرات الموت ، وحولهُ (تشارلز مارسدن) صديق العائلة يعتني به بانتظار (نينا) . تدخل (نينا) بيت أبيها ومعها الدكتور (ند دارل) Ned Darrell احد أطباء المستشفى ، و (سام ايفنز) Sam Evans ، وهو شاب معجب بها ويحوم حولها

اما الدكتور (دارل) فهو بعيد عن تأثير العاطفة الجنسية ، ولا يهتم بالنساء كثيراً ، ولكنهُ شديد الكراهية لتشارلز مارسدن ويبغضهُ بغضاً شديداً . فهل تكون (نينا) سبباً لذلك ؟ ! . . .

(نينا) مريضة النفس واهنة ، منهوكة القوى ، حزينة يائسة . تنتابها أوجاع مقلقة ، فيشير عليها الدكتور (دارل) بالزواج لتضع حداً لآلامها النفسية المبرحة .

وحينما تسأله (بينا) ممَّن تتزوج ، يرشدها بصديقها الشاب (سام ايشتز) فتقبل نصيحته ويتزوجا

تمر على هذه الحادثة سنة ، تزور بعدها (بينا) وزوجها بيت حماتها (أم سام ايشتز) ، فتفشي هذه لها سرًّا خاليًا ، وهو ان في العائلة مرضاً وراثيًّا عُضالاً ، قضى على ابي سام وجده وأبيه بالموت في مستشفى المجانين ، وتطلب الى بينا ان لا يكون لها أولاد . ولكن هذا الانذار يأتي متأخراً ، وأم (سام) قاسية القلب وتريد ان لا يكون لابنها أولاد ! وأمانينا فهي على العكس من ذلك ، تحب ان تكون سعيدة وان يكون زوجها مغتبطاً بها ، فاذن يجب ان يكون لها ولد ولو كان من شخص آخر ! ؟

يمضي الزمن ، والوقت يمر بسرعة . خرجت (بينا) من المستشفى والولد لم يولد بعد ، وزوجها (سام) قلق الخاطر مضطرب البال ، يشعر بالكآبة واليأس ، فقد تغيرت طباعه واضطربت حياته ، وخبت من نفسه جذوة النشاط ، فلم يعد قادراً على العمل وكتابة الاعلانات (في المحل الذي يعمل فيه) فينذره اصحاب المحل ويهددونه بالطرد اذا لم يعُدْ الى الاهتمام بعمله . ومع ان (بينا) بدأت تشعر الآن بنفور من زوجها (سام) ، الاَّ انهُ لا يزال له في قلبها بعض الحب ، فهي تريده (ان يكون سعيداً) ، وتشعر انها يسعدها هذا انها ترضي روح خطيبها الاول (غوردون) وهي ما زالت عالقة بحبه ، وان كان هو قد صار رميماً تحت التراب ! . . .

فكيف العمل اذن ؟ . . واخيراً تتفق لها الحيلة مخرجاً صبياً من هذا المأزق . فهي تصرح بكل شيء للدكتور (داول) وتقنعهُ ان يكون هو اباً لولدها الذي تريده وتحلم به ! اما الدكتور فيقبل اقتراحها بطيبة خاطر — ولكن كمالم فقط ، لانهُ الاَّ حقائق العلم المجردة ! — اما انهُ يشعر حقيقةً بحب وجاذبية نحو (بينا) فهذا مما لا شك فيه ! !

ثم ترجوه (بينا) ان يطلع سام على القصة كما هي وان يشدد عليه بطلب الطلاق منها ، بيدَ ان (داول) وهو على ذلك ان يعمل بما طلبت منهُ (بينا) بتريث قليلاً ، اذ تتراءى له مغبة هذا الامر وما سيؤول اليه حال سام فيما اذا عرف الحقيقة ، ولذا يتم فرصة غياب (بينا) وخروجها من الغرفة فيخبر سام انهُ سيكون أباً عن قريب ،

ويترك رسالة (لينا) يطلبها بعزمه على السفر الى اوربا

تمر سنة على هذه الخلدثة ، فيجد سام عملاً ويصبح رجلاً نشيطاً مجداً عاملاً ولا سيما بعد ان رزق ولداً ، فأصبح يفخر بحياته العائلية وعمله النافع ، قليل الاهتمام بالحوادث العامة . ولكن (دارل) يعود فجأة ، فيخبرها (تشارلز) عن (دارل) ويطلبها بشؤونه واعماله ، و(لينا) لا تزال تحبهُ ، واما هو فقد خمدت عاطفته نحوها

ويلي ذلك مشهد رائع مؤثر ، ربما كان اجمل ما في القصة ، حيث تجتمع (لينا) واصدقاؤها الثلاثة ، يتحدثون بصراحة والطفل (غوردون) في الطبقة العليا من المنزل يُشرف عليهم . ويتحتم على (دارل) أن لا يعترف بأن (غوردون) ابنه ، لذلك نراه يبتعد عن هؤلاء ويذهب في مهمة الى (پورتوريكو) للاشتغال ببعض المسائل الطبية هناك

وتمضي عشر سنوات يتقدم خلالها (سام) ويتخذ له مقراً في (بارك افنيو) وهو لا يتميز عن غيره من رجال الاعمال في اميركا ، بوجهه الاحمر المورد ، واعتداده بنفسه وشموخ انفه !

ثم يعود دارل ويجتمع بلينا والولد (غوردون) الذي يكره عمه (ا) الدكتور (ند دارل) كرهاً شديداً ، ولكنهُ لا يعرف سبب ذلك البغض والنفور ، وفي الوقت نفسه يحب أباه (ا) سام . . . وأما (لينا) الشقية البائسة ، المعذبة المتألمة ، فتعيش في جوّ حافل بالأكاذيب والدسائس والخداع ، وتسعى لاكتساب ود (دارل) ليعود اليها . وفي خلال ذلك يرى (غوردون) الصغير أمهُ تعانق (دارل) فتثور العواطف في نفسه ويأتي بالبغيضة الصغيرة التي أهداها اليه دارل ويلقيها على قدميه فتتحطم ، ويرسلُ الاثنين انهُ سيخبر اباه (!) سام بما شاهد منهما

نصل الآن الى الفصل الذي قبل الاخير وقد جرت حوادثه بعد بضع سنوات على اليخت الذي يخص (سام) فنرى (غوردون) وهو يفوز بدور في المسابقات المائية مختاراً من قبل (الجامعة) التي يدرس فيها ، وهو خطيب الآنسة (مادلين) وهي الآن في اليخت مع (سام) و (لينا) و (دارل) و (تشارلز) يشاهدون المسابقات التي يشترك فيها (غوردون) . (دارل) و (تشارلز) يلاحظان بدقة كل حركة تصدر من (لينا) . انها تفكر في (مادلين) — خطيبة ابنها غوردون —

لانها ستتزوج منه وتحرمها من ابنها . وهو رمز لحبها واخلاصها لحبيبها الاول الطيار (غوردون) . ولذلك فهي تصرم على ان تُسلِّم الفتاة (مادلين) بالرض الوراثي المتأصل في اسرة (ايفنز) لتحول بينها وبين الزواج من ابنها ، بيد ان (تشارلز) وقد لاحظ عليها ذلك ، وفهم ماعزمت على عمله وقوله ، يتدخل في الوقت اللازم ويمنعها من الكلام

انتهى السباق ، واذا بغوردون هو السابق ، فتستولي عندئذ على سام ثمرة شديدة من الهياج والفرح فيقع مغشيًا عليه ، وتغمى (نينا) في تلك اللحظة نفسها وهمومها ، فتبكي ستحة فوق سام

واخيراً فنحن في حديقة منزل (ايفنز) في (لونغ آيلند) ، واذا بسام قد مات وجاءت (مادلين) ومعها (غوردون) بالطيارة لمشاهدة (نينا) . ويشاء القدر ان يعود (دارل) فجأة من سفره عمله في (پورتو ريكو) ، و (تشارلز) موجود كالمعتاد (في هيجة الزحام !)

نشاهد الآن منظراً مؤثراً حيث يطعن (غوردون) كل ما بنفسه من حقد وضغينة نحو (دارل) — ابيه — ثم يهجم عليه فيلطمهُ . عندئذ تصرخ (نينا) وتقول

— غوردون ! . . . ماذا فعلت ؟ انك تضرب ابالك . . .

فيلتفت غوردون الى امه متعجباً ويقول

— هذا ما كان يشعر به ابي لو كان حيًّا . أو ليس الم دارل خير اصدقائه ؟ ! اما السر فلا يزال خفيًّا مكتوماً . . .

ويسافر بعد ذلك بالطيارة (غوردون) وخطيبتهُ (مادلين) . وتمر الطيارة محلقة فوق الحديقة فتتذكر (نينا) حبيبها الأول (غوردون) الطيار . الذي كان لهُ في نفسها اعمق الاثر ، وكانت لهُ دائماً مخلصةً وفيةً ، فيصرخ (دارل) ويمتزج صراخه بهدير الطيارة قائلاً : « إنك ابني يا غوردون ! » ثم يتوارى عن الانظار وتبقى (نينا) مع (تشارلز) وقدماتت عاطفتها وخبت الى الابد جذوة حبها ! اما تشارلز فلم يخفق قلبه يوماً للحب . وتمنى (نينا) من (تشارلز) وهو الوحيد الذي بامكانه الآن ، ان يُسبغ عليها نعمة الحياة الهنية والعيشة الرضية !

تلخيص وتعليق : فؤاد عنتابي .

مكتبة المقتطف

مع المتنبي

بحث للدكتور طه حسين بك في جزئين عدد صفحاتهما ٢٧٦ من القطع المتوسط
تنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر

كانت الذكرى الألفية لوفاة المتنبي حافزاً قوياً لدراسة هذا الشاعر دراسات جديدة تفق وروح هذا العصر فهبَّ أبناء العربية في مختلف البقاع والامصار يحيون هذه الذكرى ويحيطون اللثام عن سر عظمة المتنبي . وكان ان أرصدت هذه المجلة لأول مرَّة في تاريخها عدداً خاصًّا تولى اخراجه كاتب واحد هو الاستاذ محمود شاكر . وقام على أثره كتاب آخرون يحللون هذه الشخصية الفذة . وكان آخر ما صدر كتاب الدكتور طه حسين بك . وقد قسم بحثه الى خمسة كتب . فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه حداثة المتنبي وشبابه وبدأه بالكلام في نسب الشاعر غير أنهُ لم يتخذ الى قرار في هذا الموضوع كما خلص الأستاذ شاكر من بحثه الى قرار في صلة نسب المتنبي بالعلويين . ثم تكلم الدكتور عن الحياة الاسلامية عند مولد الشاعر فلخص ذلك البحث النفيس الذي عقدهُ عن هذا العصر في كتابه « ذكرى أبي العلاء » ثم انتهى منهُ الى الكلام في طفولة المتنبي فخالف فيه مفسري دخول المتنبي مدرسة من مدارس العلويين في ما فسروا به ذلك . وعنده « ان الارستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة لم يكونوا يرسلون ابناءهم في طور الصبا الى المدارس العامة وانما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين فاذا شبوا اخذوا يذهبون الاختلاف الى مجالس العلم في الاندية والمساجد الجامعة . انما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم الى هذه المكاتب والمدارس » . وان اختلاف المتنبي الى مدرسة من هذه المدارس لا يدل عنده على امتياز خاص وانما يدل على الاتجاه الديني الذي وجه اليه الصبي . وقد تناول بالتحقيق الخصال الثلاث التي ظهرت في شعر المتنبي الذي قالهُ في صباه وهو يختلف الى المكتب كما تناول بالدرس والتحليل شعر المتنبي في طرابلس وفي اللاذقية واستعرض ما قالهُ من الشعر الحاد العنيف الذي انتهى به الى السجن في حمص وما قالهُ بعد خروجه منهُ

واما الكتاب الثاني فتناول فيه حياة المتنبي من خلال شعره في ظل الامراء من الاوراجي حتى ابي العشائر كما تناول في الكتاب الثالث حياة هذا الشاعر في ظل سيف الدولة . وهذه الفترة من حياة المتنبي هي « خير أعوامه وأخصبها وأغناها وأكثرها حظًّا من الانتاج المختلف المتنوع » وقد وجد الشاعر في سيف الدولة وملكه تأييداً لنزعته القومية ومكان بشيء من نفوذ عربي قوي وصادف عنده بيئة خصبة متفقة ذكية ناقدة فلاءم بين نفسه وبين هذه البيئة وقد حلل الدكتور شعر المتنبي في سيف الدولة ومراثيه لاقاربه وخاصته ووصف حروبه

نخالف صديقنا شاكراً فيما استنبطه من عرام الشاعر بحولة اخت سيف الدولة من خلال مرثيته فيها ورد الدكتور قوة هذه القصيدة الى الحنين المتصل بين الشاعر وسيف الدولة بعد ان فارقه وانه لا يفهم من هذه القصيدة الا ان الفقيدة كانت تبر بالشاعر وتحسن اليه عن بعد كما كانت تحسن الى غيره من القصاد وأهل الادب . وقد انتهى في هذا الكتاب الى آخر حياة المتنبي في ظل أميره فصور لنا مالاقاه الشاعر أخيراً في هذه البيئة من مكائد ودسائس فرحل عنها ليبدأ حياة جديدة في ظل كافور ولم يكن الشاعر يقدر خدعة كافور حين استدعاه اليه فاستجاب دعوته تحته اطماع واماني مالبثت ان ذهبت مع الرياح وكان لما لقيه من خيبة الأمل اثر قوي في شعره ظهر فيما تناول به كافوراً وبيئته المصرية بلاذع القول ومر السخرية . وقد تناول المؤلف كل ذلك بالبحث والتحقيق في كتابه الرابع

اما الكتاب الخامس فقد مثل فيه حياة المتنبي الاخيرة بعد فراره من كافور حتى لقي حتفه وقد انتهى فيه المؤلف الى رأي خاص او خاطر ألح عليه — كما يقول — هو ان المتنبي لم يذهب ضحية القصيدة الفاتحة ولا ضحية جشع في ماله او متاعه وانما أدى موته الى القرامطة والى العرب ثمن حياته التي اقترفها في الكوفة وسجلها في نفسه في شيراز وعاد وفي نفسه ان يمن فيها ويباهي بها وبملأ الارض اذا انتهى الى بغداد

هذه نظرة سريعة في هذا الكتاب النفيس ولولا علمنا انه أُلِّف والدكتور مصطفى في اوربا وهو بعيد عن المراجع لكنا طالبناه بذكر المؤلفين المحدثين والمتقدمين عند نقد آرائهم بدلاً من اسنادها اليهم اجمالاً ونسياً ولعله يفعل ذلك في طبعة تالية ان شاء الله . . .

مجلة الشرق

الشرق تبدأ عامها العاشر فما أجمل هذه الذكرى !

قبل عشرة أعوام كانت الشعلة الادبية المتقدة في اميركا الشمالية توشك ان تخمد ولم تكن تتجد لازهارها طاقة تجمعها ولا لاتقاسها نافخ يردها الى التوهج . ولكن مشيئة الله التي أبت الا ان تتم نور هذه الشعلة قيضت لها الاستاذ موسى كريم صاحب « مجلة الشرق » فحملها بيديه الى اميركا الجنوبية والتف حوله ادباء العربية هناك — في البرازيل — ففتح وإياهم افقاً جديداً تطلع اليه العالم العربي وما لبثنا ان سمعنا في حديقته هذه الالحان القدسية التي ما تزال ترنح الشرق بعذب غنائها وخرجت لنا من آثار الشرق ملحمة فوزي ، وأعاصير القروي ، وعبقر شفيق ، ونفثات فرحات ، وأغاريد الصبة التي تنشر لواء العربية هناك

وانا نتهز هذه الفرصة السعيدة فنهنىء هذه المجلة الزاهية الحانية على الأدب بعامها العاشر الذي درجت اليه في ثوبها القشيب المتجدد ، وأنا لنرجو أن نعود الى درس أثر هذه المجلة في الصحافة العربية التي انشئت بعد ذلك في ربوع المهجر

الصيرفي

شعراء مصر

وبيئاتهم في الجيل الماضي

تأليف الاستاذ العقاد — صفحاته ٢٠٢ قطع وسط — يطلب من مكتبة المقتطف بمصر

من أظهر سمات أدبنا الحديث تلك الدراسات الحافلة المستفيضة التي تتناول الشعر والشعر في العصور المختلفة والرجوع بفنونها الى البيئات التي نبتت فيها وتفرعت عنها واستمدت ألوانها وصورها من ثقافاتها الموروثة والمكتسبة

ولم تعد الكتابة مقتصرة على ترجمات متصارية لحياة هؤلاء الشعراء والكتاب ولم يعد النقد الأدبي محصوراً في عرض شامل لانتاجهم الفني ومقابلته بمن سبقوهم والرجوع بالمعاني والأخيلة إلى معاني القدماء وأخيلة المعاصرين لهم بالطريقة التي سلكوها في شعر المتنبي وأبي العلاء والبحتري. ولكن النقد الأدبي قد سما الى أفق آخر من التحليل الدقيق والاستقراء العميق وفيما أخرجت المطابع أخيراً من الدراسات الادبية شواهد على الاحاطة الواسعة بكل مايتصل بالادب من الزمان والمكان وما يحيط بحياته من احوال اجتماعية وملابسات سياسية وأثر المكان كل عصر في نفس شاعره أو انعكاس حياة الشاعر في العصر الذي عاش فيه . ومن أجل ذلك قرأنا عن ابن الرومي والمتنبي وغيرهما شيئاً جديداً لم يعن القدماء به ولم يشغلوا بالاشارة اليه او التحدث عنهُ على بعد أثره في تكوين مذاهبهم الادبية وتحديد اتجاهاتهم وخلق صورهم واستلهام معانيهم

على أنك لا تقع في الدراسات الجديدة على ما يتناول شعراء عصر واحد كما تقرأ في الأدب الانكليزي مثلاً عن العصر الفكتوري أو شعراء القرن التاسع في فرنسا . لهذا كان كتاب الاستاذ العقاد عن شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي عملاً أدبياً لا بدَّ منهُ ولا غنى عنهُ لأدبنا الجديد ، ومن الواضح أن أديباً كبيراً كالأستاذ العقاد توفر على دراسة الأدب العربي في عصوره المختلفة وأحاط بمذاهب النقد الغربية لا بدَّ وان يكون لهُ رأي ناضج في الشعر مستمدة نتائجهُ من مقدمات صحيحة ، محصها التأمل الطويل وصقلها الدرس العميق ، وهذبها الذوق العالي ، وأملاها الحس المرهف ، وهي صفات احلّت الاستاذ العقاد مكانة مرموقة في ادبنا الحديث كشاعر وكاتب وناقد . على ان هذه الخصائص وان اجتمعت لأديب فأنها لا تصرفهُ عن النظرة من خلال مزاجه الخاص الى كل لون من ألوان الفنّ والادب وان هيأت له ما لا يتاح لغيره من نفاذ النظرة وعمقها واتساعها . وانك لتقرأ في كتابه عن شوقي فتلمس شواهد ذلك كله ، ولعلَّ فصولهُ في حافظ ابراهيم والبكري وعبد المطلب واسماعيل صبري وعبد الله فكري وعلي الليثي وعثمان جلال والبارودي والتيمورية من أعلى الفصول الأدبية قيمة واقومها بحثاً واسلوباً

المحفوظات الملكية في مصر

وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) للدكتور أسد رستم

عصر محمد علي زاخر بالفتوح والحوادث والانقلابات والمؤامرات التي لا يخلو منها عصر زاهر في تاريخ أية أمة . وليس هناك شك في ان يكون المرجع الوحيد لكل هذه الامور الى تلك الشخصية النادرة العبقرية العظيمة — شخصية محمد علي

في النصف الثاني من القرن الماضي عنى الكتاب والمؤرخون الاوربيون بدراسة التاريخ المصري والعثماني المعاصر ، لكن في معظم الاحوال كانت كتاباتهم لا تخلو من روح التحيز التي تتعاون مع مآرب الدول التي ينتمون اليها لتحقيق اغراضها السياسية . ويخيل اليّ انهُ باستثناء كتاب « الامبراطورية المصرية تحت حكم محمد علي » للاستاذ المؤرخ محمد صبري وكتاب « النهضة المصرية منذ حكم محمد علي » للاستاذ شفيق غربال فاننا لا نجد ابحاثاً اخرى في هذا الموضوع اهم للمؤلفين المصريين او السوريين

أخيراً كان الدكتور أسد رستم « استاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الاميركية ببيروت » موفقاً كل التوفيق في دراساته العميقة التي بدأها منذ أعوام باحثاً منقباً عن كل ما يتعلق بالحكم المصري في سوريا (١٨٣١ — ١٨٤١) وذلك بعد انتهائه من مؤلفاته النفيسة « فتوح ابراهيم باشا في سوريا وآسيا الصغرى » وعمله الفاخر « مجموعة الوثائق العربية الخاصة بتاريخ الشام تحت حكم محمد علي » . وكان طبيعيًّا للاستاذ ان يعتمد في تحقيق ابحاثه التاريخية على مجموعة المحفوظات المصرية في قصر عابدين التي تمّ تنسيقها وتنظيمها بعناية الراحل العظيم المغفور لهُ الملك فؤاد الاول . وأصبحت اليوم أهم مرجع يأخذ عنهُ مؤرخ العصر الحديث لان هذه الذخيرة التاريخية الثمينة كانت الى عهد غير بعيد مبعثرة او مكدسة في زكائب ملقاة بين جدران الدفترخانة

والغرض الرئيسي الذي من أجله وضع الدكتور أسد رستم رسالتهُ النفيسة عن « المحفوظات الملكية لمصر وأسباب الحملة المصرية في سوريا (١٨٣١— ١٨٤١) » هو ان يجعل في متناول من يدرس التاريخ المصري المعاصر فكرة وافية عن وجهة النظر المصرية لاهم الحوادث فيما بين العامين ١٨٣١ و١٨٣٣ في الشرق الادنى ومن المحتمل ان يكون من نتائجها ان تثير بعض النقد العلمي والجدل المفيد فيكشف الستار عن الحقيقة وبذلك تكون هذه الرسالة قد أدت واجبها

تناول المؤلف الفاضل في رسالته وبعبارة أوفى في كتابه النفيس الكلام على المحفوظات الملكية ومختلف مشتملاتها في الشؤون العسكرية والبحرية والادارية وأوامر الجيش وخطط المعارك والتقارير السياسية وأعمال الجاسوسية واوراق الاعداء الصادرة وأهم الحوادث اليومية

ثم يلي البحث الاصلي للمؤلف وهو «الحملة المصرية في سوريا وأسبابها» الرسمية «كموقف عبد الله باشا والي عكا ومجديد الامبراطورية العثمانية وأسبابها غير الرئيسية (غير المباشرة) التي لخصها المؤلف في المقاصد غير الطيبة للباب العالي واستغلال مصر ونقص موارد (عدم كفايتها) وادي النيل وطبيعة مصر وسوريا كوحدة جغرافية مستقلة النواحي الوطنية للنزاع

وقد تناول المؤلف ايضاً تحليل جميع هذه الأسباب على ضوء الوثائق الرسمية فوصل الى عدة نتائج منها ان محمد علي في نزاعه مع السلطان محمود كان يحارب للمحافظة على ثروته ومنصبه ومقامه كما حاربهُ ايضاً للمحافظة على حياته

وذكر الدكتور رسم انهُ كان من اسباب النزاع بين مصر وتركيا عوامل جغرافية ومثلها اقتصادية تلك العوامل التي جعلت سوريا ميداناً للخصومة بين محمد علي والسلطان محمود . فان مصر على الرغم من خصبها لم تسد حاجة محمد علي الى الخشب فكان عليه ان يستورد معظم ما يحتاج اليه من الوقود والاخشاب التي يحتاج اليها في اعمال الحرب والسلم فاضطر ان يحذو حذو تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني في العصور القديمة وابن طولون في العصور المتوسطة اي ان يبحث عن الاخشاب التي يحتاج اليها في سوريا وبلاد الفرنج . وخير مقياس نقيس بهِ ما كان لخشب سوريا وكيليكيا من المقام لدى محمد علي هو مقدار ما قطعه الجنود من أشجار الحراج المختلفة بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ فما كاد ابراهيم باشا يصل الى أطنة حتى أصدر اوامر مشددة لبناء طرق تصل بين الحراج والبحر حتى يسهل نقل الاشجار منها الى مصر . كذلك قطعت اشجار أخرى من غابة ارز لبنان وارسلت الى معامل الذخيرة والسلاح في مصر . أما المعادن فلم يكن رجال محمد علي موفقين في البحث عنها

كذلك كان محمد علي في حاجة شديدة الى الرجال الذين يعتمد عليهم في حروبهِ . فان مصر التي لم يزد عدد سكانها عن الأربعة الملايين حينئذٍ لم تستطع ان تقدم لهُ الجند الأشداء وهو في حاجة الى جحافلهم سواء لزرع الارض او لخوض غمار المعارك . فان الجيوش العديدة التي جندها من رجال مصر وخسارته في حروبهِ في بلاد العرب والسودان والمورة قلل من اليد العاملة في مختلف اعماله الزراعية والصناعية كذلك عدم فلاحه في التجنيد السوداني جعله يتطلع الى سوريا وسكانها الشديدي المراس الكثيري العدد . ونحن لا ندهش اذا رأينا محمد علي يعتمد عليهم في جيوشه وهو القائل:

« من جبال لبنان أجند جنودي فأدرب منهم جيشاً كبيراً ولا آنف بهِ إلاَّ على ضفاف دجلة والفرات »

الواقع ان المؤرخ العالم الدكتور رسم يستحق منا كل شكر ونرجو لهُ التوفيق المتواصل وهذا الحال لو ظهرت هذه الرسالة النفيسة باللغة العربية

عبد الرحمن زكي

قواعد النقد الادبي

تأليف لاسل آبركرومبي أستاذ الادب الانكليزي بجامعة لندن وتعريب الدكتور محمد عوض محمد الاستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية . نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

لهذا الكتاب مكانة خاصة يحتلها في تاريخ أدبنا الحديث فهو أول حجر في أساس نقده ، وما أحوج أدبنا الى قواعد جديدة في النقد

وقد بدأ المؤلف مقدمته بالحديث عن الخطوة الأولى في تاريخ النقد وهي التي بدأها سقراط عند ما دعا الشعراء أن يخبروه عما عنوه بشعرهم ، ثم بيّن أن دولة الأدب تحتلها ملكات ثلاث : الانتاج ، والتذوّق ، والنقد . وان من فوائد هذه الملكة الأخيرة تمكين من رزق القدرة على الانتاج الأدبي من استخدام مقدرته بذكاء واستغلالها على أحسن وجه وأكمله . وكذلك من رزق المقدرة على تذوّق الأدب فان استمتاعه يصبح مبنيًا على أساس من الفهم وحسن التخير

أما الفصل الثاني فقد تناول فيه المؤلف بشيء من البحث العقلي فن الأدب انتهى به الى سرد أهم قواعد نظرية الأدب ، وانهُ فنٌ يرمي بواسطة اللغة الى إيصال التجارب التي لها قيمة في ذاتها والتي يمكن تذوّقها لذاتها وان وظيفته هي ان يكسبنا قوة الخيال التي تتصوّر بها التجارب ذات المغزى العميق

وأما الفصل الثالث فقد أفرده المؤلف لكتاب أرسطو في الشعر شارحاً فيه نظريته في الشعر عامة لأن أرسطو كاد يلم فيها بجميع المسائل التي تولدت منها القواعد التي لا بدَّ للنقد منها مع تبيان أوجه الخلاف بينهُ وبين أفلاطون . ثم تكلم في الفصل الرابع عن اصحاب النظريات الذين ثبت أن قضاياهم ذات فائدة في النقد بادئاً بهوراس الذي يعتبره أكبر اسم في تاريخ النقد بعد أرسطو وقد كانت قصيدته « فن الشعر » سيئاً في نشر آراء أرسطو في كل أدب أوربي. وانتهى من ذلك بعد عرض لبعض رجال النقد ولبعض المذاهب المختلفة في الادب الى رأي « منزوني » المعبر باقواله عن المثل العليا للنقد الحر والهادي الى الطريق القويم للنقد الصحيح بكافة أنواعه . ثم ختم المؤلف كتابه بالنظر في رأي منزوني

هذه نظرة سريعة ألقيناها على هذا الأثر النفيس الذي أتحف به الدكتور عوض لغته وأبناءها وهو دائماً لا يضنُّ عليها بنقل نفائس الآثار اليها. فغاوست وهرمن ودوروثيه درّتان في تاج الأدب الغربي الحديث. ولعلهُ يتحفنا بعد ذلك بنقل كتاب الاستاذ لاسل « الشعر : موسيقاه ومعناه » بعد تطبيق نظرياته على الشعر العربي وهو خير من يستطيع ذلك

حسن كامل الصيرفي

دياطسرون طيطيانوس

لحضرة الاب ا . س . مرمرجي الدومنكاني

Diatessaron de Tatien

ان كل من عني بدرس كتب الاناجيل المقدسة ، وبنقد ترجماتها واوضاعها ، وبجمع الاناجيل الاربعة لتكمل بعضها بعضاً ويتكوَّن منها انجيل واحد يبين سياق الحوادث بأجلى مظاهرها ، يعرف ما هو « الدياطسرون » ومن هو طيطيانوس

فالدياطسرون هي كلمة يونانية معناها « اخذاً عن الاناجيل الاربعة » اعني مجموعة الاناجيل الاربعة . وهذه المجموعة اصلها يوناني — سرياني كتبها طيطيانوس اولاً باللغة اليونانية التي كان يجيدها ثم ترجمها الى السريانية وذلك في اواسط الجيل الثاني للمسيح . ومن بعده نقلها الى العربية ابو الفرج عبد الله ابن الطيب في الجيل الحادي عشر

اما طيطيانوس فهو رجل اشوري من شمالي العراق ومن اصل رفيع ، درس الآداب اليونانية والرومانية وطاف في بلاد اليونان وايطاليا ، وساعد القديس يوستينوس الفيلسوف السوري في عمله ، وخلفهُ في تعليمه ، ثم عاد الى بلاد اشور حيث كانت اللغة السريانية هي السائدة فجمع الاناجيل الاربعة في واحد وكتبها باللغة اليونانية اولاً ثم ترجم ذلك الى السريانية خدمةً لاهل وطنه . فان البلاد العراقية لم تكن تعرف اللغة اليونانية ولم يكن لدى المسيحيين فيها اناجيل مترجمة الى السريانية . فيكون طيطيانوس قد خدم بلاده ومواطنيه خدمة جليلة

وانتشر كتاب طيطيانوس في بلاد الاشوريين وكان المسيحيون السريانيون يقرأونهُ في الكنائس وقت الصلاة ، ويستعملونهُ للقراءة في بيوتهم كما يشهد بذلك المؤرخ الشهير اوسابيوس

والانجيل طيطيانوس الرباعي هذا هو عظيم الاهمية من الوجهة التاريخية والكتابية لانهُ مأخوذ عن الاصل اليوناني وهكذا يثبت الترجمات اليونانية اللاحقة التي بين أيدينا وأقدمها يعود الى الجيل الرابع فقط . فماذا عمل حضرة الاب مرمرجي الدومنكاني يازى

ان حضرة الاب مرمرجي هو « احد اساتذة المدرسة الكتابية والآثارية الفرنسية في القدس » ، وهو من تلك الرهبنة الدومنكانية الجليلة الشهيرة بمباحثها العلمية ولاسيما بكل ما يختص بالكتاب المقدس ومتفرعاته من المباحث التاريخية والجغرافية والاثرية والتفسيرية . ويظهر من كتابه الضخم الذي يقع في ٧٥٠ صفحة من القطع الكبير ما فيه المقدمة والذيل ، انهُ رجل ضليع في العلوم الكتابية . فانهُ اخذ انجيل طيطيانوس الرباعي السرياني ، وقابله مع الترجمة العربية ، وصحح النص العربي من الاغلاط النحوية الكثيرة التي تشوههُ ، وعاد فترجمهُ الى اللغة

الفرنسية ، وهي الترجمة الفرنسية الاولى للدياطسرون المُخْتَلِط الآثر ، وعارض تلك الترجمة بالترجمات السريانية القديمة،وذيله في حواشيه بتحليلية رياضية سريانية ، وأضاف الى ذلك كتبه اربعة روامز خارج النص . فجاء سفراً نفيساً وحلقة كريمة في سلسلة المؤلفات الكتابية الطبية

ونجح حضرة الاب مرمرجي في مقدمته نجاحاً كبيراً اذ شرح لنا من هو طيطانوس وما هو المحيل الرباعي . ثم اكبَّ على درس النص العربي وأخذ يبحث فيه وينتقده ويُصحّحهُ ويظهر معايب الترجمة العربية بمقابلتها مع النص الاصلي السرياني ويعطي لذلك امثلة عديدة جداً . وكل هذا بترتيب محكم ورجوع الى الآيات وارقامها واصل الانجيل الذي اخذت عنهُ

فجاء كتابهُ تحفة ثمينة خدم بها العلوم الكتابية واللغتين العربية والفرنسية معاً خدمة جلّى

الارشمندريت مشيل عساف

هتلر وستالين

أسس الأستاذان محمد صبيح عبد القادر ومحمد عبد الرحيم عشرداراً للثقافة العامة ، والغرض من هذا المشروع هو رفع المستوى الثقافي العام للمثقفين المصريين وغيرهم من قراء العربية في اقطارها ، فتقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير المثلي العام في شتى شؤون المعرفة ، وتقدم لهم مبسطات العلوم والآداب في اسلوب مقبول

وكانت باكورة هذه الدار ان اخرج أحد مؤسسيها الاستاذ محمد صبيح عبد القادر كتابين أحدهما عن هتلر والآخر عن ستالين فشرح في الأول الحركة النازية وكيف بدأت وتكلم عن حياة مؤسسها وما لاقاه اعضاؤها من اضطهاد وسجن ومحاربة اعداء الفكرة لهم بشتى الطرق والوسائل ، حتى تغلب على كل المصاعب [illegible] الماركسية في بلاده واتقذ المانيا وعمل على احيائها وانهاضها

وشرح في الكتاب الثاني الشيوعية والاشتراكية وذكر فصلاً مطولاً عن حياة نبي الشيوعيين وهو كارل ماركس وانتبس بعض فقراته من خطبة خطبها صديقه انجلس على قبره « وهو ان ماركس اكتشف قانون التطور في تاريخ البشرية ويعني بهذا القانون ان الدوافع المادية للانسان هي التي تكيف عقائده ونوع حكومته واسلوب تفكيره واما النظرة المادية من جانب ماركس فهي ابغض ما يصدمك في فلسفته لانهُ يحارب الشر بالشر ويحارب المادية بالمادية ». ثم لخص حياة ستالين ومولده وثقافته وتشبعه لمبادىء كارل ماركس وجهاده الكبير واصدار جريدته «برافدا» وسجنه ونفيه اكثر من مرة الى أصقاع سيبريا وتكلم عن لينين وخوفه في آخر ايامه من ستالين وبغضه له حتى كان يعمل على اخراجه من سلطته وكره ستالين لتروتسكي ونفيه من البلاد وختم كتابه بفصل ممتع عن الحياة في روسيا

فهرس الجزء الثالث من المجلد التسعين

٢٦١ تحديد النسل وآثاره الصحية والاجتماعية والدولية
٢٦٨ في جنان بافارية (قصيدة) : لبشر فارس
٢٦٩ كلية الطب : للدكتور علي ابراهيم باشا
٢٨٠ مصلحة الآثار : للدكتور سليم بك حسن
٢٨٣ الضوء والاحياء الدنيا : تجارب جديدة طريفة
٢٨٥ اقفل تلك النافذة : من كتاب القاضي بير كرايتس
٢٩٣ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي
٢٩٧ مدارس الصحافة : للدكتور ليل سپنسر
٣٠٠ الفدد والحياة
٣٠٧ الفلاح : للدكتور حسن ابراهيم حسن
٣١٥ قطرات ندى : لراجي الراعي
٣١٧ حديث اليمن : رحلة جغرافية عمرانية : لوحشي ذكريا
٣٢٣ الى الثلاثين (قصيدة) : للسيد قطب
٣٢٤ الحضارة الحقة نواحيها الصناعية والتجارية : بقلم قيصر صادر
٣٢٩ نفسية الجماهير : لنظمي خليل
٣٣٣ الرتب العسكرية في مصر والعراق : للفريق الدكتور امين المعلوف
٣٣٥ سير الزمان * ملخص رأيين في المستعمرات من الناحية الاقتصادية : للدكتور شاخت وللمستر كيلغ . لواء الاسكندرونة : للدكتور عبدالرحمن شهبندر
٣٤٩ حديقة المقتطف * پوشكين أمير شعراء روسيا : لحليم منزي . فصل معترض من مسرحيات «اوجين اونيل» : لفؤاد صيقلي
٣٦٠ مكتبة المقتطف
٣٦٩ — ملحق خاص بمؤتمر الطفل
٣٧٠ مكانة الطفل في المجتمع : لأحمد محب الهلالي بك
٣٧٣ لمحة تاريخية في تنشئة الطفل : لاحمد فهمي العمروسي بك
٣٧٧ اجرام الاحداث في مصر : للدكتور محمد عبد المنعم رياض
٣٨٢ الاطفال الشواذ : لأمين سامي حسونه بك
٣٨٦ الاطفال ذوو العاهات : للسيدة زاهية مرزوق
٣٨٩ الطفل وأوقات الفراغ : ليعقوب فام

رابطة الأطفال الاجتماعي

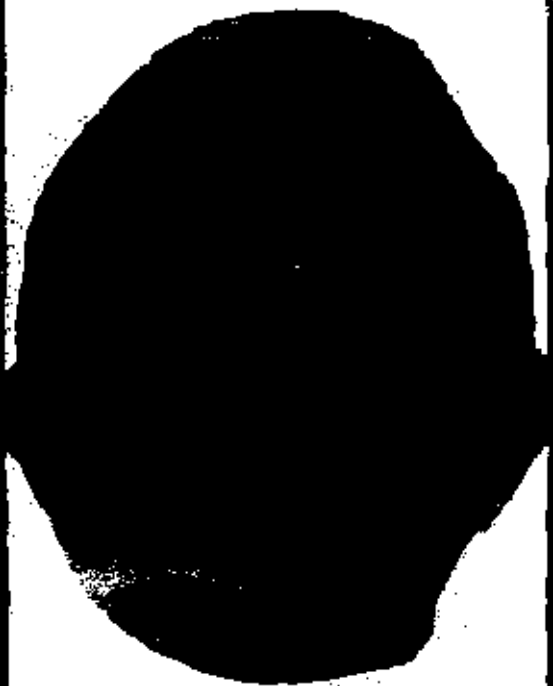

مكانة الطفل في المجتمع
لسعادة احمد نجيب الهلالي بك

لمحة تاريخية في تنشئة الطفل
لاحمد فهمي السروسي بك

اجرام الاحداث في مصر
للدكتور محمد عبد المنعم رياض

الأطفال الشواذ
لامين سامي حسونه بك

الأطفال ذوو العاهات
للسيدة زاهية مرزوق

الطفل وأوقات الفراغ
ليعقوب ...

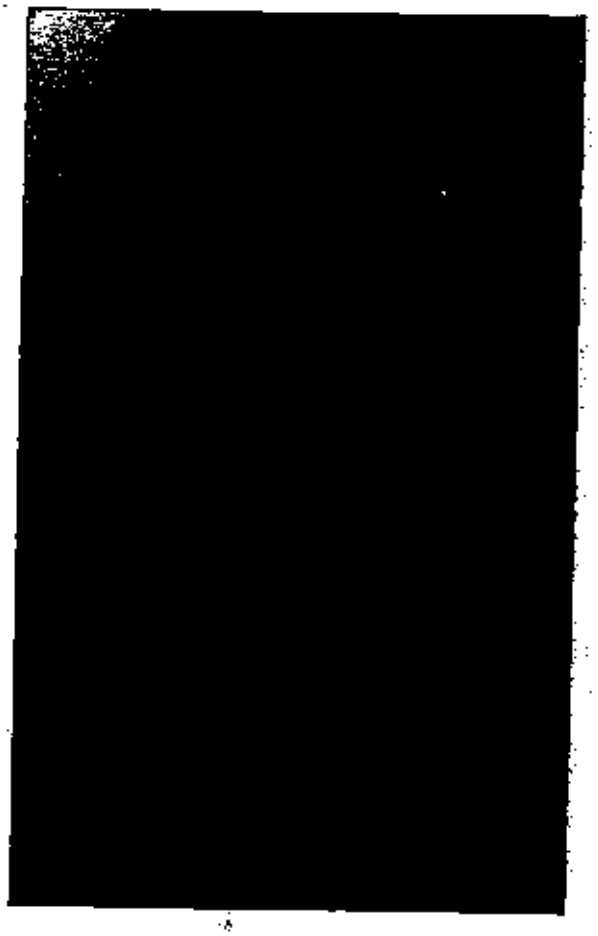

سعادة الاستاذ الكبير احمد نجيب الهلالي بك
الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة
ورئيس رابطة الاصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل

تقدمة

هذه مجموعة المحاضرات التي أُلقيت في الجلسات الثلاث لمؤتمر الطفل الذي عقدته « رابطة الاسعاف الاجتماعي » وقد استمع اليها من وسعهم ذلك « الاتحاد النسائي » من صفوة الجمهور ، بين طلبة ناهضين ، وشباب مثقف ، وسيدات فضليات ، وشيوخ يؤمنون بفكرة الاسعاف — فرغب اليها الكثيرون منهم أن نعمل على نشرها ، تيسيراً لقراءتها وتعميماً لفائدتها

وها نحن أولاء نلبي تلك الرغبة الكريمة ، في نشر المحاضرات ، شاكرين « للمقتطف » الغر ترحيبها ، وافساح صدره لها

وأكبر ما نتأمل انه تلقى من عناية القارىء بالاستفادة منها ، قدر ما لقيت من عناية أصحابها باعدادها ؟

السكرتير العام

سمير مصطفى

مكانة الطفل في المجتمع

كلمة سعادة الاستاذ الكبير احمد نجيب الهلالي بك

الوزير الأسبق لوزارتي المعارف ، والتجارة والصناعة ،
ورئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي ، ومؤتمر الطفل

—*—

سيداتي — سادتي: أحييكم أزكى وأطيب تحية وأشكر لكم ما أوليتموني من شرف كبير بافتتاح هذا المؤتمر . فكل مؤتمر للاصلاح الاجتماعي عيد أشهده بفرح مجدد. لقد نهضت البلاد لصالح شتى ومضت قدماً في السياسة والاقتصاد والعمران . ولكن حالتنا الاجتماعية بقيت ضعيفة متقلبة ، كما بقيت جميع المشروعات والتدابير الاجتماعية مجرد آمال وأحلام كسراب الضياء فوق رمال الصحراء.

والمتأمل في أحوال الأمم الاخرى يرى أن البرامج الاجتماعية هي التي خلقت البرامج السياسية وأن الاحزاب السياسية إنما قامت على أساس الاصلاحات الاجتماعية . ولكن الوضع السياسي في مصر عكس ترتيب الوجود . فالصرفنا الى القضية السياسية وتفرغنا لها حتى كدنا نتخلى عن كل قضية سواها. لم جرينا في السياسة شوطاً بعيداً ، أما في الميدان الاجتماعي فقد بقيت أقدامنا حيث كانت . ولئن كان لنا في الماضي عذر نحتج به فلا عذر لنا بعد اليوم

***

أيها السادة :

أساس الاصلاح الاجتماعي التعاون والتكافل . فالجهود الفردية في هذا الميدان قليلة البركة بطيئة الحركة ، تكاد لا تجدي نفعاً ولا ترد على البلاد خيراً

والمشاهد أن العصر الحاضر هو عصر الجماعات في الماديات وفي الروحانيات . فالأعمال المادية العظيمة في حاجة إلى الشركات . ومصالح المهن والأيدي العاملة في حاجة الى النقابات . وأعمال البر والاصلاح في حاجة الى الجامعات . وإذا كنا نرتاح لتأليف الشركات والنقابات ونجد فيها دليلاً على حياة البلاد فما لا شك فيه أن جماعات الاصلاح أدعى للنشاط والارتياح لتجردها عن كل نزعة فردية او غاية شخصية . وهذه المؤتمرات التي تعقدونها ان كانت اليوم مؤتمرات صغيرة تؤمها فئة قليلة فستكون غداً باذن الله مؤتمرات كبيرة تمثل طوائف البلاد كلها . وسيكتب الله لكم في سجل الحسنات أنكم كنتم طلائع الاصلاح وحواريه . وأنتم إذ تعقدون مؤتمر الطفل تعالجون موضوعاً خطيراً ذا أثر كبير في حياة البلاد الصحية والاقتصادية والسياسية والحربية ، فضلاً عن نواحيه الانسانية والاجتماعية . ومن المسلم به عند رجال الحرب والسياسة والاجتماع أن قوة كل أمة تتوقف على زيادة عدد السكان وزيادة موارد المعيشة ، أو كما يقول الحرب كثرة العيال وسعة الحال . ونمو السكان لا يكون إلا من طريق العناية بالطفل

وإذا كان كثير من علماء النبات والحيوان يؤكدون أن بعض النباتات تخصب وتزدهر بالهواء والنور والشمس ، فاذا زادت العناية بها رقيت في الحياة درجة درجة حتى تدب فيها الروح الحيوانية فما أولى نابتة الوطن بمثل هذه العناية ، وما أعظم الفرق بين جيل ضعيف مهمل جامد الحال على أول درج الحياة ، وجيل شديد قوي تام بلغ أعلى الدرج وورد ماء الشباب والحياة فحظي منهُ بكأس روية

وها أنتم أولاء ترون حالة الأطفال في بلادنا ، فسواد الأمة يجهلون تمام الجهل كيفية تدبير الطفل وطرق تربيته وتغذيته وتنميته وتقويته ووقايته عوامل العلل والضعف . والأطفال الذين يسلمون من الموت يحيون حياة ناقصة من حيث الجسم والحيوية ومن حيث العقل والروح . وكل أمة تهمل شأن الاطفال الى هذا الحد تنحدر انحداراً قومياً وتكون عرضة للضعف والإقواء

وأما الأغنياء فيعتقدون أنهم يحلون قضية الأطفال بمجرد ألحاقهم بالمدارس وأنهم إذ يكلون أبناءهم الى المربين الرسميين يتخلون من كل تبعة . وهم في ذلك مخطئون . فصحة الأطفال

وتربية الاطفال لا تكون إلا في البيت وصفاء الطبع وجمال الأدب وطيب الخلق لا تكتسب إلا في البيت ذلك لأن الأبوين أقدر على الالتفات للجزئيات وعلى معرفة أحوال الطفل وطبعه ومزاجه. ولأن البيت وإن كان مجتمعاً خاصًّا هو أصل المجتمعات كلها. والعادات والأخلاق التي تكتسب فيه أصل العادات والاخلاق كلها. وأثر المنزل في الطفل أشد وأبقى من جميع المؤثرات الأخرى. أما التربية المدرسية فهي تربية تابعة أو تربية تكميلية تكمل ما يستمده الطفل من حياته المنزلية وإن كان لها أثر في تشكيل الاخلاق وتكوين العقول والطباع

وتربية الاطفال في حاجة الى تعاون العلم والطب والاخلاق والقانون، وهيهات أن يتيسر للسواد الاعظم تدبير الأطفال من غير معونة الحكومة وجماعات الاصلاح من طريق التشريع والبذل والدعاية

فالدعاية والإرشاد فريضة على كل مصري قادر. ذلك لان الطفل ليس ملكاً خالصاً لأبيه حتى يصح أن يقع كل العبء عليه. هو يغذيه ويربيه حتى إذا كبر انفصل عن أبيه. وأصبح ملكاً للوطن يحكم الواقع وبحكم القانون. فمن حق الوالد على الوطن أن يعينه بالرأي والتدبير. ومن المسلم به في أصول الشرائع أن الآباء كلما كانوا غير قادرين على تربية أبنائهم اشتد واجب الحكومة في أن تقوم مقامهم

***

فاذا أراد الوطن أن يخرج من أطفاله رجالاً ونساء صالحين للكفاح الفردي وللكفاح القومي وجب على الحكومة وعلى الطبقات المستنيرة أن توفر للآباء والامهات جميع العوامل والمؤثرات التي تجعل من الأطفال رجالاً كاملين صالحين للنهوض بالتكاليف الخاصة والعامة. وما من أمة عظيمة الا سلكت هذا السبيل، وتمكنت من التغلب على الفقر والجهل من طريق العناية بالأطفال وتربيتهم التربية الحقة التي تضمن لهم أجساماً سليمة وأخلاقاً متينة وأنفساً نزيهة

***

ومن دواعي الغبطة أن يتطوع فريق من كبار العلماء والإخصائيين والمفكرين ليبسطوا لنا آراءهم في تنشئة الطفل، ويؤدوا بذلك ديناً وطنيًّا وحقًّا إنسانيًّا. فالله أسأل أن يمنحهم من حسن الجزاء على قدر ما يبذلون لبلادهم من غيرة وإخلاص ووفاء

لمحة تاريخية في تنشئة الطفل

للدكتور فريد الهرسي بك
ناظر مدرسة المعلمين العليا ومعهد التربية سابقاً

سيداتي سادتي :

خلق الله الكائنات الحية وأودعها غرائز تكفل لها الحياة والبقاء وهذه الغرائز على تعدد مظاهرها لا تخرج عن ثلاثة أنواع. الأول غرائز غايتها حفظ الشخص. والثاني غرائز غايتها حفظ النوع. والثالث غرائز اجتماعية مثل التعاون على العمل في قبائل النمل وتجمع الطيور الرحالة وطيرانها أسراباً في اشكال مختلفة

والذي يعنينا منها الليلة غريزة حفظ النوع في الانسان وهي التي تبعثه على حب ولده وتحفزه الى العمل على حفظ حياته وإسعاده جهد الطاقة ولا يكون ذلك الا بتعهده وتنشئته أرقى تنشئة وأخذه من الحداثة بأهدى أساليب التربية والتهذيب

يحدثنا التاريخ أن الفرس والمصريين واليهود كانوا يعنون بتربية الاطفال مسترشدين في ذلك بتعاليم مذاهبهم الدينية . اما في أثينا وروما فكان الأمر على الضد من ذلك اذ كانت حياة الطفل محتقرة وحريته ممتهنة فان الطفل المهمل كان لقاطة من القاطات يتملكه من يأخذه من المارة . وكانت الكنائس تأخذ منهم عدداً وافراً لاستخدامهم في شئونها المختلفة . وظل استعباد الاطفال المهملين جائزاً الى أواخر عهد الدولة الرومانية

على انهُ منذ القرن الرابع الميلادي أنشأ الفريون ملاجيء للأطفال ولكنهم للأسف خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيء فحشدوا الاطفال والمرضى والفقراء في صعيد واحد . وقد نشأ بلاشك عن اختلاط هذه العناصر المتباينة من الاضرار بالطفل مالا يتصوره العقل لذلك فصلوا بعضها عن بعض واختص كل منها بنهايته عنصراً من تلك العناصر وها نحن أولاء نرى بين ظهرانينا ملاجيء « فان سان دي بول » مثلاً قد وقفت جهودها على تربية اللقطاء

اما حماية الاطفال حماية قانونية فلم تظهر في اوروبا الا في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر ؛ وأول قانون فرنسي نص على وجوب حماية الاطفال وتقسيمهم الى مهملين وذوي عاهات وأيتام وضعفاء ومجرمين احداث وعمال قصر يعملون في المصانع والمعامل لم يصدر الاّ حوالي سنة ١٨٧٤

يثبت تاريخ الادب انهُ لم يخل عصر من تلك العصور الغابرة مع ذلك من كتّاب وشعراء دفعهم الحنان الأبوي الى الاهتمام بالاطفال ومراقبة أطوارهم وأحوالهم عن كثب فدرسوا طباعهم وتَرجموا عن عواطفهم. نذكر من أقدمهم الكاتب اليوناني « فلوطرخس » الذي عاش في منتصف القرن الأول الميلادي ؛ فانهُ بعث الى صديق له بكتاب ذائع الصيت في عالم الأدب — عقب موت ابنه الوحيدة — يصف فيهِ رقة شعورها وصفاً مؤثراً اذ يقول :

« انها كانت تتوسل الى مرضعها ان تمنح ثديها لا للأطفال الذين كانوا يلعبون معها فحسب ، بل للدمى التي كانت تلهو بها وتهش لرؤيتها وتجلسها على مائدتها وتغدق عليها أرق عبارات الملاطفة وأعذبها، كأن فطرتها السليمة تحس وجوب مقابلة الاحسان بالاحسان »

اما في الشرق فنكتفي بذكر أبيات شهيرة لحطان بن المعلى يصف فيها عطفه على بناته وهي :

« لولا بنيات كزغب القطا يقرنَ من بعض الى بعض
لكان لي مُضْطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض »

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الكتّاب والشعراء قد ازداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ حداً لا يستهان بهِ في القرن الثامن عشر عندما ذاعت تعاليم « روسو » وفلسفته في تربية الطفل

ولم يكد يبلج القرن التاسع عشر حتى توجهت افكار الناس جميعاً الى الطفل وأصبحت كل أسرة في السهر على أبنائها كالزارع اليقظ النشيط الذي يتعهد غرسه بالحرث والسقي لأنهُ في الغد بأوفر نتاج وأجود حصاد

وقد صدَّر الكاتب الفرنسي « فيليكس توما » كتابهُ « التربية في الأسرة وجنايات الآباء على الابناء » بديباجة استهلها بقوله « بينما نحن نحطُّ ونتدول إذ بالقرن التاسع

عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانه وأخذت قدمها ترسخ فيه يوماً فيوماً تلك هي دولة الطفل

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز على ما تقدمهُ من القرون بأنهُ عصر الطفل فالشعراء في فرنسا من عهد « فكتور هيجو » الى اليوم اهتموا جد الاهتمام وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الناهضة وميوله المتغيرة وراقبوا نشأتهُ تدريجيًّا من عالم الظلمة والخفاء الى عالم النور والجلاء ، وقد حذا حذوهم في ذلك الكتاب والفلاسفة والعلماء والاطباء فالتفوا جميعاً حول مهد الطفل يراقبون حركاته وإشاراته وابتساماته ويدوّنون تجاربهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل تختلف كلَّ الاختلاف عن الصورة التي صورها لهُ علماء القرون السابقة والتي كان للخيال والمبالغة فيها أثرٌ كبير

ولكننا مع ذلك ما زلنا مقصرين في واجب الطفل غامطين حقوقه الطبيعية. أليس من حق الطفل ان يولد صحيح البدن سليم العقل. نعم ولكن أيان لهُ ذلك ومعظم الناس لا يقدمون على الزواج إلاَّ بعد أن يسرفوا في الملاهي والملذات حتى تختل بناهم وتفسد عقولهم فيسلموا ذرية ضعافاً تشكو مدى الحياة الآلام والامراض التي ورثوها عن آبائهم دون أن يكون لهم أي ذنب فيها

« وذنب جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب »

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالامر اهتماماً عظيماً وحرمت عقد قران رجل بامرأة إلاَّ إذا أثبت كلاهما طبيًّا انهُ معافى من الامراض الفتاكة المزمنة حرصاً على سلامة النسل وحفظه من الامراض العقلية والعاهات الخلقية

يقول أفلاطون : « إنك اذا نصحت الناس النصح في هذا الصدد فكأنك تخاطب صمًّا لا يسمعون لانهم ينقادون الى الميول والاهواء دون الاصغاء الى نداء العقل وهدي التفكير »

أليس من حق الطفل على أمه أن تتجنب — في أثناء الحمل — كل ما من شأنه أن يضر بصحته حسًّا ومعنىً ؟ إذ ما من عمل تأتيه او فكر يمر بخاطرها الاَّ وله اثره في حياة الجنين

لقد كان توماس جوبز أحد زعماء الحركة الفكرية في انجلترا في القرن السابع عشر يشكو ميله الى العزلة عن الناس والخوف منهم ويعزوهما الى ازعاج أمه عند اقتراب الاسطول الاسباني من شواطىء انجلترا وكان ذاك جنيناً في بطنها

ألا يجب على الام في هذا الظرف العجيب الذي تفرس فيه بذور الغرائز والاستعدادات والميول في نفس الطفل أن تعتزل الحياة الاجتماعية العامة شيئاً ، فلا تتقيد بتلك الزيارات الطويلة المملة للاقارب والأبعد ولا تسرف في غشيان دور السينما والتمثيل ولا تبالغ في التأنق والتجمل إذا كان فيهما ما يضيق على الجنين في مضجعه ؟

أليس من حقوق الطفل ان يعنى الوالدان بتربيته في المنزل تربية بدنية خلقية ؟

وانما قلت تربية بدنية خلقية لأن التربية العقلية تجيء بعدها فالعقل لا يظهر الا في سن متقدمة

لذلك كان توماس اردنولد مربي انجلترا الحديثة يقول ان التعجيل بالاطفال الى طلب العلم وحشد قرائحهم بمسائل علمية لا يفهمونها قد يودي بغضاضتهم وفطارتهم ويخمد فيهم غريزة البديهة وملكة الابتكار . ولن يلاقي الاطفال في حياتهم الأولى وبالاً شراً عليهم من سبق عقولهم لأبدانهم

وفي هذا قال عروة بن الزبير منذ ثلاثة عشر قرناً لولده : « يا بني انهوا فان المروءة لا تكون الا بعد اللعب »

والمروءة هي القيام بما فوق الواجب كنصرة الذل ونجدة المستغيث وحماية الضعيف

ولا يقصد الانجليز من الرياضة البدنية ، التي بلغت عندهم شأواً بعيداً وجعلت منهم أمة عظيمة ، الى تقوية الاجسام فحسب ، بل تقوية الأخلاق وتقويم الطباع كما قصد اليه عروة بن الزبير

ولقد خطت فرنسا خطوة جديدة في سبيل العناية بالأطفال وتوسيع نطاق حقوقهم فأصدرت في سنة ١٩١٢ قانوناً يقضي تشكيل محاكم خاصة للاحداث على قواعد جديدة وخطط حديثة أرشدهم اليها العلم بعقليات الاطفال والالمام بنفسياتهم

ولا بدّ ان نسمع قريباً أنهم أنشأوا وزارة للطفل منفصلة عن وزارة المعارف دون ان تتعارض معها وتفرغ لشئون الاطفال خاصة وتعاون الاسرة والمدارس والمصانع والمعامل والسجون على القيام بهذه المهمة الشاقة وتمدهم بما قد يستجد من افكار . ويستنبط من آراء وأساليب من علم النفس الحديث . ولا عجب فالاطفال هم رأس مال الدولة والدعامة التي يقوم عليها مستقبلها

اجرام الاحداث في مصر

للدكتور محمد عبد المنعم رياض

مسائل الاحداث من أهم ما يجب أن يشتغل به الباحثون في اصلاح المجتمع المصري، بل قد تكون أهم هذه المسائل، لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بكيان الأسرة، وهي الدعامة الأولى في بناء الوطن، لذلك يجب ان لا يقصر اهتمامنا على رجال الجيل الحاضر بل يجب ان نضع نصب عيننا رعاية الجيل المستقبل، واني لا أكون مغالياً اذا قلت ان البلاد التي تشد التقدُّم يجب ان تهتم برجال الغد أكثر من اهتمامها برجال اليوم، وما رجال الغد الا الاحداث الصغار، فكل حياة تنقذ من الردى انما هي حياة فرد تحتاج الأمة الى سواعده وعقله فيما تبذله من جهد لتقوم مركزها اللائق بين الامم. وما التزاحم بين الدول الا تزاحم بين الأفراد، فكلما كانت أفراد الأمة أقوى صحة وأقوم خلقاً وأغزر علماً، كلما استطاعت ان تخوض غمار التزاحم وتخرج فائزة مهوبة الجانب. والأمم الكبيرة التي وصلت الى ذروة المجد ما أقامت مجدها الا على اكتاف بنيها، ولم يصل بنوها الى الدرجة التي تؤهلهم لبناهوا في تشييد البناء الا لأن طفولتهم قد حفظت، فخرجوا منها رجالا يقدسون وطنهم ويقومون بواجبهم نحوها، ولا أقصد ببني الوطن الذكور فحسب بل ان للاناث نصيباً كبيراً في خدمة البلاد قد يفوق نصيب الذكور أحياناً، فالمرأة تستطيع ان تساهم في اقامة صرح الوطن كما يساهم الرجل حتى لو بقيت في دائرتها الطبيعية دائرة الزوجية المخلصة والأمومة الحقة، بل قد يكون بقاؤها في هذه الدائرة أدعى لتفرغها لمهمة من أخطر المهمات هي ان تنبت في ولدها وزوجها وأهل بيتها روح الوطنية والاقدام وتكيفهم بما يتفق وحاجات البلاد، وعلى الأقل تخفف عنهم الكثير من متاعب الحياة فيستطيعون التفرغ لأداء ما عليهم على أكمل وجه — لم يكذب بسمارك وجلادستون عند ما قالا ان كل ما وصلا اليه من مجد كان يرجع لزوجتيهما، ولم يبالغ لامارتين عند ما قال ان كل عمل مجيد أساسه المرأة، بل ان روزفلت رئيس الولايات المتحدة الاسبق اعتبرها حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية وقال انها أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل

فالعناية بالاحداث بنين وبنات هي اذن اول ما يجب ان يبدأ به كل اصلاح اجتماعي، وبلادنا احوج ما تكون لهذه العناية، اذ يكفي ان نلقي نظرة على شوارع المدن الكبرى لنجد حالة محزنة تدل على اتلهم بارض الطرق وحجارتها اكثر مما تهتم بتلك الارواح البريئة التي تجول في ارجائها وتفترش أديمها، فصغار المتسولين والمتشردين وباعة الاشياء التافهة وجامعو اعقاب السجائر يملأون الشوارع والطرقات بملابس قذرة مهلهلة لا تكاد تقيهم قر الشتاء او لفح الشمس، وهناك عصابات تستغل هؤلاء الاطفال اسوأ استغلال فتحرضهم على التسول بل على الاجرام. واني لأذكر انهُ قد اكتشف من مدة قريبة امر عصابة منظمة تقذف بهؤلاء الصغار في الشوارع لجمع اعقاب السجائر ثم تتولى بيع تبغها، وقد وجد البوليس ان لهذه العصابة سجلات تبين ما يجمعهُ كل طفل وترصد حساب العصابة من ايراد ونفقة كأنها شركة منظمة من شركات الاستغلال ولكنهُ للاسف استغلال للطفولة ولنفوس بريئة كان يمكن ان تدرب على العمل الشريف المجدي — هذه حالة يجب ان لا نُغمض العين عنها بل يجب ان تنادي باصلاحها اسوةً بالبلاد الاخرى التي سارت شوطاً بعيداً في سبيل هذا الاصلاح

***

قد يكون من المدهش ان نعلم ان مصر كانت في طليعة البلدان التي اهتمت بانقاذ الاحداث من وهدة الاجرام والتشرد — فقد بدأ الاهتمام بهم في سنة ١٨٨٣ عند وضع اول قانون للعقوبات نص على معاملة الاحداث المجرمين معاملة خاصة، وفي سنة ١٩٠٤ عند تعديل قانون العقوبات أفرد باب للاحداث المجرمين تقرر فيه امكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية بدلاً من السجون العادية، وهذا الباب وان كان صغيراً لا يزيد عن بضعة مواد الاَّ انهُ يظهر بدء العناية بامر الاحداث وباصلاحهم. ثم انشئت في سنة ١٩٠٥ محكمة خاصة لمحاكمة الاحداث في القاهرة والاسكندرية حتى لا يختلطوا بالكبار من المجرمين، وكان اول قاض لمحكمة الاحداث بالقاهرة عبد الخالق ثروت باشا رحمة الله عليه، فكان يبحث قضاياهم بعناية خاصة ويضع تقارير وافية بما يراه. وقد ذكر ضمن ما لاحظهُ ان قانون سنة ١٩٠٤ قد اقتصر على معالجة الاحداث المجرمين ولكنهُ لم يتناول نوعاً آخر شديد الخطر وهو تشرد الاحداث، واقترح انشاء مدارس صناعية لايواء المتشردين من الاحداث ووضع قانون بشأنهم. وفعلاً صدر قانون في سنة ١٩٠٨ لمعالجة الاحداث المتشردين وامكان ارسالهم الى مدرسة اصلاحية لتقويمهم وابعادهم عن وسط التشرد الذين يعيشون فيه — كل هذا تمَّ في اوائل القرن الحالي وهو بدء طيب كان يجب ان يتبع باهتمام مطرد، ولكن على الضد لم تلبث تلك العناية ان فترت بعد ذلك، فالتشريع القديم الذي سبقت به مصر طائفة من البلدان منها فرنسا

— لان هذه لم تنظم محاكم خاصة بالاحداث الا في سنة ١٩١٢ — هو التشريع الذي لا يزال قائماً الى الآن . والمحكمتان اللتان انشئتا في سنة ١٩٠٥ لمحاكمة الاحداث بالقاهرة والاسكندرية هما المحكمتان الوحيدتان في القطر المصري. بل قد يلوح لي ان نظامهما بدأ يعود الى نظام المحاكم العادي مع انهُ قصد بانشاء محكمة خاصة للاحداث ان تكون هيئة شبه عائلية بعيدة عن نظم المحاكم فلا رجال بوليس ولا منصة عالية ولا جمهور نظارة ، حتى لا يتعود الطفل مثل هذه المناظر . وقد يجد فيها لذة تحبب له التردد على دور القضاء ويخيل لهُ عقله الناشيء انهُ انى عملاً عظيماً أقام له رجال الحكومة واجتمع لهُ بسببه جمهور كبير. فمحاكمة الاحداث في البلاد الاجنبية تتمُّ امام قاض واحد يجلس في حجرة بسيطة ومعهُ مساعد او مساعدة ويبحث مع الطفل كما انهُ والده . بل ان بعض ولايات اميركا عينت للقضاء في مسائل الاحداث سيدات لانهن أعلم بطرق معالجة الطفل وادعى لطمأنينته وتعرف مواضع الضعف او النقص التي تحتاج الى العلاج من الرجال، بل اكثر من هذا تشترط بعض الدول في قضاء الاحداث التخصص في دراسة طباع الاطفال وتضم اليهم اخصائيين في هذا النوع من الدراسة، ففي ايطاليا صدر تشريع في سنة ١٩٣٣ يقضي بأن يعاون قاضي الاحداث عددٌ من الرجال والسيدات يجمعون له معلومات وافية عن نشأة الطفل وبيئته حتى يستطيع ان يقرر جميع الظروف المحيطة به وتجري المحاكمة في جلسة خاصة لا يدخلها الجمهور ولا اثر فيها لمظاهر السلطة. بل ذهب التشريع الايطالي الى أبعد من ذلك فاشترط تخصيص هيئة من المحامين للدفاع عن الاحداث فلا يتولى الدفاع عنهم الا من كان اخصائياً في امور اجرامهم وهناك في دائرة كل محكمة قائمة باسماء هؤلاء الاخصائيين يختارون من بين الاشخاص الذين اعدتهم دراستهم او مجهوداتهم الاجتماعية لاداء هذه الرسالة الخطيرة الخاصة باصلاح الاحداث

***

هذا في الخارج اما في مصر فلم نخط حتى الآن خطوة جدية في هذا السبيل فنظام الاحداث عندنا لا يزال في حاجة الى عناية كبيرة سواء من الوجهة القضائية او الاجتماعية. فمن الوجهة القضائية يحاكم الاحداث في مصر والاسكندرية امام المحاكم العادية. بل ان في مصر والاسكندرية اللتين فيهما محكمتان خاصتان تستأنف قضايا الاحداث امام محاكم الجنح المستأنفة فيقف الحدث في قفص واحد مع المجرمين العتاة او المزورين او المتجرين بالمخدرات . ثم ليس في بلادنا اصلاحيات كافية، اذ ليس عندنا الا اصلاحية الجيزة وقد اصبحت خاصة بالمتشردين واصلاحية اخرى زراعية في المرج للمجرمين واصلاحية صغيرة للبنات مجرمات ومتشردات بجوار اصلاحية الجيزة وهذه الاصلاحيات قليلة جداً لا تفي بحاجة البلاد وكثيراً ما يوقف ارسال الاحداث

اليها لازدحامها بمن فيها. وليس هناك محل للمقابلة بيننا وبين البلاد الاخرى في هذا الشأن فاكثر هذه البلاد ملآى بالاصلاحيات وهي في الواقع مدارس صناعية او زراعية مهمتها اصلاح المجرمين او المتشردين الاحداث وابعادهم عن طريق الاجرام وترغيبهم في الدروس وسلوك سبيل قويم بوسائل حديثة مشوقة تجعلهم يقبلون على هذه المدارس بمحض ارادتهم

كذلك من الوجهة الاجتماعية امامنا مجال واسع للاصلاح فالعدد الاكبر من الاحداث يدفعون الى الاجرام او التشرد بتحريض اشخاص لا يلحقهم اي عقاب مع انهم هم المجرمون الحقيقيون. واكثر التشريعات الحديثة تقضي بمقابلتهم باشد العقوبات. ومن المدهش ان اكثر هؤلاء المحرضين هم من اقرب الناس للاحداث كآبائهم او اولياء امورهم. وكثيرون منهم لا يستحقون تلك التسمة الجليلة فمنهم الابوة فيسيئون استعمال سلطتهم على الاطفال ويشجعونهم على الاجرام او التشرد او على الاقل يكونون اسوأ قدوة لهم او يهملونهم ويتركونهم بلا ملجأ يتجولون في الشوارع ويتضورون جوعاً. واني لاذكر عند ما كنت في وقت ما وكيلاً للنيابة الاحداث ان جاءني امحكم عليها بالحبس مرارا لسرقات وطلبت مني ان انزع ابنتها وهي طفلة في السابعة من حضانتها لانها تخشى ان تشب البنت على سلوك امها، ولم اجد في التشريع ما يساعد على نزع هذه البنت فلجأت الى الطريق الاداري حيث استطعت الحاق البنت بأحد الملاجيء

لهذا يجب ان تتلافى نصوص التشريع المصري في هذه الناحية بوضع نظام يكفل انقاذ الطفل من اسرته اذا كانت الاسرة هي سبب فساده، ومثل هذا النظام متبع في كثير من البلاد الاخرى بل قد وصلت العناية بالاحداث في تلك البلاد ان اصبح القوم هناك يهتمون بتقصي اسباب الشذوذ في الاطفال الذين يتضح انهم غير عاديين في سلوكهم او تفكيرهم باعتبار ان هذا الشذوذ قد يؤدي الى الاجرام او يجعلهم غير صالحين لخدمة المجتمع. وهناك دور خاصة تقوم بفحص هذه الحالات طبيًّا وعقليًّا وتتابع كل حالة بما تستحق من عناية. وقد قرأت لاحد الاطباء القائمين بادارة مستشفى من هذا النوع في نيويورك اسمه الدكتور وليام لا تجفورد انهُ وجد حالات كثيرة ظهر فيها من الضروري معالجة حالة والدي الطفل قبل الطفل ذاته او معالجة ما تخلل به حياة الاسرة ذاتها من اشكالات هي السبب الاصلي لشذوذ الطفل او انحرافه عن الطريق السوي

***

بقيت مسألة تدل على انهُ حتى في وسيلة الاصلاح الوحيدة التي التجيء اليها في مصر وهي وجود اصلاحية للاحداث لا نزال بعيدين عن الغاية المقصودة. فالاحداث الذين يتخرجون من الاصلاحية يتركون وشأنهم في هذا البحر الخضم من دون أية عناية. بل قد لا يجدون عملاً يرتزقون

منهُ من نوع العمل الذي دوربا عليه في الاصلاحية ، فلا تبقى أمامهم الاَّ العودة الى الاجرام او التشرُّد مرَّة أخرى، كأن الأمر ساقية تدور في مكان واحد . حتى انهُ لو روجعت سوابق كثير من المجرمين المعتادي الاجرام الذين في اصلاحية الرجال لثبت انهم دخلوا في حداثتهم إصلاحية الاحداث. ولاعلاج لهذه الحالة الاَّ بانشاء نظام لرعاية الاطفال بعد خروجهم من الاصلاحية ، واعتقد انهُ قد بدىء في وضع مثل هذا النظام بانشاء مؤسسة صناعية يشتغل فيها الاحداث المتخرجون من الاصلاحية ويا حبذا لو قرن ذلك بانشاء جمعية تتولى رعايتهم في هذه المؤسسة او خارجها

***

هذه بعض المسائل التي يجدها الباحث في مشكلات الاحداث — وغيرها كثير لا يمكن الالمام به في مثل هذا المقام. على انه يكفي ان نشير الى ما لمسائل الاطفال من شأن كبير فأثرها يمس المجتمع في ادق نواحيه. ولهذا نجد ان مشكلات الاحداث لاقت ولا تزال تلاقي عناية تامة في أكثر البلاد المتمدنة بل ان كثيراً من المؤتمرات الدولية تعقد دوريًّا لبحثها وتقرر أوفى وسائل الاصلاح والمعالجة التي يجب اتباعها وأقرب مؤتمر دولي عقد في هذا الشأن هو الذي عقد في بروكسل سنة ١٩٣٥ وكان أهم ما تعرض له المسائل الآتية

١ — تخويل السلطة لقاضي الاحداث او لهيئة خاصة تشرف على استعمال الوالدين لسلطتهم بحيث تستطيع الحد منها عند اللزوم

٢ — العناية بالاطفال في القرى (وهذا موضوع يهم مصر جدًّا للحالة السائدة في القرى المصرية والعمل على تعضيد حركة عودة الاطفال الى الاقامة في قراهم مع العمل على جعلها وافية بما يحتاج اليه الطفل من عناية)

٣ — معاملة المجرمين الاحداث معاملة خاصة أساسها وضع الحدث تحت ملاحظة طبية ونفسية وبيولوجية ، وتعاون المدرس والمربي النفساني والطبيب على معالجة الحدث المجرم ، على أن يكون العلاج فرديًّا اي يعامل كل طفل بما يتفق وحالته. وقد يكون من الطريف ان نعلم ان هذا المؤتمر قرر ان يستعان في تدبير المال اللازم لتنفيذ مقترحاته بضرائب تفرض على غير المتزوجين او على الذين لم تنجب زواجهم اطفالاً ، أي ان يشترك العزاب والمحرومون من الاطفال في تربية اطفال الامة الذين تعوزهم العناية الابوية الاصلية

فاذا كان من فوائد هذا المؤتمر الحالي ان يوجه النظر الى مشكلات الطفولة ويرشد الى حلها او ينبه الى بعض وجوه الاصلاح في هذه الناحية الهامة لأدى بذلك أكبر رسالة اجتماعية لبلادنا في الوقت الحاضر

الاطفال الشواذ

لحضرة سامي مسعد بك

ناظر معهد التربية

---

١ — التربية الحديثة تعتبر الطفل من المادة الدراسية وهي في ذلك تخالف ما درجنا عليه من العناية بالدروس المدرسية وحشو أدمغة التلاميذ بشتى المعارف دون نظر الى الطفل نفسه . فقد كان همنا ولا يزال مناهج الدراسة وشغل اليوم المدرسي بالدرس والتحصيل . اما المدرسة الحديثة فتجعل الطفل نفسه مادة الدراسة فتتناول وظيفتها نمو الطفل جسميًا وعقليًا وروحيًا ولذلك اشترك في اعداد وسائل التربية للطفل اخصائيون في هذه النواحي منهم الطبيب والسيكولوجي والمعلم وخبير الشؤون الاجتماعية وهؤلاء جميعاً يتعاونون في هذه الوظيفة السامية ومن ذلك نشأت العيادات الطبية السيكولوجية واتسع عملها واصبحت جزءاً متمماً لعمل المدرسة للعلاج والارشاد

٢ — ولما كان التعليم قد صار الزاميًا في جميع الدول المتمدينة ومجانيًا في مرحلة التعليم الاولي أو الابتدائي وفي المرحلة التالية ايضاً في كثير منها بحكم ان الانفاق على التعليم قد صار من خير الوسائل لاستثمار مال الدولة . ولما كان الاطفال لم يولدوا جميعاً كاملين ذوي استعداد واحد فقد تعاون هؤلاء الاخصائيون في ايجاد التعليم الملائم لكل فئة وبرز السيكولوجي في الميدان واخذ يعمل مع الطبيب والمعلم والخبير الاجتماعي وقسموا الاطفال الى ثلاث ثلاث الموهوبين والعاديين والشواذ . فالموهوبون هم الاذكياء ولهؤلاء تعليم يلائم ذكاءهم ويكون منهم القادة والزعماء والبارزون في جميع الاعمال . والعاديون وهم الاغلبية ولهم تعليمهم الخاص ايضاً . واما الشواذ فهم المرضى والبائسون . وشذوذ هؤلاء اما جسمي واما حسي أو عقلي ويتفرع منهُ الشذوذ الخلقي . وذوو الشذوذ الجسمي يجب ان تكون لهم مدارس خاصة وتعليم خاص يعدهم للحياة العملية ويجب ان تهيأ لهم اسباب السعادة في مرحلة التعليم وان يعالجوا علاجاً يحسّن حالتهم بقدر الامكان . والسبب في عزلهم في مدارس خاصة ان لا يشعروا بالنقص والعزلة اذا وجد في مدارس العاديين ولان اساليب تعليمهم وعلاجهم تختلف عن اساليب وتعليم العاديين وعلاجهم . ومن هؤلاء الصم والبكم والعميان والمصابون بقصر البصر والاعشون والمقعدون والبرص والمرهفون ذوو العلل الصدرية والقلبية وهؤلاء الاخيرين مدارس تسمى مدارس الهواء الطلق

وهنا اقف قليلاً لازيل سوء الفهم الشائع بمصر عن مدارس الهواء الطلق فمنذ حين طلبت الوزارة للمدارس ان تعنى بالتعليم في الهواء الطلق واخذ كل مدرس ينقل بتلاميذه الى حوش المدرسة يعلمهم

في الهواء الطلق سواء أكان الجو صافياً نظيفاً ام شديد الحرارة ام ذا رياح محملة بالأتربة . ومرت الايام وتم المشروع ونجت الحماسة له . وفي الايام الاخيرة قرأنا في احدى جرائد الصباح اليومية ان بعضهم تقدم لوزير المعارف بمشروع يقضي بانشاء مائة مدرسة من مدارس الهواء الطلق في الارياف تقوم كل مدرسة على قطعة ارض مساحتها فدان ويحيط بسور من الاسلاك الشائكة ويبنى الاساس بالحجر ويكمل البناء باستعمال الطوب النيء للاقتصاد طبعاً — وكل هذا للاسف خلط في خلط ولا يقوم على دراسة او معرفة الحاجة الى هذه المدارس . فمدارس الهواء الطلق لا يقصد منها مجرد التعليم في الهواء الطلق ولا يقصد منها ان تكون لجميع التلاميذ وان كان من المسلم انها تكون خيراً من المنازل المستأجرة لمدارسنا . وانما المقصود ان تكون للمرهفين وهؤلاء يحتاجون لتعليم خاص ليس فيه أرهاق و علاج جسمي خاص والعاب رياضية خاصة وغذاء خاص وراحة في اسرة اثناء النهار وخصوصاً بعد الغداء ويقوم بالاشراف عليهم مدرسات وممرضات يكونون تحت اشراف الطبيب باستمرار ويحسن ان تكون مدارسهم داخلية لضمان العلاج والاشراف على التريض ومن ينفه من الاطفال ينقل الى المدارس الاخرى العادية على ان يلاحظ في ذلك ان الاطفال المسلولين فعلاً يجب فصلهم في مدارس خاصة بهم حذر العدوى وتسمى المصحات . والعجيب في الاقتراح انهُ سيجعل المائة المدرسة في الريف مع ان المدن هي المحتاجة الى هذه المدارس حيث يكثر المرهفون واطفالنا في الريف والحمد لله يمرحون في الشمس والهواء الطلق طول النهار

٣ — نأتي الآن للشذوذ العقلي . وقبل ان نتكلم عنهُ يحسن ان نقول ان علم النفس التجريبي قد تقدم تقدماً كبيراً في العشرين السنة الاخيرة فاصبح من الميسور قياس الذكاء والقدرات العقلية ومعرفة الموهوبين والعاديين وناقصي الذكاء بواسطة مقاييس مقننة يعتمد عليها كل الاعتماد . وقد صار لهذه المقاييس شأن هام لا في تدبير اساليب التعليم فحسب بل في حل كثير من المسائل التعليمية . ومن بينها مشكلة الامتحانات فعلى اساس هذه المقاييس يوزع التلاميذ في الفصول المختلفة بالمدرسة وتهيأ الدراسة المناسبة لكل فئة . ومن نقص ذكاؤهم عن مستوى خاص (٧٥ ٪ من الذكاء العادي) عادةً تنشأ لهم مدارس خاصة تسمى مدارس الشواذ عقليًّا وتكون الدراسة فيها عمليًّا وفردية لكل طفل بحسب استعداده . وقدرته وتؤهل للعيش الهنيء والرضا بالحياة

٤ — والنقص في الذكاء والتأخر في الدراسة قد يكون ناشئاً عن امراض جسمية كالزوائد الانفية واضطراب افرازات بعض الغدد الصم او الامراض المتوطنة او الامراض الوراثية او اصابة مخية او مرض قديم من امراض الطفولة كدسنتاريا حادة او حمى التيفود وكل هذه يعالجها الطبيب . وهنا تبرز فائدة تعاون الطبيب مع المدرسة وفائدة العناية بصحة الطفل . وقد يكون السبب ناشئاً من اضطراب البيئة او فقر الاسرة وسوء المسكن او التغذية او ادمان احد

الابوين او سوء معاملة المدرس . وهنا تبرز فائدة الخبير بالشئون الاجتماعية واتصال المدرسة بالمنزل . وقد تدهشون لو علمتم ان كثيراً من الأطفال الأذكياء يذهبون ضحية الاضطراب العائلي او ضحية نظامنا المدرسي

ويتصل بالشذوذ العقلي شذوذ آخر يمكن ان نسميهُ بالشذوذ الخلقي وأقول يتصل به لأن الشذوذ الخلقي يؤثر في العقل وفي قدرة التحصيل . وأسوأ انواع هذا الشذوذ ما يصل الى درجة الاجرام عند الاحداث ولذلك أنشئت لهم اصلاحيات الاحداث لا ليسجنوا فيها بل لاصلاحهم وعلاجهم وعلى هذا يجب ان تكون الاصلاحيات في يد مربين مصلحين وتحت اشراف عيادة سيكولوجية . وقد صار من اليسور علاج الشذوذ البسيط عند الاطفال كالكذب والسرقة والشراسة والخوف . . . شا كل ذلك بارشاد العيادات السيكولوجية وباتصال المدرسة بالبيت وازالة أسباب هـذا الشـ ـذ

والآن يجب ان اقول كلة عن الشواذ بمصر وأين هم وواجب وزارة المعارف نحوهم . لا جدال ان الشذوذ بأنواعهِ موجود بمصر ويجب ان تنشأ للشذوذ الجسمي مدارس على ميزانية التعليم العام وان يعد المدرسون لهذه المدارس اعداداً خاصًّا

أما الشذوذ العقلي فيكفي فيهِ ان توزع التلاميذ في جميع المدارس على حسب مقاييس الذكاء ثم نسير في تعليم كل فئة على قدر استعدادها وان نفصل من يقل ذكاؤهم عن ٧٥ ٪ في مدارس خاصة تقوم فيها الدراسة على أساس الحس والمشاهدة والتوجيه المهني

ان نظام توزيع التلاميذ في الفصول بمدارسنا نظام عتيق قائم على اعتبار جميع التلاميذ سواء في قدرتهم العقلية وذكائهم . ومن أجل ذلك لا تدهشكم كثرة الرسوب والاخفاق في الامتحانات وكثرة المطرودين من المدارس الاميرية وقلة نسبة النجاح في المدارس الحرة . فالتلميذ الذي يتكرر رسوبه بطرد وينتظم بمدرسة اهليـة ويحقق فيها ايضاً لانا لم نعطه التعليم الملائم لذكائه . بل استعجلناه فزل وفقدناه . لا تتهموا المدارس الحرة بتهمة انحطاط التعليم فيها بل لوموا النظام والاساليب

٦ — لقد خرَّج المعهد عدداً لا بأس بهِ من الشبان ذوي الاستعداد الحسن لمجاراة نزعات التربية الحديثة وكل واحد منهم قادر على اجراء مقاييس الذكاء وتوزيع التلاميذ على مقتضاها ويجب الانتفاع بهم في هذا الامر وفي توجيه التعليم توجيهاً يلائم كل فئة ويجب ان يمنحوا شيئاً من حرِّية التصرف وان يقوم العمل بالمدرسة على المرونة وحل المشكلات كلاًّ منها على حدة لا التقيد باللوائح والمنشورات والعمل من اجل النتائج والامتحانات

٧ — اذا آمنا وصدقنا ان الطفل هو مادة الدراسة الحقيقية وان المواد الدراسية يجب ان

تصاغ على قدر استعداد الاطفال. واذا آمنا بأن التعليم هو اعداد للحياة السعيدة وان مرحلة التعليم هي جزء من الحياة ولذلك يجب ان نعمل على جعلها سعيدة ايضاً لا مرحلة منفرة، اذا آمنا بكل ذلك فقد آن الاوان وحان في مستهل عهد يتطلب التجديد والنهوض ان نحاسب انفسنا مانفسنا وان نسأل انفسنا هذه الاسئلة

١ — هل المدرسة المصرية بيئة صالحة لنمو الطفل جسمياً وعقلياً وروحياً

٢ — هل التلميذ في نظر المدرسة المصرية اهم من المواد الدراسية ام هما الاول هو الدرس والتحصيل والنجاح في الامتحانات

٣ — هل هناك تعاون بين المدرسة والبيت

٤ — هل نحن مدركون ان انفاق المال على التعليم من احسن وسائل الاستثمار في الدولة

٥ — اذا كانت الميزانية لا تسمح بالتوسع وانشاء مدارس خاصة للشواذ فهل فكرنا في التجديد والتنويع في المدارس الحالية بدلاً من انشاء مدارس جديدة على غرار المدارس الحالية وهلا فكرنا في انشاء بعض المدارس الحديثة في حدود الميزانية بالغاء بعض المدارس الحالية

٦ — هل تعليم البنت بحالتها الراهنة تعليم مستقيم يعد المرأة حقاً لرسالتها المقدسة وهي الامومة

٧ — هل التعليم عامة بحالته الراهنة يهيء جواً من السعادة في المدرسة ويعد للحياة السعيدة للمستقبل بتوجيه كل طفل توجيهاً يلائم استعداده وقدرته

٨ — هل المباني المدرسية الحالية صالحة لنمو اطفالنا وهل اجورها الباهظة تدفع لصالح الاطفال ام لصالح الملاك. وهل هذه الاجور تعادل الارباح المعقولة لجانب من المال اذا وظف في بناء مدارس على الطراز الصحي الحديث واقول الطراز الصحي الحديث ولا اقول الطراز ذي الابهة والفخامة لان المدرسة الحديثة هي المدرسة الصحية البسيطة التنسيق الواسعة الساحات والملاعب

٩ — ثم هلا ترون معي بعد هذا البيان ان المدرسة المصرية بحالتها الراهنة لا تعالج الشذوذ فحسب بل تخلقه خلقاً من غير قصد

لقد اضطلعت وزارة المعارف وحدها بأمر التعليم والتربية وقيدتها بأغلال من القوانين واللوائح والمنشورات ومن الكتب والادوات المدرسية ايضاً ولم تترك لنا نحن المعلمين شيئاً من الحرية والتصرف والابتكار فمن حقنا ان نسأل هذه الاسئلة واشالها لاننا أدرى بحاجات الطفل في مراحل نموه المختلفة

ان عصر استقلال وهذا أوان النهوض والتجديد ! !

الاطفال ذوو العاهات

للسيدة ناهية مرتضى
المفتشة بوزارة المعارف العمومية

إن موضوعي اليوم من أهم الموضوعات الاجتماعية وأخطرها ولا سيما في مصر ، حيث تقع العين في كل مكان وزمان على عشرات من الاطفال ذوي العاهات ، منتشرين في الشوارع والطرقات يستدرون عطف الجمهور على ما اصابهم من ظلم الحياة

***

سادتي : إن ما شجعني على الوقوف امامكم اليوم هو شعوري بامكان استثارة شعوركم نحو تلك العقول البريئة المعذبة التي نبذها المجتمع واشمأز منها وهضم حقها وانقلب حرباً عليها ، لا بذنب جنت ولا لجريمة ارتكبت ، إلاّ إذعانها لحكم الطبيعة القاسية ، ووجودها في تلك الحياة تذوق صنوف الذل والبؤس والشقاء

ان مشكلة العاهات في مصر تخطو خطوات واسعة في سبيل الخطورة والتعقيد ، فقد أثبت التعداد الاخير ان في مصر ما يقرب من نصف مليون شخص ذي عاهة . منهم ١٠٩ آلاف أعمى ، و ٢٦٦ الف أعور ومحدود البصر ، و ٢١ الف أصم وأبكم . والباقون ذوو عاهات اخرى لم أتمكن من حصرها ، تشمل ضعيف العقل ، والمقعد ، والأبتر ، والأعرج ، والأشل وغير اولئك . وعلى العموم فان إحصاء العاهات جميعها يقل عما يقرب من ٣ ٪ من سكان القطر المصري

ولقد أحسنت الحكومة المصرية صنعاً عندما سنت قانون منع التسول ، ولكن هيهات لها أن تمنع ذلك التيار الجارف ، اذ ليست العبرة بالقوانين وانما العبرة بالعمل

وفي رأيي ان ما يقوم به الافراد والجماعات من تفهم أسباب التشرد والسعي على تلافيه هو أجدى من الف قانون

ويجب ألاّ نأخذ على هؤلاء الشواذ تسولهم ، فطبيعة حب البقاء تدفعهم الى طلب الرزق والعيش ، وانما يجب أن نأخذ على أنفسنا تركهم يتسولون لاعتقادهم أنهم اجسام بشرية مهملة عديمة النفع لا سبيل لها في الحياة الاّ أن تعيش متطفلة على الغير ، ويجب ان نعني بتعليمهم وتثقيفهم حتى نير لهم طرق الحياة ، فيخف عن المجتمع هذا الحمل الثقيل ، ومن بدوي قريباً ظهر منهم النوابغ والقادة والمفكرون

ولا يمكن أن تعد الامة عائلة إلا اذا اعطت كل فرد من أفرادها من دون استثناء حقه كاملاً في التمتع بالثقافة والتعليم. فكما ان للطفل النشاط الحق في أن يأكل ويشرب وينام فكذلك له الحق في ان يتعلم ويثقف ويساهم في بناء حضارة أمته وستقبلها

وللطفل الحق في أن يخرج الى تلك الحياة صحيح الجسم قوي البنية متمتعاً بحقوق الطفولة. فيجب ان تعطيه العناية الصحية والتعليمية والخلقية من يوم ولادته الى يوم ولوجه حياة الكفاح. وإن تعذر ذلك او كانت الوراثة عائقة دون تنفيذه فيجب ان نرحم الطفل ونرحم أنفسنا ونمنع تكوينه. وإن ما سنه الماليا من منع هذا النسل المشوه لخطوة جريئة تستحق الشكر والثناء

وربما يدهشكم أيها السادة اذا علمتم ان ٩٥ ٪ من العمى في مصر كان يمكن تلافيه والوقاية منهُ. فكم من أطفال أصابهم العمى دون ذنب، وكم منهم على وشك اللحاق باخوانهم، وما ذلك الا لاهمال الأم وجهلها او لعدم ملاءمة البيئة او عدم الاعتناء بطرق التعليم الخاصة وغير ذلك. وفي مصر نجد ان في كل الف شخص ٨ عميان و١٨ من ضعاف البصر او على وشك العمى، وبعبارة أخرى فان عدد اصابات العين ٢٦ اصابة لكل الف شخص، وهذه نسبة لا يستهان بها

وأما من جهة الصم والبكم فهما أخف وطأة وأقل خطراً. ومن الغريب أننا لا نجد بين المتسولين ومحترفي الشحاذة من هو مصاب بالصم او البكم الا نادراً جداً. وربما كان ذلك ناتجاً من عدم ظهور تلك العاهة أمام عين الجمهور فلا يتمكن المصاب بها من استثارة العطف عليه

وأما ضعف العقل فهذا على ما أظن لا يمكن إحصاؤه حتى الآن لعدم استعمال اختبارات الذكاء على الاطفال عامة. فما نجده في الاحصاء العام انما هو تعداد الاطفال البلهاء فقط، وأنتم تعلمون أن ضعف العقل درجات. ولا ننتظر من ضعاف العقول ان يدركوا جميع القوانين والأصول الاجتماعية فتركهم كذلك في المجتمع انما يزيد مشكلة الاجرام وهدم القوانين الاجتماعية خطورة وتعقيداً. وكثيراً ما تستعمل هذه الفئة كآلة في أيدي المجرمين الأذكياء لقضاء مآربهم الدنيئة

***

وهناك طائفة أخرى من ذوي العاهات هي نتيجة المدنية والحضارة، فلا يمر يوم الا ونسمع بحوادث التزام والسيارات فيذهب الأطفال والرجال ضحيتها، اما الى الموت وإما الى عالم العاهات. وكم من أطفال حرموا لذة الجري واللعب فأصبحوا مقعدين، وكم منهم أصبحوا بتراً وكم منهم فقدوا حاسة أو عضواً من أعضائهم

ولو أمكن عمل تعداد صحيح لهذه الفئة لعلمتم أيها السادة تضخم النسبة. ان هذه الحال يجب ألا تستمر. فكم منكم لديه أولاد يخاف عليهم ويخشى غائلة تلك الحوادث. فيجب علينا إزاء

ذلك أن نجب للمحافظة على نشء المستقبل الذي نحن أحوج ما نكون الى صحة بدنية وخلوه من العاهات ويجب أن نحافظ على الفتى والفتاة منهُ ونصد عنهُ مكاره المدنية وآلامها

وليس من بلد الاّ وفيهِ الآن حركة واسعة النطاق لحفظ النشء ضد الحوادث والأهوال وفي سبيل ذلك يتضامن الشعب مع الحكومة لسلامة الاطفال . ولقد سمعت بالمجلترا في الصيف الماضي وزير المواصلات يتحدث بنفسهِ الى الاطفال خاصة في هذا الموضوع ويذيع عليهم راجياً ان يسمعوا نصيحتهُ الأبوية ويتبعوا التعليمات والارشادات المعطاة لهم في المدرسة عن كيفية عبور الشوارع وإرشادات البوليس وغير ذلك مما يضمن لهم السلامة العامة

***

وكثيراً ما نجد الاطفال في مصر يتخذون الزقاق وسيلتهم الوحيدة للهو والتسلية ، أو يلعبون في الشوارع العامة معرضين انفسهم للاخطار . وما ذلك الاّ لمجرد حبهم الطبيعي للعب والتسلية . وهم في الحقيقة يجب ألاّ يلاموا على ذلك وإنما يجب ان نلوم انفسنا على عدم انشاء المحلات اللائقة والكافية لاشباع ميلهم الطبيعي للعب . اذاً فيجب على الحكومة ان تضع نصب عينها انشاء ملاعب الاطفال وتزويدها بما يجب من الألعاب المسلية البريئة التي تلذ للاطفال وتجدد نشاطهم . وكثيراً ما نجد في البلاد الاوربية والاميركية هذه الملاعب مزودة بجميع اللعب ، منظمة أحسن تنظيم ويها اخصائيون لادارة الالعاب وارشاد الاطفال

يجب علينا ان نفكر جدياً في مشكلة الاطفال ذوي العاهات ، ويجب علينا ألاّ نتركهم في الشوارع يسيرون . بل يجب أن ننشىء لهم المعاهد العلمية الصحيحة التي فيها يجد المستقبل ما يحتاج اليهِ من التربية والتعليم والتوجيه الخلقي والعملي الصحيح الذي يعده ويمكنهُ من تذوق لذة الكفاح في الحياة . ولو اتسع الوقت لذكرت لكم المدهشات التي يراها الانسان عند زيارة هذه المعاهد في اوروبا واميركا ، فتجد الشخص الذي يقرأ بلسانه ، او يكتب ويرسم برجليهِ ، وغير ذلك مما يدلنا على قوة استغلال كل ما يمكن استغلاله من أعضاء المرء ليعوض نفسهُ جانباً مما فقده بفقدان الأعضاء الاصلية

ولا أطيل الحديث ايها السادة، ولكني متأكدة أن في وسع كل فرد منا رفع مستوى أمته في ناحية من النواحي ، وهذا ليس بالمساعدة في إعطاء الشحاذين والمتسولين القروش والملاليم ، ولكن بنشر الدعاية او بمطالبة الحكومة بإنشاء ملاعب للاطفال في كل قسم او بجمع التبرعات للجمعيات الخيرية، او تفهم الاطفال تفهماً صحيحاً يخفف عبء المشاكل الاجتماعية التي نجدها في المنازل المصرية

الطفل وأوقات الفراغ

ليعقوب قام

يقصد بأوقات الفراغ تلك الفترة الزمنية التي تعقب النشاط المدرسي ، فالطفل يذهب الى المدرسة في الساعة الثامنة مثلاً ويخرج منها في الساعة الرابعة بعد الظهر ، ثم يتذكر دروسه ساعتين او ثلاثاً ، وينام بعض الوقت وينفق البعض الآخر في الاكل ولوازم الحياة الضرورية وما تبقى بعد هذا يعتبر وقت فراغ في حياة الطفل

واول شيء نلاحظهُ في مصر انهُ ليس للطفل فراغ بالمعنى الذي نفهمهُ لان معظم ساعات النهار تنفق في الدروس والمدرسة وما يتصل بهما عن قرب او بعد ، ومجموع ما يصرفهُ في هذا يقرب من ستين ساعة في الاسبوع وهذا بالطبع كثير على صبي ما بين العاشرة والسادسة عشرة ، وقد حرّم على المصانع في الغرب ان تشغل العمال البالغين اكثر من ٤٨ ساعة في الاسبوع وبعض الامم جعلها اربعين ساعة فما بالك وهؤلاء اطفال يفترض فيهم انهم يحتاجون الى الحرية ليشبوا نموًّا يتعذر من دونها

نقد غالينا في مسألة التعليم بمعالاة جعلتهُ عبئاً ثقيلاً على الناشئة ، ولا سيما والتعليم في مصر من الاعمال الشاقة المرهقة التي تشوه بها قوى الاطفال البدنية والعقلية ، وعوضاً عن ان تكون المدرسة امتيازاً للاطفال اصبحت تكليفاً لهم ، وحرام ان يذوء الطفال بتكاليف الحياة وهم في مستهل حياتهم

الواقع ان التعليم عملية تتم في نطاق النشاط العادي ومن غير حاجة الى هذا الارهاق . يستطيع الطفل ان يتعلم ما يشاء وما يراد لهُ عن طريق اللعب والنشاط الحر الذي ينبعث عن دوافعه النفسية ، ولست اعرف طفلاً واحداً خرج من اسرة حديثة راقية من دون ان يكون قد تعلم مبادىء القراءة والكتابة او بعض اللغات ، والحساب والجغرافيا وما اشبه . وذلك عن طريق اللعب والنشاط الحر دون ارهاق او تكليف ثقيل ، فاذا كان هذا مستطاعاً في بعض الحالات فلماذا لا يكون مستطاعاً في جميع الحالات ؟ لا بل لماذا لا يتعلم الاطفال عن هذا الطريق — طريق اللعب والنشاط الحر — كل ما يزمعون ان يتعلموه ؟ ولماذا لا تستنبط المدرسة طرقاً متعددة متباينة تجعل التعليم في حكم اللعب عوضاً عن ان يكون في حكم الاشغال الشاقة ؟

يخطىء من يظن ان الحياة مؤسسة على المعارف والمعلومات او الحقائق المستقلة التي تعلمها في المدرسة او في غير المدرسة ، انا بالطبع لا ننكر ان الحقائق نافعة للحياة ، بل خير لي ان اعرف

الجهات الاربع الاصلية ، وينبغي ان اعرف الشرق والغرب والشمال والجنوب ، حتى لا اضل الطريق الى هذا المكان او ذاك ، وحتى استطيع التفاهم مع الناس فيدلوني على مكان حديقة الحيوانات دون ان يكلفوا انفسهم الذهاب معي ، وخير لي ولك ان يكون في استطاعتنا تمييز الالوان حتى نستطيع ان نتفاهم مع الناس ، هذا حق ، ولكنه حق من الجهة الاخرى ان هذه المعارف والحقائق ليست اساسية للحياة ، فالفرد يستطيع ان يعيش وينشط دون ان تكون له هذه الحقائق . والدليل على ذلك ان الجالسين في هذا الهول قد يختلفون فيما بينهم على تحديد هذه الجهات . وهذا يحدث عادة عند ما ينتقل المرء الى بلد غريب ، أما الالوان فأمرها مشهور معروف لأن اختلاط الالوان مرض منتشر الى حدّ ما وهو ما يسمونه Color Blindness وهو مرض يصيب اكثف في الغرب المصاب به ، وعلى كل حال ماذا يفيد الأعمى من الالوان !

الغاية من هذا الكلام ان الحياة لا تتوقف على معلومات مفردة متباينة يجمعها الفرد في المدرسة او في غير المدرسة عن طريق التلقين ، وانما ما ينفع الحياة هو الاختبار ، الحياة والعيش من يوم الى يوم ، الأخذ والعطاء بين أفراد الناس ، الاحساس المباشر بمؤثرات الحياة حولنا ، وهذه جميعاً لا يحصل عليها الطفل من الجلوس في حجرة الدرس ، وانما يناله من معاركة الكون الطبيعي حوله ، ومن اتصاله اتصالاً مباشراً بالاحياء وبالنظم الاجتماعية

في المدرسة يحصل الطفل على معلومات وحقائق قد تنفعهُ في حياته العادية وقد لا تنفعهُ ، وانما يجمعها على كل حال ، وفي خارج جدران حجرة الدرس يخضع لمؤثرات الحياة ، ويستجيب لهذه المؤثرات بنشاط ينبعث عن دوافعه النفسية ، ونشاطه هذا هو في الواقع الأساس الذي تقوم عليه حياته في مجموعها . في المدرسة اعرف ، وفي خارج المدرسة اعيش ، ونحن هنا نطلب العيش للطفل لأن غرامنا في هذا البلد بجمع المعلومات المبعثرة المتناثرة قد طغى على تقديرنا للحياة والعيش . لقد اصبحنا نرغم أطفالنا على اهمال الحياة والعيش من أجل فتات الحياة ، من أجل بعض المعلومات والمعارف التي لا تسمن ولا تغني من جوع

اذا كان الأمر كذلك لحياة الطفل تتوقف الى حدّ كبير على نشاطه خارج حجرة التدريس ، او على أوقات فراغه ، ونوع النشاط الذي يقوم به من تلقاء نفسه من دون ارغام او ضرورة خارجية ، هذه الفترة هي التي تكوّن الطفل وتكيف حياته من جميع جهاتها ، وتنمي ملكاته النفسية والبدنية ! وماذا نطلب نحن الا هذا ؟ ماذا نريد غير تكييف حياة الطفل وتنمية ملكاته ؟

لا نقصد من كلمة « الفراغ » الوقت الضائع لغير غاية أو قصد ، الذي نراه يتناثر من بين أصابع الناس بالدقائق والساعات ، فهذا وقت لا ينفع الحياة بحال من الاحوال ، وانما يقتطع منها

لغير سبب الا الكسل والاهمال ، وهذا هو الحال مع كثير من الشبان والرجال الذين ينفقون ما يقرب من خمس أعمارهم في شرب عدد من فناجين القهوة على قوارع الطرقات . ما نقصد بأوقات الفراغ تلك التي يقضيها الصبي في نشاط حر من ظماء نفسه منبعث عن الدوافع الطبيعية للحياة كاللعب مثلاً

اللعب ميدان فسيح من ميادين الحياة تنشط فيه لأغراض توخاها الحياة بنفسها ، انه ضرورة من ضرورات الحياة كالغذاء والتنفس سواء بسواء مع فارق بسيط بينهما ، وهو ان الضرر الناشيء عن حرمان الطفل من اللعب ضرر مؤجل تظهر آثاره بعد سنين كثيرة ، بينما الضرر الذي ينتج عن حرمانه من الغذاء حرماناً بائناً ضرر عاجل تظهر آثاره في أيام معدودات

نريد ان نثبت هذه الحقيقة في ذهن الجمهور المصري وهي ان الحياة تتوقف على نوع النشاط الذي تقوم به ، فلا ينفع الحياة شيء سوى ما تقوم به هذه الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، الحياة كوحدة كاملة والحياة في اعضائها المتعددة ، وبعبارة اخرى لا ينفع الرئة مثلاً الا ما تقوم به هي نفسها ، اذا ما انتفخت وتقلصت في هوائي ، فالرئة لا تصح قوية بحال الا اذا نشطت ، والا اذا كان نشاطها منظماً مستمراً ، وعندما يضعف نشاطها تضعف هي ، ثم اذا انقطع نشاطها انقطعت بها سبل الحياة

هذا هو شأن الحياة في مجموعها وفي تفاصيلها ، نريد ان يكون طفلك عداء ، مهد السبل لقدميه لتنشط ، دعه يجري ويعدو ، ولا تستطيع ان نرى سبيلاً غير هذه لمثل هذه الغاية ، فأرجو ان تسمحوا لي ان اكرر هذه الحقيقة مرة اخرى وهي ان الحياة لا تقوم بحال من الاحوال الا على ضروب النشاط الذي تضطلع به الحياة

١ — اذا كان الامر كذلك دعونا نعود الى موضوع اللعب ، لنرى مقدار صلاحيته كميدان للنشاط الفردي ، ولا اظن احداً هنا ينازعنا في ان اللعب بانواعه ميدان صالح لتنمية الجسم في مجموعه ، ولتقوية اعضائه كل على حدة . هذه حقيقة مفروغ منها ، اذا كنا نريد اطفالنا على ان يكونوا اصحاء البدن اقوياء البنية معتدلي القامة على جانب وافر من النشاط ، فما علينا الا ان نمكنهم من أخذ حاجتهم من اللعب

٢ — ولكن الناحية المادية من اللعب ليست هي كل ما يناله الفرد من هذا الضرب من النشاط ، فقد استقر في ذهن البعض من قديم الزمان انه نشاط مادي بدني صرف ، والحقيقة على خلاف ذلك ، لان علماء التربية مجمعون على انه نشاط عقلي اجتماعي ايضاً ، فالارتباط بين البدن والعقل امر مفروغ منه ، هذه المادة التي تنطوي عليها جمجمة الرأس والتي يتم فيها النشاط العقلي هي مادة بلاشك ، شأنها كشأن جميع المواد تتغذى وتكيف وتنمو وتنشط كباقي الاعضاء ، سواء بسواء

وحظ هذه المادة من النشاط الذي ينبعث من اللعب حظ وافر غزير ، فهي بحكم مركزها

تهيئ على كل انواع النشاط ، ولا يمكن ان يتم نشاط ما في أي جزء من اجزاء الجسم دون ان يمر هذا النشاط اولاً بتلافيف المخ او ما يتصل به كالحبل الشوكي ذهاباً وإياباً فكل حركة مأتيها الانسان طوعاً لابد وان تمر به

٣ — قلنا ان اللعب ليس نشاطاً ماديًّا صرفاً ، والآن نقول انهُ نشاط يشمل جميع مناحي الحياة من عقلية واجتماعية وبدنية والفرق بين اللعب والعمل في رأينا هو ان الاول منهما ينبعث من دوافع نفسية ، بينما العمل منشأه الدوافع الخارجية ، فالنجار الذي يفضل شيئاً آخر على التجارة ومع ذلك يشتغل بها لإقامة أود حياته وحياة عياله انما هو يشتغل ، ولكن الطالب الذي يمارس التجارة للتسلية فهو يلعب ، وهذا الضرب من النشاط لهُ اثره في اخلاقه وتكوينه ، وهكذا الحال في جميع مرافق الحياة ، فقد يكون الامر الواحد لعباً وعملاً شاقًّا في نفس الوقت

والناس قد اصطلحت على ان تترك اللعب لاوقات الفراغ ، او بمعنى آخر يلعب الانسان اذا لم يكن مكلفاً من جهة ما القيام بعمل معين ، وفي آخر الامر يصبح اللعب نوعاً من العمل يهواه الفرد ويضطلع به اجابة لميوله الخاصة ومشاعره النفسية

ونحن ندعو في التربية الى الاكثار من هذا الضرب من النشاط فان عليهِ يتوقف مصير الفرد ، نريد من الامة المصرية ان تراعي ميول الاطفال عندما تسن لهم مناهج التعليم حتى لا يصبح العلم اشغالاً شاقة يدفع عليها الاطفال قسراً وهم صاغرون

تحاول وزارة المعارف ان تدخل هذه الروح — روح اللعب — الى حجرات الدرس ، فان نجحت في هذا خدمت اطفال هذا البلد ، وان عجزت دونهُ ، ستبقى مشكلة التعليم قائمة في مصر

الجريدة السورية اللبنانية

الجريدة الرسمية للرابطة العربية في الارجنتين

تصدر صباح كل يوم من ١٦ صفحة باللغتين العربية والاسبانية

أنشأها الاستاذ موسى يوسف عزيزه في ١٢ ك ٢ سنة ١٩٢٩

مديرها الحالي : أمين قسطنطين

رئيس التحرير المسؤول في القسم العربي : الياس فضل

يحرر فيها نخبة من حملة الاقلام الحرة

عنوانها :

EL DIARIO SIRIOLIBANES

Reconquista 339

Buenos Aires—Argentina.

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية وما في النزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً

وعنوانها : Journal Oriento
Caixa Postal 1402, Sao Paulo, Brazil

الاصلاح

مجلة شهرية علمية

تصدر مرة في الشهر في بونس ايرس عاصمة الارجنتين

لصاحبها ومنشئها الدكتور جورج صوايا

عنوانها شارع سان مرتين ٦٤٠ بونس ايرس

قائمة سلسلة المطبوعات المصرية

التي ستنشر بتقرير « ادارة المطبعة المصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص	
٣٠	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	« « « « (طبعة ثالثة)
٧٠	« عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٠	« المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	« عربي انكليزي فقط
١٥	« انكليزي عربي فقط
٧٠	« سفر اط سيرو عربي انكليزي (بالقفط)
٥٠	« « « انكليزي عربي (بالقفط)
١٠٠	« « « « « وبالعكس
١٠	انتحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (بالقفط)
١٠	الفكاهة المالي (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٠	روح الاشتراكية (لنوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٠	روح السياسة « «
١٠	الآراء والمعتقدات « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « «
٨	الحضارة المصرية (لنوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (لرمبي مكدونلد)
١٥	ملتى السبيل في مذهب الشيعة والاعتقاد
٨	اليوم والغد (للاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات « « «
٨	نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠	انقلاب فرانس في مائة سنة للامير شكيب ارسلان
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠	جريمة لفستر بوتار (لاناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني)
١٠	نبض الزمن (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠	الغزال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥	حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «
٥	« « ثالث « «
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراثي النجاح (لارشندريت بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ص	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥	خواطر حائر (للاستاذ الجلي)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	دكرا وانثى خلقهم « « «
٤٠	علم الاجتماع (جرجي كيرلس « «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فكري
٢٠	المرأة وفضيلة الثانيانيات « «
٢٠	التضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠	تاييس « « « «
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اموال الاستبداد ، مصورة
١٠	« فاتنة المهدي ، او استاذة السودان
٨	« الانتقام العنيف (اسعد خليل داغر)
٥	« فقر وعفاف (للاستاذ احمد وافت)
١٢	« باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة الجذورة
٢٥	« روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	« ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠	« باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠	« الملكة ايزابو ، ٤ اجزاء «
٢٠	« الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠	« عتاق قنيسيا ، جزآن «
١٦	« الساحر العظيم ، اجزاء «
١٦	« كابيتان ، جزآن «
١٦	« الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦	« بائعة الخبز «
١٢	« المبرجة ، جزآن «
١٠	« فارس الملك «
١٠	« ضحايا الانتقام «
٨	« المرأة المفترسة «
٥	« المتنكرة الملعونة «
٥	« سروحة الاسود «
٥	« شهداء الاخلاص «
١٦	« دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «
١٠	« الجنون فنون « «
٨	« حورية « «
٨	« التلامان الطريدان « «
١٢	يسوع ابن الانسان (جرجي خليل جرجي)
٥	« النبي (« « «)
٥	« آلهة الاوض (« « «)

٩ مارس ١٨٣٧ — ١٧ نوفمبر ١٨٣٨

امير اللواء مصطفى مختار بك مدير المجلس العالي ومدير المدارس

ويصح أن يقال أنهُ أول ناظر للمعارف المصرية في عهد الاسرة العلوية